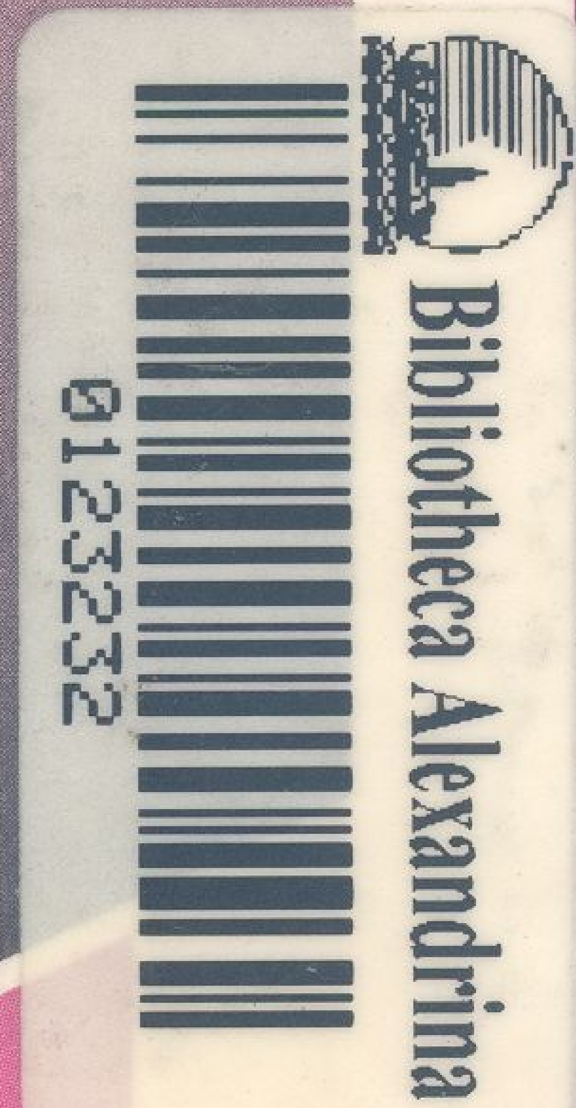
بول تيليش

زعزعة الاساسات

ترجمة

مجاهد عبد المنعم مجاهد



زعزعة الأساسات

الطبعة الأولى

1415 هـ ـ 1995 م

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

بيروت ـ الحمرا ـ شارع اميل اده ـ بناية سلام

هاتف : 802296- 802407- 802428

ص. ب : 113/6311 ـ بيروت ـ لبنان

تلكس : 20680- 21665 LE M.A.J.D

بول تيليش

زعزعة الأساسات

ترجمه

مجاهد عبد المنعم مجاهد



المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

هذه هي الترجمة العربية الكاملة لكتاب :

The Shaking of The Foundations

By

Paul Tillich

إهداء الترجمة

إلى كامل يوسف حسين:

محبّاً لي ولبول تيليش

مجاهد عبد المنعم مجاهد

بول تيليش من الخارج

(1886 ـ 1965)

- فيلسوف ألماني المولد أمريكي المواطنة.
- ولد في إقليم بروسيا.
- درس في جامعات برلين وتوينجن وهال.
- حصل على الدكتوراه في تطوير فلسفة شلنج عام 1911 من جامعة برسلان.
- حصل على إجازة في اللاهوت 1912.
- رُسِم قسيساً عام 1912.
- تزوج حنا فرتر 1924.
- قام بالتدريس في جامعة برلين وماربورج وفرانكفورت.
- طرده النازيون من عمله وهاجر عام 1933 إلى الولايات المتحدة الأمريكية.
- قام بالتدريس في عدة جامعات أمريكية منها هارفارد وكامبردج وييل ونيوهافن وكاليفورنيا وكولومبيا.
- حصل على جائزة السلام 1962 من رابطة الناشرين الألمان.

المؤلفات:

1910 بناء تاريخ الدين في فلسفة شلنج الوضعية.

1912 التصوف والوعي الآثم في تطور شلنج الفلسفي.

1923 نسق العلوم وفق موضوعاتها ومناهجها.

1925 فلسفة الدين.

1926 الموقف الديني.

1933 القرار الاشتراكي.

1936 ذكرياتي الرحّالة

1936 تفسير التاريخ.

1947 الحقبة البروتستنتانية.

1948 زعزعة الأساسات.

1951 ـ 1963 اللاهوت في إطار المذهب.

1952 الشجاعة من أجل الوجود (صدرت ترجمته عن المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر مجد ـ بيروت).

1954 الحب والقوة والعدالة. (صدرت ترجمته عن دار الثقافة ـ القاهرة).

1955 الديانة الانجيلية والبحث عن الحقيقة القصوى.

1955 الوجود الجديد.

1957 ديناميات الايمان.

1959 لاهوت الثقافة.

1963 الأخلاق وما وراءها.

1963 الآن الأبدي.

1963 المسيحية ومواجهة أديان العالم.

1965 الوضع العالمي.

1966 مستقبل الأديان.

1967 بحثاً عن المطلقات.

1967 منظورات عن اللاهوت البرتستنتي في القرن التاسع عشر والعشرين.

1968 تاريخ الفكر المسيحي.

1969 ما هو الدين؟

1971 التوقع السياسي.

تقديم

جدل الزلزلة والحب

نتحدث نحن (عن) التنوير. . . لكن الفيلسوف الألماني الأصل الأمريكي المواطنة (1886 ـ 1965) بول تيليش فضل أن (ينير) لنا الطريق. . . إنه يقوم (بفعل) استنارة. . . إنه يشارك (في) التنوير بدل أن يتحدث (عن) التنوير. . . والتنوير عنده الذي يشارك فيه ويصنعه هو أن نخلق الجديد. . . وخلق الجديد شرطه الأول موت القديم وأن تتم مشاهدة القديم على أنه قديم. . . لا يُخْلق الجديد من ترقيع القديم أو من أفضل ما في القديم. . . وعلى هذا لا بد وأن يموت القديم في الذاكرة. . . وكما أن شرط قيامة المسيح كما يذهب بول تيليش استناداً للنصوص الانجيلية هو أن (يُدْفن) المسيح أولاً بعد صلبه، فإن شرط قيامة الجديد هو أن (يُدفن) القديم. . . وليس الجديد الذي يدعو إليه تيليش هو أخذ أفضل ما في القديم، فإن أفضل ما في القديم كان يوماً ما جديداً. . . جديداً لعصره. . . لكنه يريد الجديد الذي يعلو على العصر ويكون صالحاً لكل العصور. . . إنه يدعو إلى وجود جديد. . . وهذا الوجود الجديد هو الأبدي. . . والأبدي أو الخالد يعلو على القديم والجديد معاً. . . وهذا الأبدي هو الحب. . . إن الجديد لا يقوم على ناموس مفروض على الناس بل يقوم على الحب الذي يقيم جسوراً على انفصالات الانسان عن الآخر والمجتمع والطبيعة بل ونفسه. . . ولهذا فإن بول تيليش يختتم كتابه (زعزعة الأساسات) بقوله: «إن الحب هو قوة الجديد في كل إنسان وفي كل التاريخ. إنه لا يمكن أن يشيخ؛ إنه يمحو الإثم واللعنة. وهو يعمل حتى اليوم نحو خلق الجديد. إنه خفى في ظلام نفوسنا وفي ظلام تاريخنا، لكنه ليس خفياً تماماً على أولئك الذين هم في قبضة حقيقته لقد قال النبي أشعياء: «ألا (تعرفونه)؟» فهل نحن لا نعرفه؟».

ويقول تيليش في كتابه (الآن الأبدي): «الحب هو الكلمة التي أحبها للتعبير عن إبداع الروح» ويقول أيضاً في الكتاب عينه: «الحب ليس عاطفة جياشة، إنه دم الحياة، قوة وحدة المنفصل. والقوة بدون حب تفضي إلى الانفصال والإدانة والسيطرة على الضعيف. إن الحب يوحد المنفصل».

وحتى يمكن خلق الجديد، خلق الأبدي، خلق الحب، لا بد من زعزعة الأساسات، لا بد من زلزال ينسف الأوليات والقديمات وكل أشكال التخلف وكل ما يسجن الإنسان في البعد المادي.. ومن هنا جاء كتابه هذا يحمل الدلالة الكبرى والرسالة الأولى المطلوبة منا (زعزعة الأساسات) ومن هنا يصطاد تيليش تدعيماً لقوله شاهداً من سفر إشعياء في العهد القديم: «وأسس الأرض تزلزلت وانسحقت الأرض إنسحاقاً، تشققت الأرض تشققاً، تزعزعت الأرض تزعزعاً ترنحت الأرض ترنحاً كالسكران وتدلدلت كالعرزال وثقل عليها ذنبها فسقطت ولا تعود تقوم».. ولقد حدث زلزال معاصر: سقط الاتحاد السوفييتي.. وحدث زلزال الخليج.. وحدث زلزال تفكك الشخصية القومية وتسلل الطريقة الأمريكية داخلها وقد وصفها تيليش في كتابه (الآن الأبدي) بقوله: «الطريقة الأمريكية في الحياة هي نقمة تأتي من الماضي لكنها أيضاً لعنة تهدد المستقبل» ولقد تنبأ بالزعزعة التي نعيشها الآن منذ أربعين سنة عندما قال في(زعزعة الأساسات): «في أيامنا هذه إن أساسات الأرض تتزعزع (بالفعل)».

فما هو المطلوب مع وقوع الزلزلة؟ أن ننتهز الفرصة فندمر القديم وندفنه حتى في الذاكرة حتى يمكن للجديد أن يقوم.. يجب دفن سجننا في الحاضر، دفن سجننا في الماضي، دفن سجننا حتى في المستقبل.. علينا أن نستبقي الآن الأبدي. تلك اللحظة المستقطعة من الزمن ولكن من خلال الحب الذي يملأها نرى الأبدية.. ففي لحظة الحب، رغم أنها آن، إلا أننا نعبر بها إنفصالاتنا ونحقق وصلنا واتصالاتنا ونستعيد الوحدة مع الآخرين.. وبهذا نصل إلى الكلي واللامتناهي واللامحدود.. وفي هذا الزمان الأبدي نتخذ قراراتنا وساعتها لن تكونَ قراراتنا وسيلة بل غاية.. يقول تيليش: «لقد قررنا من أجل (الوسيلة) للسيطرة على الطبيعة والمجتمع. لقد خلقنا وهماً وأوجدنا شيئاً جديداً وعظيماً في تاريخ البشرية كلها. لكننا استبعدنا (الغايات). إننا لم نتهيأ للإجابة عن السؤال: (مِنْ أجل ماذا؟)» وعلى هذا لا بد من زعزعة أساس الوسيلة من أجل الغاية.. ويؤكد تيليش أنه «دائماً ما أشعر بأنه توجد قلة قادرة على تسجيل

زعزعة الأساسات ـ قادرة على مواجهة هذا وقادرة فوق كل شيء على الجهر بما تعرف لأنها على درجة عالية من الشجاعة لمواجهة عداوة الكثيرين والتي ليس منها محيص. ولهذه القلة تتوجه كلماتي بصفة خاصة» وهو لا يطلب منا إلا: «كونوا ما أنتم ـ هذا هو الشيء الوحيد الذي يستطيع المرء أن يطلبه من أي إنسان». . ويحدد تيليش الرسالة المطلوبة منا: «لا توجد رسالة على الأرض أعظم من الدعوة للمداواة وطرد الشياطين». . مداواة المرضى والضعفاء والفقراء والمساكين والمستضعفين في الأرض وطرد شياطين المادة والجشع والنهب والسلب والتكالب وهي الشياطين التي استولت على أثمن ما في الإنسان: الروح. . وحولته من إنسان (الوجود) إلى إنسان (التملّك). .

وإذا كان الجديد عند تيليش هو الحب فإنه الحب المليء بالقوة. . لا القوة المادية بل قوة تغيير الواقع وتغيير الحياة وتغيير الإنسان على أساس من العدل. . . فقوة الحب هي قوة العدل الذي فيه فبدون العدل يتحول الحب إلى عبودية لطرف وتسيّد للطرف الآخر. . وحتى يمكن أن يكون الحب عادلاً لابد أن يكون مقترناً بالشجاعة. . شجاعة خلق العدل. . وهذا يجعل الإنسان يحيا في القلق. . وهو ليس قلقاً نفسياً وليس قلقاً على شيء بعينه. . بل القلق على الوجود كله خشية أن ينزلق في بالوعة العدم. . إنه قلق على الجديد. . قلق على الأبدي. . قلق على الحب. . إنه قلق من أجل جعل الوجود وجوداً حقيقياً. . وهذا الوجود الحقيقي هو قوة الوجود. . فالإنسان والوجود محاطان بالإنفصالات. . وينبهنا تيليش للمعنى الحقيقي للانفصال. . «لقد أزيلت جدران المسافة في الزمان والمكان بالتقدم التكنولوجي، لكن جدران الغربة بين القلب والقلب قد تدعمت بشكل مخيف». . ويقول: «إن غربتنا وخطيئتنا هما القيدان اللذان يبقياننا بعيدين عن الوصول إلى الحياة الخالدة هنا والآن». . فهل سيكتب للانفصال اليد العليا؟ يلاحظ تيليش أنه قبل الانفصال كانت الوحدة. . الوحدة هي الأصلية ثم حدث التمزق. . إن الوحدة هي المبدأ والانفصال حالة تالية. . ورحلة الإنسان هي سعيه الأبدي لاعادة الوحدة من جديد. . جعل المنفصل متصلاً . . لا بد من زعزعة أساسات الانفصال سعياً للتكامل والكمال والوحدة والوجود الجديد والحب. . وكل هذا يقتضي منا رحلة للعمق. . اىعمق في النفس حيث نلتقي بموجد الوجود، بالاهتمام الأقصى، بالله. . مصدر الوجود والحب. . وعلى هذا «فإننا وعالمنا سنكون

أفضل وأصدق وأعدل إذا كان هناك مزيد من الراحة للنفوس في عالمنا. إن أعمالنا ستكون أكثر إبداعاً وأكثر قهراً، قهراً لتراجيديا عصرنا إذا انبثقت من مستوى أعمق لحياتنا. لأن عمقنا الخلاق هو العمق الذي نكون فيه هادئين».

والله الذي هو منبع الوجود ومنبع الأبد ومنبع الحب هو رب الناس جميعاً وهو الذي ليس له كفوا أحد.. وعندما جعل اليهود الله رباً لشعب بعينه ومكان بعينه ظهرت نزعتهم العنصرية التدميرية وهم بهذا معرضون للدمار بأيديهم.. «فعندما استخدمت الأمة اليهودية ذلك الكشف كتعلة تتذرع بها للزهو القومي وحولت الله إلى مجرد إله قومي حدث انهيار لأن الاله القومي مدان دائماً من قبل التاريخ. وإن سر اليهودية اليوم يكمن في تلك الواقعة» لكن الله الحقيقي هو رب العرش العظيم رب البشر جميعاً.. صاحب النعمة والعناية الالهية على أساس أن العناية الإلهية «لا تعني تخطيطاً إلهياً كل شيء فيه جرى تحديده من ذي قبل شأن الآلة الفعالة. بل إن العناية الالهية تعنى بالأحرى أن هناك إمكانية خلاقة ومفتقدة وإرادة في كل موقف لا يمكن لأية حادثة أن تدمرها. إن العناية الالهية تعني أن القوى الشيطانية والمدمرة في نفوسنا وفي عالمنا لا يمكن أن تكون لها اليد العليا القابضة علينا وأن الرابطة التي تربطنا بتحقق الحب لا يمكن أن تنفصم»... وبهذه العناية الالهية التي كلها نعمة وبركة يتم خلاص الروح. وعمل الروح عند تيليش هو الحرية.. وممارسة الحرية هي الغوص في العمق حيث يلتقي الإنسان بخالق الإنسان «فالعمق هو الحقيقة، وفي العمق يكمن الأمل؛ وفي العمق يكمن الفرح».. وفي العمق توجد الروح.. و«الروح هي أولاً وقبل كل شيء قوة، القوة التي تدفع الروح الانسانية فوق نفسها نحو ما لا تستطيع أن تحرزه بنفسها، ألا وهو الحب الذي هو أعظم من كل الهدايا الأخرى، الحقيقة التي فيها عمق الوجود يفتح نفسه لنا، المقدس الذي هو تجلي حضور ما هو أقصى». لكن الروح لن تمارس عملها إلا لو تزعزت الأساسات وتقلقلت الأرض وتساقط القديم البالي وتم دفنه حتى في الذاكرة.. حتى يشرق الجديد.. يشرق الحب.. ومن هنا يأتي الخلاص.. ويصبح كل إنسان هو المُخَلِّص.. يصبح «المداوي الذي يحمل للنور حقيقة جديدة في الإنسان وعالمه» و«ما لم يقل الكثيرون لأنفسهم: (من خلال القوة المُخَلِّصة العاملة فينا قد يتم إنقاذ البشرية أو تضيع) فإنها تضيع».

هذا هو الإطار الذي يتفلسف داخله الفيلسوف المعاصر بول تيليش.. وُصف بأنه فيلسوف ديني ووُصف بأنه لاهوتي.. ووُصف بأنه وجودي.. ولكنه هو نفسه يصف نفسه بأنه إنسان واقف عند التخوم: والتخوم أو الحدود في نظره هي نقطة إنفصال واتصال معاً، هي خير مكان يمكن أن يحصل الإنسان عنده العرفة.. وهو يرى في التخوم رمزاً لتطوره الشخصي والعقلي... أن يقف مع ولا يقف ضد.. إنه واقف عند تخوم الفلسفة والدين، عند تخوم الدنيوي والأخروي، عند تخوم الزمني والمطلق، عند تخوم الفاني والأبدي، عند تخوم الكارثة والأمل.. إنه لا يريد أن ينغلق ولا يريد أن يكون بلا إطار.. إنه يريد أن يكون مركز الدائرة ومحيطها معاً. يتحدث فلسفياً برموز دينية.. ويتحدث دينياً برموز فلسفية.. يتحدث تاريخياً وعينه على المطلق.. ويتحث عن الأخرويات وأقدامه مغروسة في الأرض.. ممزق وقاهر لتمزقه.. منفصل وبان جسوراً للاتصال.. يزعزع الأساسات وينشد أن يسود الحب الذي هو الوصل كله والوحدة كلها وباني الانسان والتاريخ والعالم.. فإذا تزعزعت الأساسات إنبنت أساسات جديدة دون زعزعة.. هذا هو هدفه، وتلك هي رؤيته وتلك هي رسالته.. يريد منا أن ننصت إليه.. شريطة أن يكون لدينا استعداد للانصات فإنك لن تُسمع الموتى ولن تسمع الصم الدعاء.

ومنذ حوالي ثلاثين سنة أنصت إلى بول تيليش في كتابه هذا (زعزعة الأساسات).. لكنني صدمت في البداية عندما وجدت في الصفحات الأولى أنه مكتوب على شكل مواعظ.. وكنت قد اشتريت الكتاب قبل هذا بسنوات فأغلقت الكتاب دون أن أقرأه يائساً.. ويشاء حسن حظي وإنصاتي أن أعود إليه بعد خمس سنوات وإذا بي لا ألتهم الصفحات التهاماً فحسب، بل إذ بي أتزعزع من كل أعماقي.. لقد قلقلني.. ودفعني إلى أن أبدأ رحلة العمق بحثاً عن الجديد.. بحثاً عن الأبدي.. بحثاً عن الحب.. بحثاً عن الإنسان.. بحثاً عما لا يغيب أبداً.

مدينة المقطم 20/ 7/ 1994

مجاهد عبد المنعم مجاهد

تصدير

هناك سببان دفعانني إلى الموافقة على نشر كتاب من المواعظ في هذا الوقت. لقد روى لي العديد من تلامذتي وأصدقائي خارج معهد اللاهوت ما واجهوه من مصاعب في محاولة النفاذ إلى فكري اللاهوتي. وهم يعتقدون أنه من خلال مواعظي فإن المداخلات العملية، أو الوجودية بمعنى أدق لنزعتي اللاهوتية واضحة على نحو أكثر جلاء. وأنا أحب أن أعتقد أن المواعظ الواردة هنا إنما تساعد على أن تبين أن الطابع النَّسقي الصارم الذي يتصف به اللاهوت لا يحتاج إلى أن يحول بينه وبين أن يكون (عملياً) ـ أي: أن يكون قابلاً للتطبيق على المشكلات الشخصيَة والاجتماعية لحياتنا الدينية.

وعلى أية حال هناك سبب أكثر أهمية يدفع إلى نشر هذا الكتاب. إن جانباً كبيراً من الحشد الذي يحضر قداسات يوم الأحد يأتي من خارج الدائرة المسيحية بالمعنى الأكثر جذريّةً للعبارة؛ فبالنسبة لهم لا يكون للموعظة بالمصطلح الانجيلي التقليدي أي معنى. ولهذا اضطررت إلى البحث عن لغة تعبر بمصطلحات أخرى عن التجربة الإنسانية التي يشير إليها المصطلح الانجيلي والكهنوتي. ومن هذا الموقف تطور نمط من المواعظ ذو طابع مسيحي. ولما كنت أعتقد أن هذا هو بصفة عامة الموقف الذي يجب أن نتحدث به عن الرسالة المسيحية اليوم فإنني آمل أن نشر بعض المحاولات لتلبية هذا الموقف قد لا تكون بلا جدوى.

والمواعظ الواردة في هذه المجموعة قد طُبعت كما ألقيتها مع تغييرات طفيفة. وأنا لم أعاود تحريرها من أجل النشر. ومعظمها ألقيته في إتحاد المعهد اللاهوتي سواء في قداس الأحد بالكنيسة أو في اللقاءات اليومية في الكنيسة. والمواعظ الجديرة بالاستنساخ هي وحدها التي أوردتها والتي أثارت ولقيت استجابة من الطلاب.

والنصوص الانجيلية مستمدة من عدة ترجمات. وفي حالات عديدة جمعت بين عدة ترجمات لتكوّن النص الوارد(*).

وما كان يمكن للكتاب أن ينشر بدون العمل المكثف الذي قام به عدد كبير من تلامذتي السابقين الذين قاموا بتنقيح المواعظ وتنظيمها بفهم كبير وبنقد إبداعي. وأحب أن أعبر عن أعمق شكري للآنسة ماري هيلز والآنسة إليزابيث كوبر والآنسة كارولين سبير والمُبجّل وليم أو. فنل والمبجل وليم ر. كولمان.

مدينة نيويورك
بول تيليش

(*) اعتمدت في ترجمة النصوص الانجيلية على الترجمة العربية المعتمدة للكتاب المقدس (المترجم).

(1)

زعزعة الأساسات

«نظرت إلى الأرض وإذا هي خربة وخالية وإلى السموات فلا نور لها.

«نظرت إلى الجبال وإذا هي ترتجف وكل الآكام تقلْقلَتْ. نظرت إذا لا إنسان وكل طيور السماء هربت. نظرت وإذا البستان برّية وكل مدنها نُقِضَتْ من وجه الرب من وجْهِ حمّو غضبه.

«لأنه هكذا قال الرب. خراباً تكون كل الأرض ولكنني لا أفنيها. من أجل ذلك تنوح الأرض وتُظلم السموات من فوق من أجل أنّي قد تكلمت قصدت ولا أندم ولا أرجع عنه ومن صوت الفارس ورامي القوس كل المدينة هاربة. دخلوا الغابات وصعدوا على الصخور. كل المدن متروكة ولا إنسان ساكن فيها. وأنتِ أيتها الخربة ماذا تعملين!».

(إرميا: الإصحاح الرابع: 23 ـ 30)

«فإن الجبال تزول والآكام تتزعزع أما إحساني فلا يزول عنْكِ وعهْدُ سلامي لا يتزعزع قال راحِمُكِ الرب».

(أشعياء: الإصحاح الرابع والخمسون: 10)

«ويكون أنّ الهارب من صوت الرعب يسقط في الحفرة والصاعد من وسط الحفرة يؤخذ بالفخ. لأنَّ ميازيب من العُلاء انفتحت وأسس الأرض تزلزلت. إنسحقت الأرض إنسحاقاً. تشققت الأرض تشقّقاً. تزعزعت الأرض تزعزعاً. ترنّحت الأرض ترنّحاً كالسكران وتدلدلتْ كالعِرْزال وثَقُلَ عليها ذَنْبُها فسقطت ولا تعود تقوم».

(أشعياء: الإصحاح الرابع والعشرون: 18 ـ 20)

يصعب علينا أن نتحدث بعد أن يكون الأنبياء قد تحدثوا كما هو وارد

في هذه الأقوال. إن كل كلمة أشبه بضربة مطرقة. لقد كان هناك أوان كنا نستطيع فيه أن ننصت لمثل هذه الكلمات بدون مشاعر فياضة وبدون فهم. لقد كانت هناك عشرات السنين، بل وحتى قرون لم نكن نأخذ هذه الأقوال خلالها مأخذ الجد... إن تلك الأيام قد ولّت، واليوم علينا أن نأخذ هذه الكلمات مأخذ الجد؛ ذلك أنها تصف بقوة استبصار ما تعيشه غالبية الناس في عصرنا وما ربما تعيشه كل البشرية في مستقبل ليس بعيداً كثيراً على نحو كبير. «إن أسس الأرض تزلزلت، تزعزعت الأرض تزعزعاً» لقد أصبحت رؤى الأنبياء ممكنة من الناحيتين الفعلية والمادية وربما تصبح واقعاً تاريخياً.

إن عبارة «إنسحقت الأرض إنسحاقاً» ليست مجرد استعارة شعرية بل هي واقع صلب. هذا هو المعنى الديني للعصر الذي قد ولجناه.

إن الكتاب المقدس يحدثنا دائماً عن بداية العالم ونهايته. إنه يتحدث عن الأزل قبل أن يتأسس العالم؛ إنه يتحدث عن الزمن الذي أرسى فيه الله أسس الأرض؛ إنه يتحدث عن زعزعة هذه الأساسات وعن إنسحاق العالم وتزلزله. ولقد جاء في رسالة بطرس الثانية «ولكن سيأتي كلصٍّ في الليل يوم الرب الذي فيه تزول السموات بضجيج وتنحل العناصر محترقة وتحترق الأرض والمصنوعات التي فيها». لم تعد هذه مجرد رؤية؛ لقد أصبحت حقيقة مادية. ونحن نعرف أنه في أساس أرضنا وفي أساس كل شيء في عالمنا مما له شكل وبناء ترتبط به قُوَى الدمار. وإن طرح أسس الأرض يعني ربط هذه القوى. وعندما تتقيد القوة الجامحة لأصغر أجزاء عالمنا المادي بالأبنية المتماسكة يتاح موضع يمكن للحياة أن تنمو فيه وللتاريخ أن يتطور من خلاله، وهو موضع يمكن فيه أن نسمع الكلمات وأن نستشعر الحب، وهو موضع يمكن فيه أن نكتشف الحقيقة وأن نعبد الأبدي الخالد. كل هذا ممكن لأن الفوضى النارية التي كانت في البداية قد تبدت في تربة الأرض الخصبة.

ولكن من وسط التربة الخصبة تولَّد كائن وتغذى وكان قادراً على أن يجد مفتاح أساس كل الموجودات. هذا الكائن هو الإنسان. لقد اكتشف المفتاح الذي يفتح قوى الأساس، تلك القوى التي كانت مقيدة عندما طُرِحت أسس الأرض. لقد بدأ يستخدم هذا المفتاح. لقد أخضع أساس الحياة والفكر والارادة لإرادته (هو). ولقد أراد الدمار. ومن أجل الدمار استخدم قوى

الأساس، وهو بفكره وعمله قد فتح الأسس ووحدها. وهذا هو السبب الذي يجعل أسس الأرض تهتز وتتزلزل في زماننا.

وبلغة الأنبياء فإن الرب هو الذي يهز الجبل ويذيب الصخور. وهذه لغة لا يفهمها الإنسان المعاصر. والرب ليس مقيّداً بأية لغة خاصة ولا حتى لغة الأنبياء، ولهذا فإنه يتكلم لأناس اليوم من خلال فم أعظم العلماء وهذا هو ما قاله: أنتم أنفسكم يمكنكم أن تهيلوا النهاية على رؤوسكم. لقد وضعت القوة لزعزعة أسس أرضكم بين أيديكم. وتستطيعون أن تستخدموا هذه القوة إما للابداع وإما للدمار.. كيف ستستخدمونها؟ هذا ما قاله الرب للبشرية من خلال عمل العلماء ومن خلال اكتشافهم لمفتاح أسس الحياة. ولكنه من خلالهم فعل المزيد. لقد فَرضَ كلمة عليهم كما فرضها على الأنبياء رغم محاولتهم أن يقاوموها. فما مِنْ نبيّ يحب أن يقول ما عليه أن يقوله. وما من عالم يشارك في الاكتشاف الكبير والمرعب يحب أن يقول ما عليه أن يقوله. ولكنه لا يملك إلاّ أن يقول؛ عليه أن يرفع صوته مثل الأنبياء لكي يقول لهذا الجيل ما قاله الأنبياء لأجيالهم: إن الأرض والانسان، الأشجار والحيوانات مهددة بكارثة لا يكادون يملكون منها فكاكاً. إن هناك قلقاً هائلاً يعبّر عن نفسه من خلال كلمات هؤلاء الرجال. والأمر لا يقتصر على أنهم يشعرون بزعزعة الأساسات بل يمتد الأمر إلى أنّهم مسؤولون عن هذا إلى حد كبير. إنهم يقولون لنا إنهم (يحتقرون) ما فعلوه لأنهم يعرفون أنهم تركونا وليست لدينا سوى فرصة ضئيلة واهنة للهرب. إنّهم وهم يتأرجحون بين الأمل الواهن واليأس العميم يحثوننا أن نستغل هذه الفرصة.

هذه هي الطريقة التي يتحدث بها الله لجيلنا عن زعزعة الأساسات. لقد نسينا الكثير عن مثل هذه الزعزعة. والعلم من دون الأشياء جميعاً هو الذي جعلنا ننساها. ليس العلم كمعرفة بل العلم بهدف العبادة الصنمية الخفية، بهدف إغرائنا على الاعتقاد بأن أرضنا هي المكان الذي تتأسس عليه مملكة الرب، بهدف الاعتقاد في أنفسنا بأنهم هم الذين سوف يتحقق هذا من خلالهم. هناك أنبياء لهذه العبادة الصنمية - أنبياء كذبة كما سبق أن أسماهم إرميا الذي صاح: «هو ذا الأنبياء يقولون لهم لا ترون سيفاً ولا يكون لكم جوع بل سلاماً ثابتاً أعطيكم في هذا الموضع» ولكن ماذا حدث الآن؟ ذلك

العلم نفسه الذي آمن به الأنبياء الكذبة على أنه القوة المخلصة قد دمّر تماماً العبادة الصنمية. إن أكبر انتصار للعلم هو القوة التي منحها للإنسان لأفناء نفسه وإفناء عالمه. وإن من أحدثوا هذا الانتصار هم الذين يتحدثون اليوم مثل الأنبياء الصديقين في الزمن الماضي فهم لا يتحدثون عن التقدم بل عن العودة إلى فوضى البداية؛ لا عن السلام بل عن التمزّق؛ لا عن السعادة بل عن الإخفاق. وبهذه الطريقة يكفّر العلم عن سوء الاستخدام الصنمي الذي كرّس له نفسه لعدة قرون. إن العلم الذي أغلق عيوننا ورمانا في هاوية الجهل عن الأشياء القليلة الجديرة حقاً بالاهتمام قد تكشّف وفتح أعيننا وأشار ـ على الأقل ـ إلى حقيقة أساسية واحدة ألا هي: إن «الجبال تزول والآكام تتزعزع» وإن الأض «سقطت ولا تعود تقوم» لأن أساسات الأرض سوف يصيبها الدمار.

ولكن ما زلنا نسمع أصواتاً تحاول أن تهدئنا وهي أصوات منذ أول صدمة وهي تتزايد، وهي تقول لنا: «ربما يستخدم الانسان القوة لزعزعة الأساسات من أجل الأغراض الابداعية، من أجل التقدم، من أجل السلام والسعادة. إن المستقبل قائم بين يدي الانسان، وهو قائم بين أيدينا: فإذا قررنا البناء بدل التدمير فلماذا لا نكون قادرين على مواصلة الابداع؟ لماذا لا نتشبّه بالله على الأقل في هذا المضمار؟» لقد كان على أيوب أن يصمت عندما تحدث الله إليه (هو) من البرية قائلاً: «أين كُنتَ حين أسس الأرض. أَخْبِرْ إن كان عندك فهْم». ولكن أصواتنا تتواصل: «ربما نستطيع (نحن) أن نجيب بينما لم يجب أيوب. ألم تُسْفر إكتشافاتنا العلمية عن أسرار الطرق التي بها تأسست الأرض؟ ألسنا قادرين في الفكر والمعرفة أن نكون حاضرين في تلك اللحظة؟ لماذا نخشى من الخوف من زعزعة الأساسات؟» لكن الانسان ليس هو الله؛ وعندما يزعم أنه مثل الله فإنه يلقى تعنيفاً ويحيط به الدمار الذاتي واليأس. وعندما يستقرّ مستريحاً على أبداعه الثقافي أو على تقدمه التقني، على مؤسساته السياسية أو على أنساقه الدينية فإنه يُلقى به في التحليل والفوضى؛ إن كل أساسات حياته الشخصية والطبيعية والثقافية تتزعزع. وطالما يوجد تاريخ إنساني فإن هذا يحدث؛ وفي عصرنا حدث هذا على نطاق عريض أكبر مما كان في الزمن القديم. إن زعم الانسان أن يكون مثل الله قد جرى نبذه

وطرحه جانباً مرة أخرى؛ وما من أساس من أساسات حياة حضارتنا قد ظل بلا زعزعة. وعندما نقرأ بعض الفقرات نقلاً عن الأنبياء نستطيع أن نتخيل بسهولة أننا نقرأ أنباء شهود عيان من وارسو أو هيروشيما أو برلين. يقول أشعياء: «إرفعوا إلى السموات عيونكم وانظروا إلى الأرض من تحت، فإن السموات كالدخان تضمحل والأرض كالثوب تبلى وسكانها كالبعوض يموتون... كالثوب يأكلهم العُثُّ وكالصوف يأكلهم السوس».

إن كل كلمة من هذه الكلمات تصف تجربة شعوب أوربا وآسيا. إن أكثر أسس الحياة بدائية وجوهريةً قد تزعزعت. إن الدمار وصل إلى حد أننا الذين لم نعشه لا نستطيع أن نتخيله من شدة هوله. إننا لم نعشه؛ ولا نستطيع أن نعتقد أننا يمكن أن يحيق بنا مثل هذا الدمار. ومع هذا إنني أرى الجنود الأمريكيين يسيرون خلال حطام هذه المدن وهم يفكرون في بلادهم ويرون بوضوح كلّه استبصار هلاك مدنهم وبلدانهم.

إنني أعرف أن هذا قد حدث ولا يزال يحدث. إن هناك جنوداً قد أصبحوا متنبئين ورسائلهم لا تختلف كثيراً عن رسالة الأنبياء العبرانيين القدماء. إنها رسالة زعزعة الأساسات، لا أساسات أعدائهم بل بالأحرى أساسات بلادهم. ذلك أن الروح التنبؤية لم تختف من الأرض. فقبل الحربين العالميتين بعشرات السنين حكم الناس على الحضارة الأوروبية وتنبؤوا بنهايتها بالقول والكتابة. ويوجد بيننا أناس مثل هؤلاء. إنهم أشبه بالآلات الحساسة التي تسجل زعزعة الأرض في أماكن زال كثير من سطحها. إن هؤلاء القوم يسجلون زعزعة حضارتهم وتيارات دمارها الذاتي وتحللها وسقوطها قبل أن تقع الكارثة النهائية. إن لديهم قرون استشعار خفية لا تخطئ في نفوسهم؛ ولديهم دافع لا يقاوم لاعلان ما سجلوه وربما كان هذا ضد إراداتهم. فما من نبي صادق قد تنبأ بإرادته، فقد فُرض عليه الأمر من جانب صوت إلهي لا يستطيع إزاءه أن يصمّ أذنيه. وما من مخلوق لديه روح تنبؤية يحب أن يتنبأ ويُعلن كارثة عصره. إن هذا يعرّضه لقلق مرعب داخل نفسه، ويعرضه لهجمات عنيفة بل ومميتة في الأغلب من الآخرين ويعرّضه للاتهام بأنه متشائم وانهزامي من جانب غالبية القوم. إن الناس يحبون أن يسمعوا أنباء طيبة والحشود تنصت لمن يحملونها. إن كل أنبياء العهدين القديم والجديد

والآخرين عبر تاريخ الكنيسة قد مروا بنفس التجربة فقد كذّبهم الأنبياء الكذبة الذين أعلنوا الخلاص حيث لا خلاص. لقد صرخ أرميا يائساً: «فأين أنبياؤكم الذين تنبأوا لكم»، لقد اعتبروه إنهزامياً واتهموه بأنه عدو لبلاده.

ولكن هل من علامة الوطنية أو الثقة في قوم من البشر ومؤسساتهم وطريقتهم في الحياة أن يكونوا صامتين عندما تتزعزع الأساسات؟ هل التعبير عن التفاؤل سواء كان مبرراً أم لا أكثر قيمة من التعبير عن الحقيقة حتى لو كانت الحقيقة عميقة ومظلمة؟ بطبيعة الحال إن معظم الناس ليسوا قادرين على مواجهة رسالة زعزعة الأساسات. إنهم يرفضون ويهاجمون العقول التنبؤية لا لأنهم يختلفون معهم حقاً، بل لأنهم يستشعرون حقيقة كلماتهم ولا يستطيعون أن يتلقوها. . إنهم يكتبونها داخل أنفسهم؛ وهم يحولونها إلى سخرية أو غضب ضد من يعرفون ويجرؤون على أن ينطقوا بما يعرفون. من أي فريق من الفريقين تعدون أنفسكم؟ من ضمن أولئك الذين يستجيبون للروح التنبؤية أم من ضمن أولئك الذين يصمون آذانهم وقلوبهم ضدها؟ إنني دائماً ما أشعر بأنه قد توجد قلة قادرة على تسجيل زعزعة الأساسات ـ إنها القلة القادرة على مواجهة هذا والقادرة فوق كل شيء على الجهر بما يعرفون لأنهم على درجة عالية من الشجاعة لمواجهة عداوة الكثيرين والتي ليس منها محيص. ولهذه القلة تتوجه كلماتي بصفة خاصة.

لماذا كان الأنبياء قادرين على مواجهة ما يعرفون ثم يجهرون به بكل تلك القوة المهيمنة؟ إن قوتهم تنبع من أنهم لا يتحدثون حقاً عن أسس الأرض على هذا النحو بل عنه، عن الله الذي وضع الأسس والذي يمكن أن يزعزعها؛ وأنهم لا يتحدثون عن كارثة الأمم على هذا النحو بل عنه، عن الله الذي يسبب الكارثة من أجل عدالته وخلاصه الأبديين. وكما جاء في المزمور 102: «أقول يا إلهي لا تقبضني في نصف أيامي. إلى دهر الدهور سُنُوك. من قِدَم أسّست الأرض والسمواتُ هي عمل يديك. هي تبيد وأنت تبقى وكلُّها كثوب تبلى كرداء تغيِّرهنَّ فتتغيّر. وأنت هو وسنوك لن تنتهي. . .» عندما تشيخ الأرض وتبلى وعندما تموت الأمم والثقافات فإن الخلود يغير ثياب وجوده اللامتناهي. إنه الأساس الذي تأسست عليه الأساسات؛ وهذا الأساس لا يهتز. هناك شيء غير متحرك وغير متغير وغير مهتز، شيء خالد يتجلى في

حياتنا العابرة وفي تفتّت عالمنا. وعلى تخوم المتناهي يصبح اللامتناهي مرئياً؛ وفي ضوء الخالد تظهر الزوالية لما هو وقتي. لقد سمى اليونانيون أنفسهم (الفانين) لأنهم مروا بتجربة ما هو خالد. ولهذا كان الأنبياء قادرين على مواجهة زعزعة الأساسات. هذه هي الطريقة الوحيدة للنظر إلى الزعزعة من غير النكوص عنها. أو هل من الممكن أن نكون واعين بالكارثة المقتربة ومع ذلك ننظر إليها بعدم اكتراث وبتجرد؟ هل من الممكن إنسانياً أن نواجه (النهاية) بتجرد وعدم اهتمام؟ من المؤكد أنه يوجد من بيننا من هم متجردون وغير مهتمين إزاء معظم ما يخلقه الناس ويثنون عليه. وهناك من بيننا من هم متجردون وغير مهتمين تجاه الموقف الراهن للعالم وزعماء العالم. (قد) نكون متجردين وغير مهتمين ـ بطبيعة الحال عن الدوافع الحقة وراء كل الفعل الإنساني؛ قد نكون متجردين وغير مهتمين تجاه أنفسنا ونموّنا الباطني وإنجازاتنا الخارجية. قد نكون متجردين وغير مهتمين بصدد الدين وبصدد كنائسنا وعقائدها ورموزها وممثليها. ولا يكاد يوجد شيء قد لا نكون إزاءه متجردين وغير عابئين. ولكن (لا يمكن) أن نكون متجردين وغير عابئين تجاه زعزعة أساسات كل شيء! ولم يحدث إطلاقاً أن التقيت بأي إنسان متجرد بشكل جدي تجاه ذلك. لقد رأيت كثيراً من التجرد وعدم الاهتمام وخاصة بين الشباب في أوربا قبل الحرب. ولكنني أعرف من شواهد عديدة أن هذا التجرد وعدم الاكتراث يتلاشيان عندما بدأت أساسات العالم تهتز في بداية الكارثة الأوربية. إننا يمكننا أن نكون متجردين وغير مكترثين تجاه النهاية طالما أنه لا يتوجب علينا أن نراها وطالما أننا نشعر بالأمان في الموضع الذي يمكننا فيه أن نمارس تجزدنا وعدم اكتراثنا. ولكن إذا كانت أساسات هذا الموضع وكل المواضع قد بدأت تتقلقل فإن التجرد وعدم الاكتراث يتقلقلان معها. ولا يبقى سوى خَيارين: اليأس الذي هو يقين الدمار الأبدي أو الايمان الذي هو يقين الخلاص الأبدي.

يقول الرب: «فإنّ الجبال تزول والآكام تتزعزع أما إحساني فلا يزول عنك وعهد سلامي لا يتزعزع» هذا هو الخيار الذي لدى الأنبياء. هذا هو الخيار الذي يجب أن نسميه (الدين) أو بدقة أكبر الأساس الديني لكل الأديان.

كيف أمكن للأنبياء أن يتحدثوا على النحو الذي تحدثوا به؟ كيف

استطاعوا أن يصوروا هذه الصور الأكثر مدعاة للرعب عن الكارثة والدمار بدون تجرد أو عدم اكتراث أو يأس؟ لأنه وراء مجال الدمار رأووا مجال الخلاص؛ لأنهم في كارثة ما هو وقتي وزائل رأووا تجلّي الأبدي. لأنهم كانوا على يقين من أنهم يمتّون إلى المجالين: المتغير واللامتغير. فإنَّ مَنْ هو أيضاً وراء المتغير ولا يكون مقيداً به وحده هو الوحيد القادر على مواجهة النهاية.

أما كل الآخرين فإنهم مضطرون إلى الهرب والفرار مبتعدين. ويا له من قدر كبير من حياتنا لا يقوم إلا في محاولات الابتعاد عن النهاية! وغالباً ما ننجح في نسيان النهاية. ولكننا نفشل فشلاً ذريعاً لأننا نحمل النهاية معنا في أجسامنا ونفوسنا. وكثيراً ما نجد أمماً وثقافات بكاملها تنجح في نسيان النهاية لكنها تفشل أيضاً فشلاً ذريعاً. كثيراً ما تنجح الأرض برمتها في جعل مخلوقاتها تنسى نهايتها ولكن أحياناً ما تشعر هذه المخلوقات بأن أرضها قد أخذت تشيخ وأن أساساتها بدأت تزعزع، لأن الأرض تحمل دائماً نهايتها داخلها. لقد حدث أننا نعيش في زمن فيه قلة قليلة منا، قلة قليلة من الأمم، قلة قليلة من قطاعات الأرض سوف تنجح في نسيان النهاية، ففي أيامنا هذه إن أساسات الأرض تتزعزع (بالفعل) فهل يمكن (ألاّ) نشيح بعيوننا: هل يمكن ألا نصمّ آذاننا ونطبق أفواهنا! ولكن هل يمكن لنا بالأحرى أن نرى من خلال تقلقل العالم صخر الأبدية والخلاص الذي ليس له نهاية!

(2)

نحن نعيش في نظامين

«عزّوا عزّوا شعبي يقول إلهكم. طيّبوا قلب أورشليم ونادوها بأنّ جهادها قد كَمُل، أنّ إثمها قد عُفى عنه، أنها قد قَبِلَتْ من يد الربِّ ضِعْفَيْنِ عن كل خطاياها.

«صوت صارخ في البرية أعدُّوا طريق الرب. قوّموا في القفر سبيلاً لإلهنا. كلُّ وَطَاءٍ يرتفع وكلُّ جبلٍ وأكمةٍ ينخفض ويصير المُعْوَجُّ مستقيماً والعراقيب سهلاً. فيُعْلَنُ مَجْدُ الربِّ ويراه كلُّ بَشَرٍ جميعاً لأن فم الربَ تكلَّم.

«صوْتُ قائلٍ نادِ. فقال بماذا أنادي. كلُّ جَسَدٍ عشْبٌ وكلُّ جمالِهِ كزهْرِ الحقْل. يَبِسَ العشْبُ ذَبُلَ الزهر لأن نفخَة الربِّ هبَّتْ عليه. حقّاً الشعْبُ عُشْب. يَبِسَ العُشْبُ ذَبُلَ الزهرْ وأمّا كلمة إلهنا فتثبُتُ إلى الأبد.

«على جبلٍ عالٍ إصعدي يا مُبَشِّرةَ صهيوْن. إرفعي صوْتَكِ يا مُبَشِّرَة أورشليم. إرفعي لا تخافي. قولي لمُدُن يهوذا هوذا إلهُكِ. هو ذا السيد الرب بقوة يأتي وذراعه تحكم له. هوذا أُجْرتُهُ معه وعُمْلَتُه قُدَّامه. كراعٍ يرعى قطيعه. بذراعه يجمع الحُمْلان وفي حضنه يحملها ويقود المُرْضِعَات.

«مَنْ كال بكفِّه المياه وقاس السموات بالشبْر وكال بالكيْل ترابَ الأرض ووزن الجبالَ بالقبّانِ والآكامَ بالميزان. من قاسَ روحَ الربِّ ومَنْ مشيرُهُ يُعَلِّمهُ. مَنِ استشارَهُ فأفْهَمَهُ وعلّمه في طريق الحق وعلّمه معرفة وعرّفه سبيل الفهْم. هوذا الأُمَمُ كنقطة من دلْوٍ وكغبار الميزان تُحْسَبُ. هوذا الجزائر يرفعها كدُقَّة. ولبنانُ ليس كافياً للإيقادِ وحيوانُه ليس كافياً لِمُحْرِقة. كل الأمم كلا شيءٍ قدَّامه. من العدمِ والباطلِ تُحْسَبُ عنده.

فَبِمَنْ تشبّهون الله وأيَّ شَبَهٍ تعادلون به. الصّنم يسبكه الصانعُ والصائغُ

يُغَشّيه بذهب ويصوغ سلاسل فضّة. الفقير عن التَّقْدِمَة ينتخب خَشَباً لا يُسَوِّس يطلب له صانعاً ماهراً لينصب صنماً لا يتزعزع.

«ألا تعلمون، ألا تسمعون، ألم تُخْبَرُوا منذ البداءَة. ألم تفهموا من أساسات الأرض. الجالسُ على كرةِ الأرض وسُكّانُها كالْجُنْدُب الذي ينشر السموات كسرادق ويبسطها كخَيْمةٍ للسكن الذي يجعل العظاء لا شيْئاً ويصير قضاة الأرض كالباطل. لم يُغْرسوا بل لم يُزرعوا ولم يتأصَّلْ في الأرض ساقُهُم. فنفخ عليهم فجفّوا والعاصف كالعصف يحملهم. فبِمَنْ تشبهونني فأساويه يقول القُدُّوس. ارفعوا إلى العلاء عيونَكُمْ وانظروا مَنْ خلق هذه. مَنِ الذي يُخرِجُ بعددٍ جُنْدَها يدعو كُلَّها بأسماء. لكثرة القوة وكونهِ شديد القدرة لا يُفْقد أحد.

«لماذا تقول يا يعقوب وتتكلم يا إسرائيل قد اختفت طريقي عن الرب وفات حقّي إلهي. أما عرفْتَ أم لم تسمع. إلهُ الدهر الربُّ خالقُ أطراف الأرض لا يَكلُّ ولا يَعْيَا. ليس عن فهمَه فَحْصٌ. يُعطى المعنى قُدرةً ولعدِيم القوّةِ يُكَثِّرُ شدّة. الغلمان يعيون ويتعبون والفتيان يتعثرون تعثراً. وأما مُنْتَظِرو الربِّ فيُجَدِّدون قوة. يرفعون أجنحة كالنسور. يركضون ولا يتعبون ويمشون ولا يعيون».

(أشعياء: الاصحاح 40)

هذه الكلمات المُرَوِّعة كتبها ذلك النبي المجهول في النفي البابلي والذي اتحدت كلماته مع كلمات النبي أشعياء والذي لهذا نسميه أشعياء الثاني. ودعونا نتخيل أن هذه الكلمات موجهة إلى المنفيين في عصرنا، موجهة لِمَنْ هم في السجون ومعسكرات الاعدام والمفصولات عن أزواجهن أو المفصولون عن زوجاتهم، عن أطفالهم أو آبائهم، موجهة لأولئك الذين يتمزّقون يأساً في البلاد الأجنبية، لأولئك الذين يحيون في جحيم الرفاهية الحديثة. كيف سيستجيبون لمثل هذه الكلمات وكيف كنا نحن سنستجيب إذا كانت قد توجَّهت لنا؟

ربما كنا سنتحدى ـ ساخرين أو غاضبين ـ إدّعاءها الظاهري؛ وكنا سنشير إلى الهوة الهائلة بين الموقف المثالي الذي أضفى عليه النبي طابعاً درامياً والواقع الحافل بالكارثة الذي نعيش فيه. ربما كنا طردناه باعتباره متفائلاً

مُزعجاً غير جدير بانتباهنا. ربما أصبحنا ممرورين ممتلئين كراهية له. كان ذلك سيكون استجابتنا الطبيعية تجاه من يرغب في تعْزيتنا ومواساتنا في موقف لا نرى فيه أي عزاء أو مواساة ولا نؤمن ونحن يائسين بوجود أي أمل ممكن.

غير أن موقف المنفيين في بابل وهم جلوس بجوار الأنهار وهم يبكون هو موقف على هذا النحو من اليأس. ربما توقع النبي هذا النوع من رد الفعل لأنه تحدث على نحو جعل المنفيين ينصتون إليه منذ 2500 عام. وهذه الكلمات يجب أن تكون ذات دلالة لنا نحن منفيّي زماننا. إنه لم يكن أقل واقعية بل كان بالأحرى أكثر واقعية عما نحن عليه. لقد عرف أن مثل هذا الموقف لم يكن بالصدفة أو الحظ التعس، بل انه موقف إنساني لا يستطيع منه أي إنسان أو عصر فكاكاً. إن الموقف الإنساني هو موقف مُتناهٍ ـ كل جسد عشب والعشب قد يبس. إنه موقف خطيئة، ونحن نتلقى الصاع صاعين على كل خطايانا. إنه أمر من أمور الباطل والزهو ـ لقد وصلنا إلى حد العدم وإلى حد السقوط كلية. ولكن بالرغم من معرفة النبي الواقعية بالطبيعة الانسانية والمصير الانساني فإنه يقدم العزاء والسلوى والأمل للأمة المنفية ومنفيّي كل الأمم وللانسان الذي باعتباره إنساناً قد تم نفيه في هذا العالم.

إن كلمات هذا الاصحاح العظيم أشبه بالأمواج المتلاطمة صعوداً أو سقوطاً في محيط هائج. إن الظلام والنور يعقبان بعضهما بعضاً، وبعد عمق الخطيئة والعقاب يعلن النبي الغفران والتحرر. غير أن الموجة تهوي ويسأل النبي نفسه كيف استطاع أن يدلي بمثل هذا القول، عندما تكون كل خيرية الفانين أشبه بزهرة الحقل والتي تذبل لأن أنفاس الله تهب عليها. لكنه لا يظل في أعماق كآبته: فإن كلمة الله ضد الفناء الانساني سوف تبقى وتصمد للأبد. إن هناك شيئاً خالداً يمكننا أن نتمسّك به. لا تخافوا فإن السيد الرب سوف يأتي بيد قوية. ومن ثم ترتفع الموجة ثم تهوي ثانية: إن الأمم أشبه بقطرة ماء وأشبه بهبوة من التراب، إن كل الأمم لا شيء إزاءه، فهي تُعد أقل من العدم. . . ومرة أخرى ترتفع الموجة. . إن الله فوق دائرة الأرض، فوق كل الأشياء المخلوقة، فوق الأعلى والأدنى!

وعندما تهوى الموجة الثانية ويتشكى خادم الرب أنه لم يتلق عدالة من الله فإن الجواب هو أن الله يتصرف فيما يتجاوز التوقع الإنساني. إنه يعطي

القوة للمستضعفين ولمن ليست له قوة. إنه يزيد القوة. إنه يتصرف على نحو فيه مفارقة؛ إنه يتصرف بما هو متجاوز للفهم الانساني.

فكيف يمكننا أن نفسر هذه الكلمات؟ هل هناك طريقة لتوحيد الذُرى والأعماق المتناقضة في هذا الإصحاح؟ هل سنفهم كلمات العزاء والأمل على أنها وعود جوفاء لم تتحقق إطلاقاً في الماضي ولن تتحقق إطلاقاً في المستقبل؟ هل سنفهمها على أنها مهرب من تحقق الموقف الحقيقي للإنسان من خلال التصوف والتجنيح الشعري؟ لو كان الأمر هكذا فماذا بشأن الواقعية السارية في تحليل النبي للموقف الإنساني؟ لقد رأى التاريخ كما هو في الواقع، لكنه في الوقت نفسه تتطلع إلى ما وراء التاريخ إلى القوة والمعنى والعظمة القصوى للوجود. إنه يعرف نظامين للوجود. . النظام الإنساني السياسي التاريخي والنظام الإلهي الخالد. ولأنه يعرف هذين النظامين استطاع أن يتحدث على النحو الذي تحدّث به وهو يتحرّك دوْماً بين عمق العدم الانساني والذروة القصوى للابداع الالهي.

دعونا ننظر في هذين الأمرين، ننظر في هاتين الطبيعتين المختلفتين والعلاقة التي بينهما. ونحن نتكلم عنهما إنما نتكلم عن أنفسنا لأننا نمتّ إلى كليهما في كل لحظة من حياتنا وتاريخنا.

إن النظام الإنساني، نظام التاريخ هو أساساً نظام النمو والموت. «تأكدوا أن الناس عشب». إن تجربة السوداوية أو الكآبة التي يعيشها الإنسان التي تبعثها الطبيعة الآفلة والفانية هو رمز على أن الإنسان عابر. أجيال بعد أجيال يشب الانسان ويناضل ويقاسي ويتمتع ويختفي. فهل نأخذ كل هذا مأخذ الجد؟ هل نأخذه مأخذ الجد على نحو أكبر عن مجرّد نمو العشب وفنائه؟ إن النبي عندما سئل أن يتحدّث إلى أمته طرح السؤال: لماذا أتحدث إليهم؟ إنهم عشب. ونستطيع أن نواصل لماذا نكتب ونعمل ونناضل من أجلهم؟ إنهم عشب. فماذا يهم إذا كان بعد سنوات قليلة سوف يفنى كل أولئك الذين كتبنا لهم وتحدثنا اليهم وناضلنا من أجلهم؟ إنهم عشب والعشب يذوي والأزهار تذبل. هذا هو نظام التاريخ. و(لكن) يظهر النظام الآخر في الأفق: إن كلمة الله سوف تبقى للأبد.

ثانياً، إن نظام التاريخ هو نظام الخطيئة والعقاب. إن النفي بعد دمار

القدس كان كما قال كل الأنبياء هو عقاب الناس على خطاياهم. إننا لا نحب الكلمات التي من نوع (الخطيئة) و(العقاب)، فهي تبدو لنا عتيقة من طراز قديم وهمجية وغير صادقة في ضوء علم النفس الحديث. ولكن أينما التقيت بمنفيين من ذوي النفوس الخلقية العالية والبصيرة النفاذة فإنني أكتشف أنهم يشعرون بأنهم مسؤولون عما حدث في بلادهم. وكثيراً ما التقيت بمواطنين من بلدان ديمقراطية، مواطنين من هذا البلد أمريكا اعربوا عن شعور بالاثم تجاه الوضع الذي يعيشه العالم اليوم. إنهم على جق، والمنفيون على حق: إنهم مسؤولون شأنكم وشأني. وسواء سمينا هذا خطيئة أم لا، وسواء سمينا هذا عقاباً أم لا، فإننا نلقى عقاباً من جراء أشكال فشلنا. هذا هو نظام التاريخ. ولكن في الأفق يلوح النظام الآخر والذي يقول لنا إن نضالاتنا لم تكن عبثاً وإن ذنبنا سوف ينال الغفران.

وهناك عنصر ثالث في نظام التاريخ يوجد ما بين التناهي والخطيئة: القانون المأساوي الذي يتحكم في العملية التاريخية، القانون الذي ينص على أن العظمة الإنسانية سوف تسقط كلّية. إن هناك أمماً وامبراطوريات عظيمة وغازية. بل إن هناك حتى بالأحرى أمماً وامبراطوريات تظهر تقوى محددة. وهناك أمراء بل وحتى أمراء طيبون؛ وهناك قضاة بل وحتى قضاة عادلون. وهناك دول ودساتير بل يوجد حتى دول ودساتير تقدم قدراً كبيراً من الحرية؛ وهناك أنظمة اجتماعية بل وهناك حتى أنظمة تقدم قدراً معيناً من المساواة. إن هناك أرواحاً مبدعة بل هناك حتى بعضها لديها مقدرة على المعرفة والفهم. ولكن لمجرد أنها عظيمة وقوية وعلى حق فإنها تمسّ المجال الالهي وتصبح متغطرسة وتنتهي إلى العدم. إنها بلا جذور، إنها تذوى؛ إن العاصفة الالهية تهب عليها وهي تتبدّد. وهذا هو موضوع التراجيديا اليونانية. وهذه هي رسالة النبي لأمم العالم. إنها جميعاً خاضعة لقانون الدمار الذاتي ـ الطالح والصالح منها، الأفراد والأمم، الضعيف والبطولي. ومرة أخرى فإن النظام القائم وراء التاريخ والتراجيديا يلوح في الأفق: إن الله يمنح القوة للمستضعفين فتتجدّد قوتهم حتى أنهم سوف يصعدون بأجنحة وكأنّهم نسور.

والنظام الذي وراء نظام التاريخ هو النظام الإلهي. والأمر مليء بالمفارقة: إن الناس أشبَهُ بالعشب لكن كلمة الله الموجهة إليهم سوف تبقى

للأبد. . إن الناس يعيشون في ظل قانون الخطيئة والعقاب لكن النظام الالهي ينفذ من خلاله ويحمل الغفران. . . إن الناس يضعفون، يسقطون من ذروة خيريتهم الأخلاقية وقوتهم الشبابية وبمجرد أن يسقطوا ويضعفوا يجرون دونما قلق ويصعدون بأجنحة وهم أشبه بالنسور. إن الله يتصرف فيما يتجاوز كل الافتراضات والتقييمات الانسانية. إنه يتصرف على نحو يدعو للدهشة وعلى نحو غير متوقع وبشكل كُلُه مفارقة. إن الطابع السلبي للنظام التاريخي هو الطابع الإيجابي للنظام الالهي. فالمستضَعفون واليائسون، والخطاة والمأساويون في النظام التاريخي هم الأقوياء والمنتصرون في النظام الالهي.

وبعد عدد قليل من الاصحاحات التالية يتحدث النبي عن المصير الذي كله مفارقة لخادم الرب والأمة المختارة. فالإنسان وهو موصوف بأنه إنسان الأسى والأسف المشرب بالحزن يجري احتقاره ونبذه في النظام الإنساني. فمن ذلك الذي لا يفكر ـ وقد استمع إلى هذه الكلمات ـ في المنفيين من كل أمم العالم؟ غير أن النظام الالهي يلوح. فالأمة المنفية (كما فسّرها المسيحيون فيما بعد على نحو خاطئ تاريخياً وعلى نحو حق روحياً) أو الانسان الذي على الصليب إنما يمثل نظاماً آخر، نظاماً فيه يكون الأضعف هو الأقوى، وأكثر المُذَلِّين هو الأكثر انتصاراً، فإن النظام الإنساني التاريخي يقهره خادم الرب الذي يكابد، المخلّص المصلوب.

فلو شككنا في هذه المفارقة، ولو يئسنا من وضعنا الإنساني، ولو كان تعيناً بلا أمل أو معنى لنا فإن النبي كان سَيَمْلأُنا خجلاً إزاء عجرفة نزعتنا العقلانية وضيق أفق نزعتنا الأخلاقية. إنه يشير إلى خلق العالم والبشرية والتاريخ. . إنه يتساءل: «من ذا الذي وجه روح الله؟ مع من يقدم العزاء ومن ذا الذي أرشده وعلّمه درب العدالة؟». إننا دائماً نحب أن نعلم الله درب العدالة، إننا نقول له إن عليه أن يجازي الشرير ويكافئ الخيّر خاصة بالنسبة لنا. لكنه لا يتلقى أية مشورة فيما يتعلق بمجرى التاريخ بمثل ما أنه لا يتلقى أية مشورة فيما يتعلق ببناء العالم بكل ما فيه من دمار طبيعي وقسوة وطابع زائل. إن النظام الالهي لا يمكن الحكم عليه وفق معايير النظام التاريخي، وفق معايير العزاء والأخلاقيات الانسانية، وفق معايير الديمقراطية والحضارة. هذا هو الجواب الذي تلقاه أيوب من الله عندما تجادل معه بشأن الجور غير

المعقول الذي تعرض له مصيره التاريخي الخاص به (هو). إن الله لا يبرر نفسه بمقولات أخلاقية، إنه يشبر منتصراً إلى العظمة التي لا يمكن استيعابها عظمة الطبيعة التي لا يمكن قياسها بالتالي بمعيار الصوابية الإنسانية.

ولكن لو كان النظام الالهي والنظام التاريخي لا شأن لكل منهما بالآخر فكيف يمكن للنظام الالهي أن يهمنا على الاطلاق؟ كيف يمكن للخلود والغفران والمدد الالهي أن يهمنا لو كنا في النظام الآخر، النظام التاريخي، ونحن واقعون تحت طائلة قانون التناهي والضعف والعقاب؟ كيف يمكن للنظام الالهي أن يعزّينا ونحن في بؤسنا؟ كيف يمكن لنا أن ننصت لكلمات الأنبياء الذين يتحدثون عن نهاية رفاهيتنا؟ هناك ثلاثة إجابات عن هذا السؤال: أولاً، إن النظام الالهي ليس هو النظام التاريخي، ولا يجب أن نخلط هذين النظامين. وما من حياة تستطيع أن تقهر التناهي والخطيئة والمأساة. إن أوهام عصرنا هو أن حضارتنا الحديثة (تستطيع) أن تقهرها وأننا نستطيع أن نحقق الأمان في وجودنا. ويلوح التقدم وكأنه قد قهر المأساة؛ ويلوح النظام الالهي وقد تجسد في النظام التقدمي التاريخي. ولكن لما يقارب من ثلاثة عقود فإن جيلنا قد تلقى اللطمة إثر اللطمة وقد أطاحت بهذا الوهم ودفع لليأس وعدم الاكتراث أولئك الذين أرادوا التغيير وظنوا أنهم يستطيعون أن يغيروا، أن يغيروا النظام التاريخي إلى نظام إلهي. ودعونا نتعلم من كارثة عصرنا ـ على الأقل ـ أنه (ما) من حياة و(ما) من عصر قادر على قهر التناهي والخطيئة والمأساة.

والجواب الثاني هو أنّه يوجد نظام آخر نمت اليه نحن باعتبارنا بشراً، وهو نظام يجعل الانسان (دائماً) غير راض بما أُعْطِيَ له. إن الإنسان يتجاوز كل شيء في النظام التاريخي، يتجاوز كل ذرى وأعماق وجوده.. إنه يتخطى بمثل ما لم يستطع أي كائن آخر أن يتخطى حدود عالمه المُعْطى. إنه يشارك في شيء لا متناه، في نظام ليس عابراً، ليس مدمرا لذاته، ليس مأساوياً بل في نظام خالد ومقدس ومبارك. ولهذا عندما ينصت الإنسان للكلمة النبوئية، عندما يسمع عن الله الخالد وعظمة قوته وسر أعماله تنبعث إستجابته في عمق نفسه؛ يجري مس اللامتناهي فيه. إن كل إنسان يعرف في بعض عمق نفسه أن ذلك حقيقي.. إنّ يأسنا، عجزنا عن الافلات من أنفسنا في الحياة وفي الموت شاهد على لا تناهينا.

والجواب الثالث هو أن النظامين: التاريخ والأبدي رغم أنهما لا يمكن على الاطلاق أن يتطابقا هما في داخل بعضهما. إن النظام التاريخي غير منفصل عن النظام الخالد. إن ما هو جديد في الأنبياء والمسيحية وراء كل وثنية قديمةً وجديدة هو أن النظام الخالد يكشف نفسه في النظام التاريخي. إن خادم الله الذي يكابد والأعداء الذين بسببهم يكابد، الإنسان الذي على الصليب والذين ضعفوا تحت الصليب، المنفيين والمضطهدين في كل عصور التاريخ لهم جميعاً تاريخ متحوِّل. إن القوة في التاريخ تسقط؛ إن قوة كل منا تؤخذ منا، ولكن أولئك الذين يبدون ضعفاء في التاريخ يشكلون في النهاية التاريخ لأنّهم مرتبطون بالنظام الخالد. إننا لسنا جيلاً ضائعاً لأننا جيل محطم يكابد. إن كلامنا يمتّ إلى النظام الأبدي والنبي يتحدث إلينا جميعاً. . «عزّوا عزّوا شعبي»!

(3)

مفارقة الطوبيات

«ورفع عينيه إلى تلاميذه وقال طوباكم أيها المساكين لأن لكم ملكوت الله. طوباكم أيها الجياع الآن لأنكم تشبعون. طوباكم أيها الباكون الآن لأنكم ستضحكون. طوباكم إذا أبْغَضوكُمُ الناسُ وإذا أفرزوكم وعيَّروكم وأخرجوا اسمكم كشرّير من أجل ابن الانسان. افرحوا في ذلك اليوم وتهللوا فهوذا أجركم عظيم في السماء لأن آباءهم هكذا كانوا يفعلون بالأنبياء. ولكن ويل لكم أيها الأغنياء. لأنكم قد نِلْتُمْ عزاءكم. ويل لكم أيها الشَّبَاعَى لأنَّكم ستجوعون. ويل لكم أيها الضاحكون الآن لأنكم ستحزنون وتبكون. ويْلٌ لكم إذا قال فيكم جميعُ الناس حسناً. لأنه هكذا كان آباؤهم يفعلون بالأنبياء الكَذَبَة».

(لوقا 6: 20 ـ 26)

إن قراء العهد القديم ودارسيه غالباً ما يجدون أنه ليس الجدال المهذب عند بولس أو الحكمة الصوفية عند يوحنا بل أقوال يسوع البسيطة كما سجلها أصحاب الأناجيل الثلاثة الأوَل وهي أقوال تُعَدُّ أصعبها في التفسير. إن كلمات يسوع تبدو جلية ومباشرة وسديدة حتى أنه يصعب أن نتصور إنساناً يفتقد معناها. ولكن عندما يُطْلب منا التعبير عن المعنى بكلماتنا فإننا نكتشف مستوى واحداً من المعنى بعد مستوى آخر. وندرك أن كلمات يسوع التي قد عرفناها منذ نعومة طفولتنا مما لا نستطيع أن نحيط به. وإذا حاولنا أن ننفذ فيها فإننا ننفذ من عمق إلى آخر؛ ولا نتمكن على الاطلاق من الإحاطة بها. ولا نجد أبسط، وإن كان أكثر مدعاة للحيرة من صلاة الرب والأمثال وطوبى لكم على سبيل المثال.

لقد سمعنا الطوبيات الأربعة والويلات الأربعة كما أوردها لوقا. ومعناها

مما لا يمكن أن نخطئ فيه. فالفقراء الذين هم جوعى (الآن) والذين يبكون (الآن) الذين قد جرى عزلهم وإهانتهم يجري الثناء عليهم وتحيتهم لأنهم - إن جاز لنا القول - يمكن أن يتوقعوا عكس وضعهم الراهن تماماً. والأغنياء الذين هم ممتلئون والذين يضحكون والذين يلقون شعبية واحتراماً يجري الرثاء لهم لأنهم يجب أن يتوقعوا بالضبط ذلك الذي هو بالعكس.

هناك سؤالان يُثاران (ما) هو الشيء الموعود به و(لمنْ) هذا الوعد؟ ما هي المملكة التي سوف يملكها الفقراء ومن هم الفقراء الذين سيملكونها؟ ومن هم الأغنياء الذين سوف تحيق بهم الويلاث (وماذا) سوف يحدث لهم؟

لقد حاول متّى أن يجيب على هذه الأسئلة. لقد قال إن الفقراء هم الفقراء في الروح وأن من يجوعون، يجوعون بعد فعل ما هو صواب. وقال إن من يبكون إنما ينوحون على حالة العالم. ولهم يتم الوعد بمملكة السماء ورؤية الروح الالهي وراحة مملكة الرب ورحمتها.

فهل تفسير متى على حق؟ أو هل أمكن لمتى والكنائس المسيحية الرسمية التي إقتفت خطاه أن تضفي طابعاً روحياً على الطوبيات؟ أم من جهة أخرى هل شوَّه لوقا والكثرة من الحركات الدنيوية والثورية التي تبعته الطوبيات من وجهة نظر مادية؟ لقد طُرح كلا التوكيدين وكلاهما خطأ. ولو أردنا إجابة صحيحة فإن علينا أن ننظر إلى الذين تكلم اليهم يسوع. لقد خاطب نوعين من الناس: النوع الأول يعيشون بقلوبهم المتجهة إلى المرحلة (القادمة) للعالم، وهم فقراء في التكيف مع الأشياء كما هي. إنهم يعانون تحت وطأة ظروف حياتهم. إن الكثيرين محرومون غير آمنين وجائعون ومُضْطَهدُون. ولا توجد أية تفرقة في الطوبيات بين الحاجة الروحية والحاجة المادية ولا يوجد أي تمييز بين التحقق الروحي والتحقق المادي. إنَّ مَنْ يتحدث إليهم يسوع هم في حاجة إلى النوعين. فلا الأنبياء ولا يسوع أضفوا الطابع الروحي على رسالة المملكة. كما أنهم لم يفهموها ويفسروها فيقولون إن المملكة سوف تأتي نتيجة مجرد الثورة المادية. إن المسيحية تُعلنِ وحدة الجسم والنفس. إن الطوبيات تثنى على مَنْ يكتملون من وجودهم الكلي. ولكن النوع الآخر من الناس الذين يتكلم إليهم يسوع هم أولئك الذين وعدهم بالويلات. إنهم بلا صدْعٍ في علاقتهم بالمرحلة الراهنة للعالم. إنهم يعيشون بقلوبهم في الأشياء

كما هي. إنهم تأسسوا على نحو تام في حياتهم؛ إنهم يتمتّعون بالمكانة والقوة والأمان. ولقد هددهم يسوع تهديداً روحياً (و) مادياً. إنهم مقيدون (بهذا) الدهر، وهم سوف يتلاشون مع (هذا) الدهر. وليست لديهم ثروات وراء هذا.

ووضع الناس في الجليل الذين تحدث إليهم يسوع لا يزال هو وضعنا. . إننا جميعاً موعودون اليوم بالويلات، موعودون بهذا نحن الممتازين والمحترمين والآمنين ولا يرجع الأمر ببساطة إلى أننا (نحوز) مثل هذا الأمان والاحترام، بل لأنّه يربطنا على نحو حتمي بقوة لا تُقَاوَم بهذا الدهر، بالأشياء كما هي. والطوبيات موعودة اليوم لنا جميعاً الذين بلا أمن أو شعبية نحن الذين ننوح جسداً ونفْساً. وهي موعودة ولا يرجع الأمر ببساطة لأنه ينقصنا الكثير بل لأن واقعة النقص والتجسُّد التي لدينا هي نفسها التي قد تحول قلوبنا بعيداً عن الأشياء كما هي نحو الدهر القادم. إن الطوبيات لا تُمَجِّد أولئك الفقراء والبؤساء، أفراداً أو طبقات، (لأنهم) فقراء. والويلات ليس موعوداً بها أولئك الأغنياء والآمنون طبقاتٍ أو أفراداً (لأنهم) أغنياء. لو كان الأمر هكذا لما أمكن ليسوع أن يعد الفقراء بتبديل وضعهم. إنه يمدح الفقراء لأنهم يعيشون في عالمين (اثنين) العالم الراهن والعالم القادم. وهو يهدد الأغنياء طالما أنهم يعيشون في عالم واحد وحده.

وهذا يحمل توتراً هائلاً في حياتنا. إننا نعيش في نظامين واحد منهما عكس الآخر. إن النظام (القادم) قادم دائماً وهو يهز (هذا) النظام ويتقاتل معه ويقهره وينال قهره على يديه. إن النظام القادم في متناول اليد. ولكن لا يمكن للانسان على الاطلاق أن يقول: «إنه هنا! إنه هناك!» إن الإنسان لا يستطيع على الاطلاق أن يستحوذ عليه. ولكن يمكنه هو أن يستحوذ على الانسان. وعندما يتم الاستحواذ عليه يكون غنياً حتى لو كان فقيراً في هذا النظام. إن ثروته هي مشاركته في النظام القادم، في معاركه، في انتصاراته وهزائمه. إنه مبارك، إنه قد يبتهج بل ويتقافز حتى لو كان معزولاً ومهاناً لأنْ عزلته تمت إلى هذا النظام بينما يمت إلى النظام الآخر! إنه مبارك بينما الذين يلفظون اسمه إنما يستحقون الرثاء. وهم بخوفهم وبأسهم وكراهيتهم له إنما يبرهنون على أن الويلات التي وجهها يسوع لهم قد أصبحت حقيقية من ذي قبل. إنهم يفقدون

النظام الواحد والوحيد الذي يحرزونه؛ إنهم يتحللون جسماً وروحاً. وربما نكون على حق عندما نعد كارثة عالمنا الراهن تحققاً للويلات التي وجهها يسوع ضد نظام اجتماعي غني مليء بالوفرة، نظام يضحك، يصفق لنفسه. ولكن إذا آمنا بهذا فإننا نستطيع أيضاً أن نؤمن بأن أولئك الذين أصبحوا فقراء وجوعى وآسفين ومُعَذَّبين في هذه الكارثة هم الذين فيهم يتجلّى النظام الآخر. ربما يخونونه، ولكنهم مدعوون إليه أولاً. ومن خلال مفارقة الطوبيات وحدها يمكننا أن نفهم حياتنا وحياة عالمنا.

(4)

خادِمَا يَهْوَهْ

«قدّموا دعواكم يقول الرب. أحضروا حججكم يقول مَلِكُ يعقوب. ليقدموها ويخبرونا بما سَيَعْرِض. ما هي الأوليات. أخبروا فنجعل عليها قلوبنا ونعرفَ آخرتها أو أعلمونا المستقبلات. أخبروا بالآتيات فيما بعْدُ فنعرف أنكم آلهةٌ وافعلوا خيراً أو شراً فنلتفت وننظر معاً. هأنتم من لا شيء وعملُكُمْ من العدم. رجس هو الذي يختاركم. قد أنهضته من الشمال فأتى. من مشرق الشمس يدعو باسمي. يأتي على الولاة كما على المِلاَطِ وكخزّافٍ يدوس الطين. مَنْ أخْبَرَ من البدْءِ حتى نعرفَ ومِنْ قبل حتى نقول هو صادق. لا مُخْبِرٌ ولا مُسْمِعٌ ولا سامِعٌ أقوالكم. . . ونظرت فليس إنسان ومن هؤلاء فليس مشير حتى أسألهم فيردون كلمة. ها كلُّهُمْ باطل وأعمالهم عَدَمٌ ومسبوقاتهم ريح وخلاء».

(أشعياء 41: 21 ـ 26، 28 ـ 29)

تصف كلمات النبي منظراً دراميا، فإن يهوه باعتباره قاضياً ومنحازاً في الوقت نفسه يدعو آلهة الأمم إلى مناظرة سماوية تشهدها شعوب العالم. وعليهم أن يبحثوا من هو الإله الذي يبرهن على أنه الإله الحق. إن الإله الحق يجب أن يكون ذلك الذي هو سيد التاريخ. والقرار النهائي هو أن يهوه هو إله التاريخ ولهذا فهو الله الذي هو الله حقاً. إن يهوه هو إله التاريخ لأنه أظهر من خلال أنبيائه أنه يفهم معنى التاريخ وأنه يعلم الماضي والمستقبل، البداية والنهاية، يعلم كل شيء. وهو وهو يُظهر ذلك إنما يبرهن على أنه (يصنع) التاريخ وأنه هو الذي رفع سيروس(*) مُدَمِّر قوة الأمة اليهودية ومُحَرِّر بقاياها

(*) هوسيروس الاكبر الذي توفي عام 529 ق.م. ملك الفرس مؤسس الأمة الفارسية وهو الذي أتاح لليهود أن يحكموا في فلسطين فنشأت لهم دولة بين الفرس ومصر. وكان يحترم ديانات وعادات كل جزء في امبراطوريته (المترجم).

في الوقت نفسه. إنّ آلهة الأمم لا تستطيع أن ترد لأنها لا تعرف ذلك الحدث؛ إنها لم تتنبأ به، وهي لم تشكله. وتنتهي المناظرة بإعلان أن هذه الآلهة كلها عبث وأن جميع أعمالها لا شيء وأن صورها مجرد ريح ووهم. إن يهوه وحده هو الرب لأنه رب التاريخ.

ونادراً ما يحدث في التاريخ أن الناس يضطربون بشأن التاريخ كما نضطرب نحن اليوم. إننا نرغب رغبة حارة في أن نلتقط ولو لمحة من المستقبل على الأقل، نلتقط لمحة من الحكمة والتنبؤ. لم يكن الأمر مجرد بضعة آلاف قليلة من المنفيين اليهود الذين يتحدث إليهم النبي بجوار أنهار بابل بل عشرة ملايين من جميع أنحاء العالم هم الذين يحاولون محاولة جادة أن ينفذوا من حلكة مستقبلهم. ومعهم يوجد عدد هائل من الآخرين الذين يحنّون إلى كلمة ملهمة قوية تتعلق بمستقبل البشرية.

ولكن أولئك الذين لديهم قوة تشكيل المستقبل على نحو أساسي يناقض بعضهم بعضاً؛ فالزعماء السياسيون يعلنون بكل هدوء أنه يكاد يكون من المستحيل أن يحملوا العبء الملقى على كواهلهم في هذا الزمن. والمسؤولون في الوطن وفي الجيش لا يستطيعون أن يصفوا إلا بمصطلحات سلبية موضوع موت شعبهم وتضحيته. وأولئك الذين عليهم أن يتحدثوا للشعب عن العدو سرعان ما يدركون أنهم لا يستطيعون أن يقولوا شيئاً عن الوعد الحقيقي على الساحة السياسية. أما أنبياء الكارثة ـ دون ـ أمل فهم وحدهم الذين يقدمون بيّنة على اليقين الكامل؛ لكنهم ليسوا أنبياء الله.

لا يجب أن نتوقّع أن تنزاح غُمة تاريخنا في التو سواء بالمؤتمرات الجديدة أو بالاستراتيجية السياسية البارعة. إن غمتنا الحالكة وتزعزعنا وعجزنا تجاه المستقبل لها أعماق أكثر عمقاً ممّا يلوح. ونحن لا نتلقى جواباً بشأن المستقبل لأننا نسأل أسئلة عن أولئك الذين لا يستطيعون أن يعرفوا المستقبل، الآلهة الذين هم أشبه بالعنف الذي لا طائل منه، آلهة الأمم الذين هم ولا شيء بجانب إله التاريخ. إن كل إنسان يحاول أن ينتزع معجزة من إله أمته (هو) من خلال أفواه الكهنة والأقوياء والحكماء. وكل إنسان ينجح. إن كل الناس في جميع أنحاء العالم يفيضون بالمعجزات من آلهة أممهم وآلهة الأمم الأخرى. وكل الناس يقارنون معجزاتهم بمعجزات الآخرين ويحاولون أن

يحددوا أكثر المعجزات مصداقية. غير أن الغمة الحالكة بكل بساطة تزداد. بل حتى الأمة العظيمة هي لاشيء إزاء إله التاريخ، فما من أمة أو تحالف من الأمم تستطيع أن تقول إنها (هي) معنى التاريخ وهدف التاريخ، وأنها (هي) الأمة أو تحالف الأمم التي تمسك بمعرفة الماضي والقوة لتشكيل المستقبل. إن المجمع الكلّي للآلة القومية يجب أن يسقط في النهاية تحت حكم يهوه الذي حكم عليه بأنه عدم، حكم عليه على أنه شيء عاجز عن الإتيان بأي شيء. إننا نتلقى عديداً من المعجزات ولكننا لا نتلقى نبوءات، والسبب الوحيد يرجع إلى أننا نرفض أن نستدير إلى نبع النبوءة ألا وهو إله التاريخ.

لقد كشف يهوه نفسه من خلال ألم إسرائيل على أنه الله الأول والآخر، البداية والنهاية للتاريخ. والإنهيار القومي الشامل هو وحده الذي جعل بقايا إسرائيل مستعدة لتلقي هذا الكشف في دلالته الكلية. ولكنه عندما استخدمت الأمة اليهودية ذلك الكشف كتعلة تتذرع بها للزهو القومي وحولت يهوه إلى مجرد إله قومي حدث إنهيار آخر، ذلك أن يهوه كإله قومي مدان دائماً من قِبَل إله التاريخ. وإن سر اليهودية اليوم يكمن في تلك الواقعة.

إن نبينا يصف شخصيتين كبيرتين.. سيروس مؤسس الامبراطورية الفارسية، الشخص العالمي في عصره والذي أسماه النبي الراعي والمجلود، رجل مشير الرب؛ وخادم يهوه الذي يمثل القوة المخلصة من المعاناة والموت البريئين.. إن المؤسس الماجد للامبراطورية يجب أن يكون خادم يهوه، لقد كان عليه أن يخلّص بقايا إسرائيل التي منها ينبعث الخادم الذي يكابد.

إنني أشعر بأن الحل الوحيد للمشكلة التاريخية اليوم يكمن في ذلك التصور النبوئي، لأن هناك قوتين في عالمنا المسحوق. الأولى هي قوة أولئك الذين يشبهون خادم الرب الذي يكابد، وهم موجودون خفية في كل الأقطار. ونحن لا نعرف أين يعيش هؤلاء الخدم أو ما الذي سيعملونه في المستقبل. ولكننا نعرف أنهم موجودون وأن مكابدتهم ليست عبثاً. إنّهم الأدوات الخفية لإله التاريخ. إنهم الشيوخ والأطفال، الفتيان والفتيات، المُضطَهدُون والمسجونون، وكل أولئك الذين تجري التضحية بهم من أجل المستقبل، من أجل حجر صغير في بناء مملكة الرب، حجر الزاوية الذي منه يقوم الخادم الكامل للرب. والقوة الثانية في العالم هي قوة أولئك الذين يشبهون سيروس

يحكمون الامبراطوريات ويجسدون كل عار الامبراطوريات وعظمتها. إنهم رجال مشير الرب لأنهم يعملون من خلال أغراضه في خدمة خدم يهوه الذين يكابدون. لكنهم لا يدركون أنهم أدوات بمثل ما كان سيروس لا يدرك أنه رجل مشير الرب. إنهم لا يعرفون ما الذي ستتمخّض عنه أعمالهم. وإذا نظرنا إليهم في محاولاتنا أن نلتقط المستقبل فلن نعرفهم بالمثل؛ إذا نظرنا إليهم سوف نظل دائماً في الظلام. ولكن لو استدرنا للخدم الحقيقيين وإلى الرب الحقيقي الذي يخدمونه، رب التاريخ فسوف نعرف المستقبل. ونستطيع أن نجد حلٍ لغز التاريخ ككل وتاريخنا بصفة خاصة في شخص سيروس في خدمة خادم يهوه.

(5)

تأمّلوا في سر الزمن

دعونا نتأمل في سر الزمن. لقد أشار القديس أوغسطين إلى عمق هذا السر عندما قال: «إذا لم يسألني أحد عنه فإنني (أعرف). وإذا أردت أن أشرحه لأي مخلوق يسألني عنه فإنني لا أعرف». هناك شيء لا يمكن أن ننطقه عن الزمن، غير أن هذا لم يحل بين العقول الدينية من التفكير فيه والتحدث عنه. ولم يكن تأملاً عبثياً عندما قابل كاتب الجزء الأول من المزمور 90 بين خلود الله وبين الوجود الانساني المؤقت. لقد دفعته التجربة السوداوية للتناهي الإنساني إلى أن ينطق بالكلمات الهائلة الواردة في المزمور. ولم يكن الأمر أمر فضول أجوف عندما حاول أوغسطين في كتابه (اعترافات) الذي يعد أعظم كتبه الحافلة بطابعه الشخصي أن ينفذ إلى أساس زمانيتنا. ونحن لا نَطرح عبارة مجردة بل بالأحرى تعبيراً عن شعور ديني عميق عندما تعني: «إن الزمن أشبه بتيار متدفق دوْماً يجرف كل أبنائه». ليس هذا مجرد فلسفة بل هو شعور مأساوي بالحياة وهو شعور دفع الفلاسفة اليونانيين الأول إلى أن يقولوا إنّ على الأشياء جميعاً أن تعود إلى أصلها وهي تكابد من العقاب «وفق نظام الزمن». ولم يكن الأمر مجرد اهتمام بالنظرية النسقية هو الذي دفع الإنجيل الرابع إلى أن يستخدم مراراً عبارة «الحياة الخالدة» كتعبير عن الخير الأقصى الحاضر أبداً في السيد المسيح. ولقد كان حدثاً دينياً هو الذي جرى عندما أشار ميستر ايكهارت إلى (الآن الأبدي)(*) داخل تدفق الزمن وكذلك عندما أشار سورن كيركجور إلى الدلالة اللامتناهية لكل لحظة على أنها (آن) الحسْم.

(*) لحظة الصلاة مثلاً هي آن مستقطع من الزمن لكنها تطل على الأبد ولهذا فهي آن أبدي (المترجم).

إن الزمن مما لا يمكن استنفاده شأنه في هذا شأن أساس الحياة نفسها. وحتى أكبر العقول لم تكتشف سوى جانب منه. ولكن كل خلوق حتى صاحب أكثر العقول بساطة يستوعب معنى الزمن ـ ألا وهو الطابع الوقتي لزمانيته. ربما لا يستطيع أن يعبر عن معرفته بالزمن لكنه ليس مفصولاً على الإطلاق عن سرّه. إن حياته وحياة كُلٌ منا ينفذ منها في كل لحظة وفي كل تجربة وفي كل تعبير سرُّ الزمن. إن الزمن هو قدرنا ومصيرنا. إن الزمن هو أملنا. إن الزمن هو يأسنا. والزمن هو المرآة التي نرى فيها الخلود. ودعوني أشر إلى ثلاثة أسرار من الأسرار العديدة للزمن: أشير إلى قوته وقدرته على التهام كل شيء في نطاقه؛ وقوته وقدرته على تلقي الخلود داخل ذاته؛ وقوته وقدرته على الاندفاع نحو غاية جديدة وإبداع جديد.

لقد أدركت البشرية أن هناك شيئاً مخيفاً في تدفق الزمن، أدركت أن هناك لغزاً لا نستطيع أن نحله، وحله مما لا نستطيع أن نتمكن منه. إننا نأتي من ماض لم يعد موجوداً؛ ونحن نتجه إلى مستقبل لم يحدث بعد؛ وحالتنا هي الحاضر. إن الماضي ليس ملكنا إلا بقدر ما نزال نملكه ونجعله قائماً في الحاضر؛ والمستقبل ليس ملكنا إلا لو جعلناه ماثلاً من ذي قبل في الحاضر. إننا نملك الماضي بالذاكرة والمستقبل بالتوقع. لكن ما طبيعة الحاضر نفسه؟ إذا نحن دققنا فيه عن قرب فيجب أن نقول: إنه نقطة بدون امتداد، إنه النقطة التي فيها يصبح المستقبل ماضياً؛ وعندما نقول لأنفسنا: «هذا هو الحاضر» تكون اللحظة قد ابتلعها الماضي من ذي قبل. إن الحاضر يختفي بمجرد ما نحاول أن نُمسك به. . إن الحاضر عَصِيٌّ على الامساك به، إنه دائماً ما يُوَلّي. وهكذا يبدو أنه ليس لدينا شيء حقيقي ـ لا الماضي ولا المستقبل، ولا حتى الحاضر. لهذا فإن وجودنا له طابع الحلم وهذا ما أشار إليه المزمور وقد وضّحته الرؤى الدينية بعدة طرق.

وعلى أية حال فإنَّ الزمن لا يستطيع حتى أن يعطينا موضعاً عليه نقف إن لم يكن منصفاً بذلك السر الثاني ألا وهو قدرته على تلقي الخلود. لا يوجد حاضر في مجرّد مجرى الزمن؛ لكن الحاضر حقيقي كما تشهد تجربتنا. وهو حقيقي لأن الخلود ينفذ إلى الزمن ويعطيه حاضراً حقيقياً. ونحن لا نستطيع حتى أنْ نقول (الآن) إن لم يرفع الخلود تلك اللحظة فوق الزمن المتدفق

دوماً. إن الخلود أو الأبد ماثل دوْماً؛ وحضوره هو علة امتلاكنا للحاضر أصلاً. وعندما ينظر صاحب المزامير إلى الله الذي بالنسبة له ألف سنة هي مثل يوم واحد فإنه ينظر إلى ذلك الأبد الذي هو وحده يعطيه موضعاً يستطيع أن يقف عليه، يعطيه (آنا) له حقيقة لامتناهية ودلالة لامتناهية. وفي كل لحظة نقول فيها (الآن) يتحد شيء وقتي وشيء أبدي وعندما يقول فرد من البشر: «الآن أنا أعيش؛ الآن أنا حاضر حقاً» وهو يقاوم المجرى الذي يدفع المستقبل إلى الماضي (يوجد) الأبد. في كل (آن) من مثل هذه الآنات يتجلى الأبد؛ في كل (آن) حقيقي يمثل الأبد. ودعونا نفكر لحظة في الطريقة التي نعيش بها حياتنا في حقبتنا من التاريخ. ألم نعقد حاضراً حقيقياً باندفاعنا إلى الامام يجري دائم في نشاطنا الذي لا يهدأ نحو المستقبل؟ إننا نعترض أن المستقبل سيكون أفضل من الحاضر؛ لكن هناك مستقبل آخر دائماً وراء المستقبل التالي يتكرر بدون حاضر أي بدون أبد. وكما جاء في الانجيل الرابع فإن الحياة الأبدية هي هدية (حاضرة): إن مَنْ ينصت للسيد المسيح يكون لديه الخلود من قَبْل. إنه لا يعود خاضعاً لانجراف الزمن، وفيه يصبح (الآن) (آناً أبدياً). لقد فقدنا (الآن) الحقيقي، (الأبد الآني)؛ وأخشى أن أقول إننا قد فقدنا الحياة الأبدية التي تخلق الحاضر الحقيقي.

وهناك عنصر آخر في الزمن، وهو سره الثالث الذي يجعلنا نتطلع إلى المستقبل؛ فالزمن لا يعود ولا يكرر نفسه.. إنه يجري للأمام؛ وهو دائماً فريد متفرد؛ وهو يخلق دوماً الجديد. إنّ فيه دافعاً نحو غاية، مجهولة، لا يمكن الوصول إليها في الزمن نفسه، مقصودة دائماً ومِفْلاتَةٌ دوْماً. إن الزمن يجري نحو (الأبد المستقبلي)؛ وهذا هو أعظم أسرار الزمن. إنه السر الذي تحدث عنه الأنبياء والمسيح والأناجيل. إن الأبدي هو حل لغز الزمن. إن الزمن لا ينجرف نحو تكرار ذاتي لا نهاية له ولا نحو عودة جوفاء لبدايته. إن الزمن ليس بلا معنى؛ إنَّ له معنى خفيا ـ الخلاص. إن له هدفاً خفيّاً ـ مملكة الرب. إنه يأتي بحقيقة خفية ـ الخلق الجديد. وان الدلالة اللامتناهية لكل لحظة من لحظات الزمن هي هذا: فيها نقرر، ويُتَّخذ قرار بشأننا، بالنسبة لمستقبلنا الأبدي.

(6)

الهرب من الله

«يا ربُّ قد اختبرتني وعرفتني. أنت عرفتَ جلوسي وقيامي. فهمْتَ فكري من بعيد. مَسْلكي ومرْبَضي ذرَّيْتَ وكُلَّ طُرُقي عرفْتَ. لأنه ليس كلمة في لساني إلاَّ وأنت يا ربُّ عرفتها كلُّها. مِنْ خلْفٍ ومن قُدَّام حاصرْتني وجعلتَ عليَّ يَدَك. عجيبة هذه المعرفة فوقي ارْتَفَعَتْ لا أستطيعها. أين أذهب مِنْ روحك ومن وجهك أين أهرب. إنْ صعدْتُ إلى السماء فأنت هناك. وإن فَرَشْتُ في الهاوية فها أنت. إن أخذْتُ جناحَيْ الصُبْحِ وسكنْتُ في أقاصي البحر. فهناك أيضاً تهديني يدك وتمسكني يمينُك. فقُلْتُ إنما الظُلْمَةُ تغشاني. فالليل يضيء حولي. الظلمة أيضاً لا تُظْلم لديْك والليل مثلِ النهار يضيء. كالظلمة هكذا النور.

لأنَّكَ أنْتَ اقْتَنَيْتَ كُلْيَتَيَّ نسجتني في بطن أمي. أحمدُكَ من أجْل أني قد امتزْت عَجَباً. عجيبةٌ هي أعمالُكَ ونفسي تعرف ذلك يقيناً. لم تختف عنْكَ عظامي حينما صُنِعْتُ في الخفاء ورُقِمْتُ في أعماق الأرض. رأتْ عيناكَ أعضائِيَ وفي سِفْرِكَ كُلُّها كُتِبَتْ يوم تصوَّرَتْ إذْ لم يكن واحد فيها. ما أكْرَمَ أفكارَكَ يا أللهُ عندي ما أكثر جُمْلَتَها. إنْ أحصها فهيَ أكثرُ من الرمل. استيقظْتُ وأنا بعْدُ مَعَك. ليتك تقتلُ الأشرار يا الله. فيا رجالَ الدِّماء ابعدوا عني. الذين يُكَلِّمونَكَ بالمكر ناطقين بالكذب هم أعداؤك. ألا أُبْغِضُ مُبغِضيك يا رب وأمقت مقاوميك. بغضاً تاماً أبغضْتُهُم صاروا لي أعداء. اخْتبرني يا أللهُ واعْرِفْ قلبي امتحنِّي واعرف أفكاري. وانظر إن كان فيَّ طَرِيْقٌ باطلٌ واهدني طريقاً أبديّاً».

(المزمور 139)

«أين أذهب من روحك ومن وجهك أين أهرب؟» هذه هي الكلمات المحورية في المزمور التاسع والثلاثين العظيم. إنها تقرر على شكل سؤال (حضور الله الذي لا مهرب منه). ودعونا نتدبر هذه العبارة والضور القوية التي يحاول المزمور فيها أن يعبر عنها. إن الله لا مهرب منه. إنه ليس الله إلا (لأنه) مما لا يمكن الهرب منه. وما لا يمكن الهرب منه هو وحده الله.

وما من أينٍ يمكن أن نهرب إليه من الله ويكون خارج الله. «إن صعدْتُ إلى السماء فأنتَ هناك». يبدو على نحو طبيعي للغاية بالنسبة لله أن يكون في السماء ويبدو غير طبيعي للغاية بالنسبة لنا أن نرغب في الصعود إلى السماء لكي نهرب منه. ولكن هذا هو بالضبط ما حاوله جميع المثاليين عَبْر كُلِّ العصور. لقد حاولوا أن يقفزوا نحو سماء الكمال والحقيقة والعدالة والسلام حيث لا يكون الله مطلوباً. تلك السماء هي سماء من صُنْع الانسان، بدون التقلقل الجارف الخاص بالروح الالهي وبدون الحضور الحاكم الخاص بالوجه الالهي. لكن هذا الأين ليس أيْناً؛ إنه يوتوبيا، وَهْم مثالي. «وإن فرشْتُ في الهاوية فها أنت» الجحيم أو عالم الموتى مستقرّ الأموات يبدو أنه الأين الحق للاختباء فيه من الله. وذلك المكان هو الأين الذي يحاول أن يهرب إليه كل أولئك الذين يتوقون للموت لكي يهربوا من المطالب الالهية. وأنا مقتنع بأنه لا يوجد مخلوق واحد منّا لم يرغب في فترة ما أن يتحرر من عبء وجوده بأن يبتعد عنه. وأنا أعرف أنه يوجد بعْضٌ منّا يعد هذا الحنين اغراءً يومياً. لكنَّ كل فردٍ يعرف في عُمْق قلبه أنَّ الموت لا يقدّم مهرباً من المطلب الباطني المُلْقَى على عاتقه. «إنْ أخذْتُ جناحيْ الصُبْح وسكنْتُ في أقاصي البحْرِ فهناك أيضاً تهديني يدُك وتمسكني يمينُك». إن الهرب إلى أقاصي الأرض لن يكون هرباً من الله. لقد حاولت حضارتنا التقنية هذه المحاولة لكي تتحرر من المعرفة التي ينقصها مركز للحياة والمعنى. إن الطريقة الحديثة للهرب من الله هي الاندفاع قُدُماً وقُدماً بسرعة تماثل الأشعة قبل شروق الشمس لكي تقهر المزيد والمزيد من المسافات في كل اتجاه وبكل طريقة إنسانية ممكنة لكي تكون نشطة دائماً وأن تقوم دائماً بالتخطيط وأن تكون مستعدة دائماً. لكنَّ يد الله تحطّ علينا؛ وهي قد حطت بقوة وبتدمير على حضارتنا المفلاتة؛ ولقد ثبت أن هروبنا عبث. «فقلْتُ إنما الظلمة تغشاني. فالليل يضيء حولي.

الظلمة أيضاً لا تُظْلم لديك والليل مثل النهار يضيء. كالظلمة هكذا النور» إن الهرب إلى الظلمة لنسيان الله ليس هرباً منه. قد نتمكن للحظة أن نستبعده عن وعينا وأن ننبذه وأن ندحضه وأن نجادل في وجود نبيه يسوع ونعيش مرتاحين للغاية بدونه. ولكننا نعرف تماماً أنه ليس هو الذي ننبذه وننساه، بل إن ما ننبذه ونطرحه هو بالأحرى صورة مشوهة منه. ونحن نعرف أننا نستطيع أن نتجادل ضده لا لشيء سوى أنه يحمله على مهاجمته. ولا يوجد هرب من الله من خلال النسيان.

«أين أذهب من روحك ومن وجهك أين أهرب؟» إن الشاعر الذي كتب تلك الكلمات ليصف المحاولة غير المجدية من جانب الإنسان ليهرب من الله إنما يعتقد يقيناً أن الإنسان (يرغب) في الهرب من الله. وهو ليس وحده في قناعته. إن الناس من كل الأنواع، الأنبياء والمصلحين، القدّيسين والملاحدة، المؤمنين وغير المؤمنين لديهم نفس التجربة. ومن الحقّ أن نقول إن الإنسان الذي لم يحاول إطلاقاً أن يهرب من الله لم يعايش إطلاقاً الله الذي هو الله حقاً. وعندما أتحدث عن الله فإنني لا أشير إلى الأرباب العديدة التي هي من صنعنا، الأرباب التي نستطيع أن نعيش معها ونحن مرتاحون تماماً. ذلك أنه لا يوجد سبب يدفعنا للهرب من إله هو صورة كاملة لكل شيء طيب في الإنسان. لماذا نحاول أن نهرب من ذلك المثال البعيد المنال. ولا يوجد سبب للهرب من إله هو بكل بساطة الكون أو نواميس الطبيعة، أو مجرى التاريخ. لماذا نحاول أن نهرب من حقيقة نحن جزء منها؟ لا يوجد سبب يحملنا على الهرب من إله ليس سوى أب مُحْسن؛ أب يضمن خلودنا وسعادتنا النهائية. لماذا نهرب من ذلك الذي يخدمنا خدمة تامة؟ كلا، ليست تلك صور الله بل هي بالأحرى صور الانسان الذي يحاول ان يصنع الله وفق صورته ومن أجل راحته. إنها هي منتجات خيال الانسان وتفكيره المليء بالرغبات والتمنيات وهو ما ينكره كل ملحد صادق. إن إلهاً نستطيع بكل بساطة أن نتحمله، إلهاً لا نحتاج أن نهرب منه، إلهاً لا نكرهه في بعض اللحظات، إلهاً لا نرغب في تدميره ليس إلهاً على الاطلاق وليست له أية حقيقة.

إن فريدريك نيتشه الملحد الشهير والعدو اللدود للدين والمسيحية يعرف الكثير عن قوة فكرة الله أفضل من كثير من المسيحيين المؤمنين. ففي قصة

رمزية نجد زرادشت نبي الانسانية الأعلى يحكي لأقبح إنسان، قاتل الله . . «إنك لا تطيق أن يراك، يراك دائماً وأبداً. . . إنك تنتقم من المشاهدة . . إنك قاتل الله» فيوافق أقبح إنسان زرادشت ويرد عليه: «إن (عليه) أن يموت» إن الله بالنسبة لأقبح إنسان إنما ينظر بعينين تريان كل شيء؛ إنه يحدق في أساس الانسان وعمقه، يحدق في خجله وقبحه الخفيين. إن الله الذي يرى كل شيء والانسان أيضاً هو الله الذي يجب أن يموت. إن الإنسان لا يستطيع أن يطيق شاهداً حياً.

فهل (نحن) قادرون على أن نطيق مثل هذا الشاهد؟ يقول صاحب المزامير: «يا ربُّ قد اختبرتني وعرفتني» من ذا الذي يمكنه أن يطيق أن يُعرف على هذا النحو الشامل حتى في أشد زوايا النفس حلكة؟ من ذا الذي لا يريد أن يهرب من مثل هذا الشاهد؟ ومن ذا الذي لا يريد أن يصبح إنساناً يستطيع أن يرفض نظرياً وعملياً، أن يكون ملحداً؟ «أنت عرفت جلوسي وقيامي. فهمْتَ فكري من بعيد. مسلكي ومَرْبضي ذرَّيْت وكلَّ طرقي عرفت». إن الله يعرف (كينونتنا)؛ وهو يعرف ما (نفعل). ومن ذا الذي لا يكره رفيقاً حاضراً دوْماً في كل طريق وفي كل موضع للراحة؟ من ذا الذي لا يريد أن ينفذ من سجن هذه الرفقة الدائمة الأبدية؟ «فهمْتَ فكري من بعيد. . . لأنه ليس كلمة في لساني إلاّ وأنت يا ربُّ عرفتها كلَّها». إن الحضور الالهي حضور روحي. إنه ينفذ إلى أقصى أعماق أجزاء أرواحنا. إن حياتنا الباطنية برُمَّتها وأفكارنا ورغباتنا، إن مشاعرنا وتخيلاتنا معروفة لله. والطريق النهائي للهرب حيث يوجد أكثر الأماكن صميمية معقود بيد الله. وهذه الحقيقة هي أصعب الحقائق التي يمكن قبولها. والمقاومة الانسانية ضد هذه المراقبة التي لا تكف نادراً ما يمكن تحطيمها. وإن كل طبيب للأمراض العقلية وكل كاهن يتلقى الاعتراف على ألفة بالقوة الهائلة للمقاومة في كل شخصية ضد حتى أبسط الانكشافات الذاتية تفاهة. ما من أحد يريد أن (يُعْرَف) حتى عندما يدرك أن صحته وخلاصه يتوقفان على مثل هذه المعرفة. بل إننا حتى لا نريد أن نعرفَ من جانب أنفسنا. إننا نحاول أن نُخْفِي أعماق نفوسنا عن أعيننا. إننا نرفض أن نكون شهود أنفسنا. فكيف يمكن أن نواجه المرآة التي لا يمكن أن تخفى عنها خافية؟

هل أقبح الرجال على حق؟ إن أقبح الرجال هو رمز للقبح في كلٍّ منا ورمز رغبتنا في أن نُخْفِي على الأقل شيئاً عن الله وعن أنفسنا. يبدو أن أقبح الرجال على حق عندما نمعن النظر في العون الذي يتلقاه من القديسين ورجال اللاهوت والمصلحين. لقد صُعق مارتن لوثر بقوة على نحو ما صعق صاحب المزامير عندما أدرك الحضور النفاذ لله. وقال إنه في كل مخلوق يوجد الله أعمق وأكثر باطنية وأكثر حضوراً عن وجود المخلوق لنفسه وأن الله يحيط بكل الأشياء وهو في كل الأشياء. غير أن هذا الحضور لله وهو أكثر الأشياء صميمية خلق في لوثر نفس الشعور الذي تولد في نيتشه. لقد رغب في أن يكون الله الذي ليس الله. «إنني لا أحب الله. إنني أكره الله العادل... وأنا ساخط ضده، إن لم يكن في تمرّد شرير فعلى الأقل في التجديف الصامت». لقد اقتفى مارتن لوثر أثر القديس برنار الشخصية العظيمة التي كانت تراقب نفسها مراقبة ذاتية دينية، وهو يواصل... إننا لا نستطيع أن نحب الله، ولذلك لا نريد أن يعيش. إننا لا نستطيع أن نزيد أن يكون أكثر حكمة... وأكثر قوة». لقد اهتز لوثر رعباً عندما تبيّن هذه الكراهية لله في نفسه. لقد كان عاجزاً عن الهرب على نحو شديد كما فعل أساتذته اللاهوتيون الذين أوصوه بألا يفكر دوماً في البحث عن حضور الله ومن ثم يتجنب التجديف بكراهية الله. ولقد عرف لوثر مع صاحب المزامير أن الهرب ليس ممكناً: «إنك من خلفي ومن أمامي وعلى كل جانب من جانبيّ تحط يدك عليّ» إن الله يقوم من كل جانب من جانبي كلٍّ منّا من أمام ومن خلف، وما من مهرب.

إنَّ الانسان الوَرِع في العهد القديم والقديس الصوفي في العصور الوسطى ومصلح الكنيسة المسيحية ورجل الإلحاد كلهم متحدون من خلال تلك التجربة الإنسانية الهائلة: إن الانسان لا يستطيع أن يوقف الله الذي هو إله حقاً. إن الإنسان يحاول أن يهرب من الله ويكرهه لأنه لا يستطيع أن يهرب منه. إن التمرد ضد الله والرغبة في ألا يكون هناك إله والهرب إلى الإلحاد كلها عناصر أصيلة للدين العميق. وعلى أساس هذه العناصر يكون للدين معنى وقوة.

إن اللاهوت المسيحي والتعاليم الدينية تتحدث عن الحضور الكلي الالهي الذي يقول أن الله يعرف كل شيء. ومن الصعب أن نتجنب مثل هذه

المفاهيم في الفكر الديني والتربية الدينية. ولكن هذه المفاهيم هي على الأقل خطرة بقدر ما هي مفيدة. إنها تجعلنا نتصور الله شيئاً له صفات خارقة مجاوزة للبشر له حضور كلي أشبه بمجال القوة الكهربائية وله علم كلي أشبه بالعقل الفائق للبشر. إن مفاهيم مثل الحضور الكلي والعلم الكلي تحول التجربة الدينية إلى شيء تجريدي، تحولها إلى عبارة فلسفية يمكن قبولها ورفضها ويمكن تعريفها وإعادة تعريفها، ويمكن استبدالها. إنَّ جعل الله شيئاً بجانب الأشياء الأخرى، الوجود والطبيعة وهي أمور معرضة للجدل، إنما يجعل اللاهوت يعزز الهرب إلى الالحاد. إنه يشجع أولئك المغرمين بإنكار الشاهد المهدد لوجودهم. إن الخطوة الأولى نحو الإلحاد هي دائماً نوع من اللاهوت يسحب الله ويحطه إلى مستوى الأشياء المشكوك فيها. ولعبة الملحد تكون حينئذٍ سهلة. فهو يجد تبريره الكامل في تدمير مثل هذا الشبح وكل صفاته الشبحية. ولما كان الملحد النظري على حق في تدميره فإن الملاحدة العمليين (نحن جميعاً) نرغب في أن نستخدم حجته لتعزز محاولتنا للهرب من الله.

لهذا دعونا نَنْسَ هذه المفاهيم (باعتبارها) مفاهيم ونحاول أن نجد معناها الأصيل داخل تجربتنا. إننا نعرف جميعاً أننا لا نستطيع أن نفصل أنفسنا في أي وقت عن العالم الذي نمت إليه. ليست هناك خصوصية مطلقة أو عزلة نائية. إننا مأخوذون دائماً ومحاطون دائماً بشيء أعظم مما نحن عليه وله مطالبه منا وهو يطلب التلبية منا. والحركات الأكثر صميمية داخل أعماق نفوسنا ليست محركاتنا نحن بالكامل، فهي تخصّ أيضاً أصدقاءنا والبشرية والكون وأساس كل الوجود الذي هو هدف حياتنا. ما من شيء يمكن إخفاؤه تماماً. إنه ينعكس دائماً في المرآة التي لا يمكن إخفاء شيء عنها. فهل يؤمن أي إنسان حقاً بأن أكثر أفكاره ورغباته سريّةً ليست مكشوفة في كل الوجود أو أن الأحداث داخل ظلام هامش شعوره أو في عزله شعوره لا تتمخّض عن مضاعفات أبدية؟ هل يمكن لأي إنسان حقاً أن يعتقد أنه يستطيع أن يهرب من مسؤولية ما قد فعله وفكر فيه سرّاً؟ إن كلية المعرفة تعني أن سرنا مكشوف، وكلية الحضور تعني أن خصوصيتنا عامة. إن مركز وجودنا الكلي ماثل في مركز كل الوجود، وأن مركز كل الوجود ماثل في مركز وجودنا. وأنا لا أعتقد انه يوجد إنسان جاد يمكنه أن ينكر تلك التجربة بصرف النظر عن كيفية تعبيره

عنها. وإذا كانت لديه التجربة فمعنى هذا أيضاً أنه التقى في داخله بشيء يجعله يرغب في الهرب من نتائج تجربته. إن الإنسان ليس مساوياً لتجربته؛ إنه يحاول أن ينساها؛ وهو يعرف أنه (لا يستطيع) أن ينساها.

ولقد طرح صاحب المزامير حلاً آخر: «لأنَّكَ أنت اقتنيْت كُلْيَتَيَّ. نسجتني في بطن أمي. أحمدك من أجل أنى قد امْتَزْتُ عَجَبًا. عجيبةٌ هي أعمالُك ونفسي تعرف ذلك يقيناً. لم تختف عنك عظامي حينما صُنِعْتُ في الخفاء ورُقِمْتُ في أعماق الأرض». لقد لجأ إلى الفكرة الأسطورية القديمة القائلة بأن الناس تشكلوا في الهاوية تحت الأرض وأشار إلى سر الخلق، لا الخلق بصفة عامة، بل خلق وجوده. إن الله الذي لا يستطيع أن يهرب منه هو أساس وجوده. وإن هذا الكائن ـ طبيعته ونفسه وجسمه ـ هو من عمل حكمة لامتناهية مروعة وعجيبة. إن الإعجاب بالحكمة الالهية تقهر الرعب من الحضور الالهي في هذه القوة. إنها تشير إلى الحضور الودود لحكمة خلاقة لامتناهية. وهذه النغمة هي التي تسري بصفة عامة في العهد القديم. ولقد تحدثت ذات يوم مع باحث عظيم حول إرادة الموت في كل منا وقد أعرب عن نغمة مماثلة عندما قال: «لا تدعنا نَنْسَ أن الحياة أيضاً ودودة». إن هناك نعمةً في الحياة والا لما استطعنا أن نحيا. إنَّ عيون (الشاهد) التي لا نستطيع أن نقاومها هي أيضاً عيون (الواحد الأحد) صاحب الحكمة اللامتناهية والأريحية المعاونة. إن مركز الوجود الذي فيه مركز وجودنا هو مصدر الجمال اللطيف الذي نواجهه مراراً في النجوم والجبال، في الزهور والحيوانات، في الأطفال والأشخاص الناضجين.

ولكن هناك شيء آخر وارد في الحل الذي طرحه صاحب المزامير. إنه بكل بساطة لم يقتصر على الأساس الخلاق لوجوده. فقد نظر أيضاً إلى المصير الخلاق لحياته. «رأت عيناك أعضائي وفي سِفْرِكَ كُلُّها كُتِبَتْ يوم تصوَّرَتْ إذْ لم يكن واحد منها». لقد لجأ صاحب المزامير إلى رمز أسطوري قديم آخر هو سجل الأحداث الدنيوية في كتاب سماوي. إنه يعبر بطريقة شعرية عما نسميه اليوم الإيمان بمعنى أقصى لحياتنا. إن أيامنا مكتوبة ومعدودة؛ وهي ليست مجرد شيء عَرَضي. إن الله الذي يرانا على نحو صميمي ينظر إلى صورة حياتنا الكلية. إننا نمتّ إلى هذا الكل؛ وإن لنا مكانة

هامة جداً داخله. إننا أفراداً وجماعات لنا مصير أقصى. وعندما نستشعر هذا المصير الأقصى سواء بدا عظيماً أو بلا معنى أم لم يبد فإننا نكون على وعي بالله، أساس ومركز كل معنى. ونستطيع أن ننضم إلى صحبة صاحب المزمور إعجاباً: «ما أكرم أفكارك يا الله عندي ما أكثر جُمْلَتَها. إنْ أحصها فهي أكثر من الرمل. إستيقظت وأنا بعْدُ معك». وهكذا قهر صاحب المزمور رعب المرآة الشاملة الانعكاس والشاهد الذي لا تأخذه سِنَة من النوم أبداً بإدراكه السر اللامتناهي للحياة، أساسها ومعناها.

ولكن فجأة، في ذروة تأمله أشاح صاحب المزمور عن الله. لقد تذكر أن هناك عنصراً مظلماً في صورة حياته ـ كراهية لله وشراً وأفعالاً دموية. ولما كان هذا العنصر يثير الاضطراب في صورته فقد طلب من الله أن يمحوه. ولقد صاح في نوبة غضب فجائية: «ليتك تقتل الأشرار يا الله. فيا رجال الدماء أبعدوا عني. الذين يكلمونك بالمكر ناطقين بالكذب هم أعداؤك. ألا أُبْغِضُ مبغضيك يا رب وأمقت مقاوميك. بغضاً تاماً أبغضتهم صاروا لي أعداء» إنَّ هذه الكلمات لا بد وأنها تقلق أي إنسان يعتقد أن مشكلة الحياة يمكن أن يحلّها التأمل والسمو الديني. إن هذه الحالة مغايرة تماماً لما جاء في الكلمات السابقة. إن الثناء يتحول إلى لعنة. وإن ارتعاد القلب أمام الله الذي كله مشاهدة ومراقبة يحل محله غضب تجاه البشر. وهذا الغضب يجعل صاحب المزمور يشعر بأنه على قدم مساو لله، الله الذي يريد أن يهرب منه إلى الظلام والموت. إن الله يجب أن يكره من يكرهونه؛ وأن أعداء الله يجب أن يكونوا أعداءه (هو). لقد تحدث في التو عن المسافة اللامتناهية بين أفكاره وأفكار الله؛ لكنه كان قد نسي. والتعصب الديني يظهر، هذا التعصب الذي ألهب زهوة الكنائس وقسوة رجال الأخلاق وعدم مرونة المتزمتين. إن خطيئة الدين تبدو في مزمور من أعظم المزامير ألا وهي تلك الخطيئة التي شوهت تاريخ الكنيسة وصورة المسيحية والتي أمكن تجنبها تجنباً كاملاً حتى من جانب بولس ويوحنا. وبطبيعة الحال إننا الذين تجربتهم الدينية فقيرة والذين مشاعرهم نحو الله ضعيفة لا يجب أن ندين بتعجل وحدة تلك النفوس التي تشتعل بنار الحضور الالهي وتنشر هذه النار بشدة على العالم برمّتِه. ومع هذا فإن خطيئة الدين حقيقية؛ وهي تتناقض مع روح ذلك الذي حرّم على أتباعه مراراً وتكراراً أن يكرهوا أعداءه على أنهم أعداء الله.

ومع هذا فإن تغيراً في الفكر والشعور يرد صاحب المزمور ثانية فجأة إلى بداية قصيدته. إنه يشعر بوضوح شديد أن شيئاً ما يمكن أن يكون خطأ فيما نطق به. وهو لا يعرف ما هو الخطأ؛ لكنه على يقين من أن الله يعرف. ومن ثمّ، فإنه يختتم كلامه بدعاء من أعظم أدعية كل العصور: «اختبرني يا الله واغرف قلبي امتحنّي واعرف أفكاري. وانظر إن كان فيَّ طريق باطل واهدني طريقاً أبدياً». في هذه اللحظة إنه (يطلب) من الله أن يفعل ما يفعله على نحو لا يلين كما جاء في الكلمات الأولى من المزمور. لقد تغلب صاحب المزامير على تأرجحه بين الرغبة في الهرب من الله والرغبة في أن يكون على قدم المساواة معه. لقد وجد أن الحل النهائي يكمن في حقيقة أن حضور الشاهد، حضور مركز الحياة كلّها من داخل مركز حياته (هو) يتضمن كلاً من الهجوم العنيف على وجوده والمعنى الأقصى لوجوده. إننا نُعْرَف في عمق الحلكة التي من خلالها لا نجرؤ نحن أنفسنا أن ننظر منها. وفي الوقت نفسه إننا نُشَاهَد في ذروة امتلاء يتجاوز أقصى رؤية لنا. إن التوتر اللامتناهي هو الجو الذي يعيش فيه الدين. وفي ذلك التوتر قهر لوثر كراهيته لله عندما اكتشف في المسيح المصلوب الرمز الكامل لحالتنا الانسانية. إنه التوتر الذي يعيش فيه الانسان الحديث حتى ولو فقد الطريق إلى الدين التقليدي. إن المخلوق الانساني يمكن الحكم عليه حكماً نهائياً بمقدار وصوله إلى ذلك التوتر ومواجهته أو لم يصل. وإن تحمله أكثر رعباً ومشقة عن أي شيء آخر في العالم. ومع هذا فإن تحمله هو الطريق الوحيد الذي نستطيع أن نحرز به المعني الأقصى والفرح والحرية في حياتنا. إن كلاً منا مدعو للتحمل. فهل يمكن لكل منا أن تكون لديه القوة والشجاعة لتحمل هذه الدعوة! فإلى هذه الدعوة نحو مدعوون باعتبارنا بشراً.

(7)

عمق الوجود

«فأعلنه الله لنا نحن بروحه، لأن الروح يفحص كل شيء حتى أعماق الله».

(رسالة بولس الرسول الأول إلى أهل كورنثوس 2: 10)

«من الأعماق صرخْتُ إليك يا رب».

(المزامير 130: 1)

من الكلمات التي وجهها بولس في رسالته إلى أهل كورنثوس دعونا نركز على التعبير: «لأن الروح يفحص كل شيء حتى أعماق الله» ومن هذا التعبير دعونا نتوقف عند كلمة واحدة هي (أعماق) ـ وهي موضوع تأملنا.

ومن المزمور المائة والثلاثين دعونا نركز على ذلك التعبير: «من الأعماق صرخْتُ إليك يا رب»؛ ودعونا نجعل كلمة واحدة ألا وهي كلمة (أعماق) أيضاً موضوع تأملنا.

إن كلمتي (عميق) و(عمق) تترددان في حياتنا اليومية، في الشعر والفلسفة، في الكتاب المقدس، وفي وثائق دينية أخرى عديدة لطرح موقف روحي رغم أن الكلمتين نفسيهما متحدثتان من تجربة مكانية. إن العمق هو بعد مكان؛ ومع هذا في الوقت نفسه هو رمز لصفة روحية. ومعظم رموزنا الدينية لها هذا الطابع وهي تذكرنا بتناهينا وارتباطنا بالأشياء المرئية. إننا كائنات حسية وسنظلّ كائنات حسية حتى ونحن نتناول الأشياء الروحية.

ومن جهة أخرى هناك قدر كبير من الحكمة في لغتنا، فهي تجسيد لعديد من تجارب الماضي. ولا يرجع الأمر إلى الصدفة وحدها أننا نستخدم

رموزاً مرئية معينة لنكتشف الأسباب لاختيارات العقل الحي للأجيال السابقة. وقد يصبح من الدلالة القصوى لنا عندما نتُبين المتضمن في استخدام مصطلحات مثل (عميق) و(عمق) و(أغوار) للتعبير عن حياتنا الروحية، فهي قد تعطينا دافعاً للبحث عن عمقنا.

إن كلمة (عميق) في استخدامها الروحي لها معنيان: فهي إما أن تعني عكس (ضحْل) أو عكس (مرتفع). إن الحقيقة عميقة وليست ضحلة؛ والمعاناة هي العمق وليست العلو. ونور الحقيقةً وحلكة المعاناة كلاهما عميقان. هناك عمق في الله وهناك عمق منه يتضرع صاحب المزامير لله. لماذا تكون الحقيقة عميقة؟ ولماذا تكون المعاناة عميقة؟ ولماذا نفس الرمز المكاني يُستخدم للتعبير عن كلا التجربتين؟ إن هذه الأسئلة هي التي ستقود تأملنا.

إن لكل الأشياء المرئية سطح. والسطح هو ذلك الجانب من الأشياء الذي يلوح لنا أولاً. فإذا نظرنا إليه فإننا نعرف كيف (تبدو) الأشياء. ومع هذا إذا تصرفنا وفق (ما يبدو) عليه الأشخاص والأشياء فإننا نُصاب بخيبة الأمل. إن توقعاتنا تصاب بالإحباط. ولهذا نحاول أن ننفذ إلى ما وراء الأسطح لكي نعرف ما تكون عليه الأشياء حقاً. لماذا يبحث الناس دائماً عن الحقيقة؟ هل لأنهم قد أصيبوا بالإحباط بالنسبة للأسطح وعرفوا أن الحقيقة التي (لا) تسبب الاحباط تستقرّ أسفل الأسطح في العمق؟ ولهذا ينقّب الناس في مستوى تلو الآخر. وما يبدو حقيقياً ذات يوم يعاش على أنه مزيف في اليوم التالي. إننا عندما نواجه شخصاً فإننا نتلقى إنطباعاً. ولكن غالباً إذا ما تصرفنا على هذا النحو نُصاب بالإحباط من جرّاء سلوكه الفعلي. إننا نلمح مستوى أعمق من شخصيته ويكون إحباطنا أقل لفترة. ولكن سرعان ما قد يقوم بفعل يكون عكس كل توقعاتنا؛ ونتبيّن أن ما تعرفه عنه لا يزال مزيفاً. ومرة أخرى ننقّب أعمق في وجوده الحقيقي.

والعلم يسير على هذا المنوال. إن العلم يتساءل عن الفروض الشائعة التي تبدو حقيقية بالنسبة لكل إنسان، بالنسبة للانسان المتوسط والباحث المتوسط على السواء. ثم يأتي العبقري ويبحث عن أساس هذه الفروض المقبولة؛ وعندما يَثْبُت أنها غير حقيقية يحدث زلزال في العلم من الأعماق. وقد حدثت مثل هذه الزلازل عندما تساءل كوبرنيقوس إن كانت انطباعاتنا

الحسية يمكن أن تكون أساس علم الفلك وعندما تساءل أينشتين عما إذا كانت هناك نقطة مطلقة يمكن للمراقب أن ينظر منها إلى حركات الأشياء. لقد حدث زلزال عندما تساءل ماركس عن وجود تاريخ عقلي وخلقي مستقل عن أساسه الاقتصادي والاجتماعي. ولقد حدث الزلزال على نحو أكثر تفجّراً عندما تساءل الفلاسفة الأول عما اعتبره كل إنسان أساساً من عصور سحيقة ألا وهو الوجود نفسه. وعندما أصبحوا واعين بالحقيقة المدهشة المتضمنة في كلّ الوقائع أن هناك شيئاً وليس عدماً تم الوصول إلى عمق للفكر لا يمكن تجاوزه.

وفي ضوء هذه الحظوات الجريئة والعظيمة نحو الأشياء العميقة التي في عالمنا يجب أن ننظر في أنفسنا وفي الآراء التي نُسلِّم بها. وعلينا أن نتبين ما في هذه الأشياء من ابتسار وتعسّف قائمين على تفضيلاتنا الفردية وأوساطنا الاجتماعية. وسوف يصدمنا أن نلاحظ أن جانباً ضئيلاً من عالمنا الروحي أكثر عمقاً من السطح وكيف أن جانباً ضئيلاً هو الذي يستطيع أن يواجه ضربة مميتة. إن هناك شيئاً تراجيدياً مرعباً يحدث في كل حقب حياة الانسان الروحية: فالحقائق التي كانت عميقة وقوية والتي اكتشفتها أعظم العبقريات من خلال المعاناة العميقة والجهد الخارق تصبح سطحية ومزيفة عندما ترد في المناقشة اليومية. فكيف يمكن أن تحدث هذه التراجيديا وكيف تحدث بالفعل؟ إنها يمكن أن تحدث وهي تحدث على نحو لا يمكن تجنبه لأنه لا يمكن أن يوجد عمق بدون الطريق إلى العمق. إن الحقيقة بدون الطريق إلى الحقيقة ميتة؛ وإذا كانت لا تزال تُسْتَعمل فإنها لا تساهم إلا في سطح الأشياء. أنظروا إلى الطالب الذي يعرف محتويات مائة من أهم كتب تاريخ العالم ومع ذلك تظل حياته الروحية ضحلة كما كانت بل ربما حتى تصبح أكثر ضحالة. ثم أنظروا إلى عامل غير متعلم يؤدي عملاً آلياً يوماً بعد يوم، ولكنه يسأل نفسه فجأة: «ماذا (يعني) أن أعمل هذا العمل؟ ماذا يعني هذا لحياتي؟ ما هو معنى حياتي؟» ولأن ذلك الإنسان يسأل هذه الأسئلة فإنه يكون على الطريق إلى العمق على حين أن الشخص الآخر ـ دارس التاريخ ـ يستقر على السطح بين الأجسام المتحجرة التي بعثها من الأعماق زلزال روحي من الماضي. إن العامل البسيط قد يستحوذ على الحقيقة حتى ولو لم يستطع أن

يرد على أسئلته؛ وقد لا يملك الدارس أية حقيقة رغم أنه يعرف كل حقائق الماضي.

إن عمق الفكر جزء من عمق الحياة. ومعظم حياتنا تستمر على السطح. إننا سجناء روتين حياتنا اليومية في العمل وفي اللذة، في الشغل والاستجمام. إننا مقهورون بالمخاطر العديدة الطيبة منها والشريرة. إننا منساقون أكثر منا سائقين. إننا لا نتوقف لكي ننظر في الارتفاع فوقنا أو في العمق أسفلنا. إننا دائماً نتحرك إلى الأمام رغم أن هذا يتم عادة على شكل دائرة، وهذا يردنا في النهاية إلى الموضع الذي انطلقنا منه في البداية. إننا في حركة دائمة ولا نتوقف أبداً لكي ننغمر في العمق. إننا نتكلم ونتكلم ولا ننصت إطلاقاً للأصوات التي تتحدث لعمقنا ومن عمقنا. إننا نتقبل أنفسنا كما تبدو لأنفسنا ولا نعبأ بما نحن عليه حقاً. ونحن أشبه بالسائقين الطائشين نجرح أنفسنا بالسرعة التي نتحرك بها على السطح؛ ثم نندفع وقد خلّفنا وراءنا نفوسنا الدامية وهي وحيدة. إننا ـ لهذا ـ نفتقد عمقنا وحياتنا الحقة. ولا ننظر إلى مستوى أعمق من وجودنا إلاّ عندما تتحطم الصورة التي لدينا عن أنفسنا كلية، وإلا عندما نجد أنفسنا نتصرف ضد كل التوقعات التي اشتققناها من تلك الصورة، وإلا عندما يهز زلزال سطح معرفتنا الذاتية ويثير فيها الاضطراب.

إن حكمة كل العصور وكل القارات تتحدث عن الطريق إلى الحكمة. ولقد جرى التعبير عنها بعديد من الطرق. ولقد شاهد التجربة نفسها كل المعنيين المهتمين ـ الصوفية والكهنة، الشعراء والفلاسفة، البسطاء والمتعلمون ـ بذلك الطريق من خلال الاعتراف وانعام النظر وهم منعزلون ومن خلال الكوارث الباطنية والخارجية والصلوات والتأملات. لقد اكتشفوا أنهم ليسوا على النحو الذي اعتقدوه في أنفسهم حتى بعد مستوى أعمق ظهر لهم تحت السطح المتلاشي. ذلك المستوى الأعمق نفسه يصبح سطحاً عندما نكتشف مستوى أعمق آخر وهذا يتكرر مراراً طالما أنهم يعيشون وطالما يظلون على طريق العمق.

واليوم هنا شكل جديد من هذا المنهج أصبح مشهوراً وهو ما يسمى (علم نفس الأعماق). إنه يقودنا من سطح معرفتنا الذاتية إلى مستويات تتسجّل فيها الأشياء التي لا نعرف عنها شيئاً على سطح شعورنا ووعينا. وهي تظهر لنا

ملامح شخصيةٍ تتناقض مع كل شيء اعتقدنا أننا نعرفه عن أنفسنا. وهي تستطيع أن تساعدنا على أن نجد الطريق إلى عمقنا وإن كانت لا تستطيع أن تساعدنا بشكل مطلق أقصى لأنها لا تستطيع أن تقودنا إلى أعمق أساس وجودنا وكل وجود، إلى عمق الحياة نفسها.

إن إسم هذا العمق اللامتناهي والذي لا يستنفد هو (الله). إن ذلك العمق هو ما تعنيه كلمة الله. وإذا كانت تلك الكلمة لا تعني الكثير بالنسبة لكم ترجموها وتحدثوا من أعماق حياتكم، من مصدر وجودكم، من اهتمامكم الأقصى، مما تأخذونه مأخذ الجد بدون تحفظ. وربما لكي تقوموا بهذا يجب أن تنسوا كل شيء تقليدي عرفتموه عن الله وربما حتى تلك الكلمة نفسها. لأنكم إن علمتم أن الله يعني العمق فإنكم سوف تعلمون الكثير عنه. ولن تسموا أنفسكم حينئذٍ ملحدين أو كفرة، فإنكم لا يمكن أن تعتقدوا أو أن تقولوا: الحياة ليس لها عمق! إن الحياة في ذاتها ضحلة. والوجود نفسه هو السطح وحده. فإذا استطعتم أن تقولوا هذا بجدية تامة فأنتم تكونون ملاحدة؛ ولكنكم لستم كذلك. إن من يعرف العمق يعرف الله.

لقد نظرنا إلى عمق العالم وعمق نفوسنا. ولكننا لا نكون في العالم إلا من خلال جماعة من الناس. ونحن لا نستطيع أن نكتشف نفوسنا إلا من خلال مرآة الذين ينظرون إلينا. لا يوجد عمق للحياة بدون عمق الحياة الجماعية. وعادة ما نعيش في التاريخ على السطح بقدر ما نعيش حياتنا الفردية. إننا نفهم وجودنا التاريخي كما يبدو لنا وليس في وجوده الحقيقي. إن تدفق الأخبار اليومية وموجات الدعاية اليومية وتيارات القناعات والنزعات الحسّية تُبقي عقولنا مشغولة. إن صخب هذه الحياة الضحلة يحول بيننا وبين الانصات إلى الأصوات الصادرة من العمق وأصوات ما يحدث حقاً في أساس بنائنا الاجتماعي وفي قلوب الجماهير المتطلعة وفي العقول المناضلة لأولئك الذين يكونون حساسين تجاه التغيرات التاريخية. إن آذاننا صماء إزاء الصيحات الصادرة من العمق الاجتماعي بمثل ما هي صماء إزاء الصيحات الصادرة من عمق نفوسنا. إننا نترك الضحايا الذين ينزفون في نظامنا الاجتماعي وحدهم بعد أن جرحناهم بدون أن نسمع صيحاتهم وسط ضجة حياتنا اليومية كما نفعل بالنسبة لنفوسنا التي تدمى. لقد اعتقدنا ذات يوم أننا نعيش في عصر التقدم الذي لا يمكن تجنبه نحو إنسانية أفضل. ولكن في عمق نباتنا الاجتماعي

استجمعت قوى الدمار قوتها. لقد بدا كما لو أن العقل الانساني قد قهر الطبيعة والتاريخ. ولكن هذا هو مجرد السطح؛ وفي عمق مجتمعنا بدأت من قبل نزعات التمرد ضد السطح. لقد أنتجنا أدوات ووسائل أفضل وأكمل لحياة البشرية. لكنها تحولت في العمق إلى أدوات ووسائل لتدمير الانسان تدميراً ذاتياً. منذ عشرات السنين تطلعت العقول المتنبئة إلى العمق. ولقد عبر الفنانون التشكيليون عن إحساسهم بالكارثة المقبلة ببث الاضطراب في سطح الانسان والطبيعة في لوحاتهم. ولقد استخدم الشعراء كلمات وإيقاعات غريبة ومثيرة لكي يلقوا ضوءاً على التناقض بين ما يبدو وما هو موجود حقاً. وبجانب علم نفس الأعماق ظهر علم اجتماع الأعماق. ولكن الآن فقط، في عقد السنين الذي جمع فيه أكبر زلزال اجتماعي في كل العصور كل البشرية تفتحت عيون الأمم على العمق الذي تحتهم وعلى الحقيقة المتعلقة بوجودهم التاريخي. ومع هذا لا يزال هناك أناس حتى في المراكز العليا يشيحون بأعينهمّ عن هذا العمق والذين يريدون أن يعودوا إلى السطح المضطرب كما لو كان لم يحدث شيء. ولكننا نحن الذين نعرف عمق ما قد حدث لا يجب أن نقنع بالبقاء على المستوى الذي وصلنا إليه. قد نصبح يائسين ومحتقرين لذواتنا. لكن دعونا نزْدَدْ غوصاً بشكل عميق في أساس حياتنا التاريخية، في العمق الأقصى لتاريخنا. إن إسم هذا الأساس اللامتناهي الذي لا يُسْتَنْفد هو الله. هذا هو ما تعنيه الكلمة وهذا ما تشير إليه كلمات (مملكة السماء) و(العناية الإلهية). وإذا كانت هذه الكلمات ليس لها معنى كبير بالنسبة لكم ترجموها وتحدّثوا عن عمق التاريخ، وعن أساس حياتنا الاجتماعية وهدفها، وعمّا تأخذونه دون تحفظ في أوجه نشاطاتكم الأخلاقية والسياسية. ربما تسمون هذا العمق (الأمل)، الأمل البسيط. ذلك لأنكم إذا وجدتم الأمل في أساس التاريخ فإنكم تتوحدون مع الأنبياء العظام الذين كانوا قادرين على النظر في عمق أزمانهم، والذين حاولوا أن يهربوا منه لأنهم لم يستطيعوا أن يطيقوا رعب رؤاهم والذين كانت لا تزال لديهم القدرة على التطلع في مستوى أكثر عمقاً وهناك إكتشفوا الأمل. وإنّ أملهم لم يجعلهم يشعرون بالخجل. وما من أمل يجعلنا نخجل إذا لم نجده على السطح حيث يزرع الأغبياء توقعات عبثه، ولكن إذا وجدناه بالأحرى في العمق فإنه يكون حيث يتلقى أولئك الذين لهم قلوب ترتعد وتنسحق قوة أمل هو الحقيقة.

إن هذه الكلمات الأخيرة إنما تقودنا إلى المعنى الآخر الموجود في كلمتي (عميق) و(عمق) باللغة الدنيوية والدينية معاً: إن عمق المعاناة هو الباب، الباب الوحيد المفضي إلى عمق الحقيقة. هذه الحقيقة واضحة. من المريح أن نحيا على السطح طالما نظل بلا اهتزاز. ومما هو مؤلم أن ننفذ منه ونهبط إلى أساس مجهول. والقدر الهائل من مقاومة هذا العمل في كل إنسان والتظاهرات العديدة التي وُجدت واخْتُرِعَت لتجنب الطريق إلى العمق أمر طبيعي. إن ألم النظر في عمق الانسان أمر مؤلم بالنسبة لمعظم الناس. إنهم يفضلون بالأحرى أن يعودوا إلى السطح المهتز والمُدَمَّر لحياتهم وأفكارهم السابقة. ويصدق الأمر نفسه على الجماعات الاجتماعية التي تخترع كل أنواع الأيديولوجيات والتبريرات لكي تقاوم أولئك الذين ينبغي أن يقودوهم إلى الطريق المفضي إلى عمق وجودهم الاجتماعي. إنهم بالأحرى يغطون الفجوات في سطحهم بعلاجات بسيطة بدل الحفر عميقاً في الأساس. ويستطيع أنبياء كل العصور أن يحدثونا عن المقاومة الممتلئة كراهية التي يظهرونها لهم من جرّاء جرئتهم على تعرية أعماق الحكم الاجتماعي والأمل الاجتماعي. ومن يستطيع حقاً أن يطيق العمق الأقصى، النار المحترقة في أساس كل الوجود من غير أن يقول مع النبي: «ويل لي! إنني خرب. ذلك أن عينيّ قد رأتا ربَّ الجيوش!».

إن محاولتنا لتجنب الطريق المفضي إلى مثل هذا العمق للمعاناة ولجوئنا لتظاهرات لتجنبه أمر طبيعي. ومن مناهجنا ـ وهو منهج مصطنع ـ أن نؤكد أن الأشياء العميقة هنا أشياء معقدة وغير معقولة بالنسبة للعقلية غير المتعلّمة. غير أن علامة العمق الحقيقي هي بساطته. فإذا قلتم: «هذا عميق جداً بالنسبة لي؛ إنني لا أستطيع أن أستوعبه» فإنكم تخدعون ذواتكم، فيجب أن تعرفوا أنه لا يوجد شيء له أهمية حقيقة عميق للغاية بالنسبة لأي إنسان. ليس الأمر لأنه عميق للغاية، بل بالأحرى لأنه غير مريح بالمرة وأنكم تخجلون من الحقيقة. لا تدعونا نخلط الأشياء المعقدة بالأشياء العميقة في الحياة. إن الأشياء المعقدة لا تعنينا بالمرة، ولا يهم ما إذا كنا نفهمها أم لا، لكن الأشياء العميقة هي التي يجب أن تهمنا دائماً لأنها تهمنا على نحو لا متناه سواء استوعبتنا أم لا.

وهناك حقيقة أكثر جدية عن الطريق المفضي إلى العمق والتي يمكن استخدامها كتعلّة من جانب الذين يودون تجنبه. إن العمق في اللغة الدينية إنما يجري استخدامه في الأغلب للتعبير عن مكان سكن لقوى الشر، القوى الشيطانية، الموت والجحيم. أليس الطريق إلى العمق هو طريق إلى المملكة التي تحكمها هذه القوى؟ ألا توجد عناصر النزعة التدميرية والمرضية في الاشتياق إلى العمق؟. عندما عبر صديق لي أمريكي لجماعة من اللاجئين الألمان عن اعجابه بالعمق الألماني فإننا سألنا أنفسنا عما إذا كنا نستطيع أن ننقل هذا المديح. أليس ذلك العمق هو التربة التي انبثقت منها أشد القوى الشيطانية في التاريخ الحديث؟ أليس ذلك العمق هو العمق المميت والمدمر؟ دعوني أجب عن هذه الأسئلة بأن أحكي لكم أسطورة قديمة وجميلة.. عندما تترك النفس الجسم لا بد أن تمر بعدة مجالات حيث تحكمها القوى الشيطانية؛ والنفس التي تعرف الكلمة الحقّة والقوية هي وحدها التي تستطيع أن تواصل طريقها إلى العمق الأقصى للأساس الإلهي. وما من نفس تستطيع أن تتجنب هذه الاختبارات. وإذا نحن تأملنا في معارك القديسين في كل العصور وتأملنا في الأنبياء والمصلحين والمبدعين العظام في كل الممالك فإننا نستطيع أن نتبين حقيقة تلك الأسطورة.. إنّ على كل إنسان أن يواجه أشياء الحياة العميقة. وإذا كان هناك خطر فهذا ليس عذراً فالخطر يجب التغلب عليه بمعرفة القلة المُحَرِّرة. إن الشعب الألماني وكثير من الناس في كل الأمم لا يعرفون الكلمة ولهذا يفتقدون العمق الأقصى والمنقذ، ومن هنا تتملكهم قوى الشر التي في الأعماق.

لا يوجد عذر يسمح لنا بأن نتجنب عمق الحقيقة، والطريق الوحيد إليها يكمن خلال عمق المعاناة. وسواء جاءت المعاناة من الخارج وأخذناها على أنفسنا باعتبار أن هذا هو الطريق المفضي إلى العمق، أم اخترناها بالإرادة على أنها الطريق المفضي إلى الأشياء العميقة؛ وسواء كانت الطريق إلى الانسانية أو الطريق إلى الثورة؛ وسواء كان الصليب باطنياً أو كان خارجياً فإن الطريق يمتد عكس الطريقة التي عشنا بها وفكرنا بها. وهذا هو السبب الذي دفع أشعياء إلى أن يمدح اسرائيل خادمة الرب في أعماق معاناتها؛ وهذا هو السبب الذي دفع يسوع إلى مباركة أولئك الموجودين في عمق الأسى والاضطهاد والجوع

والعطش في الجسم والروح معاً؛ وهذا هو السبب الذي دفعه إلى أن يطالبنا بأن نفقد أنفسنا من أجل حياتنا. وهذا هو السبب الذي دفع ثوريين عظيمين هما توماس مُنْزر في القرن السادس عشر وكارل ماركس في القرن التاسع عشر إلى أن يتحدثا بمصطلحات مماثلة عن النداء الباطني القائم عند الواقفين على حدود الانسانية ـ في أعماق الفراغ كما أسماه مُنْزر؛ في عمق اللاإنسانية كما أسماه ماركس ـ تلك البلوريتاريا التي يشيران إليها على أنها حاملة المستقبل المنقذ.

وكما هو الحال في حياتنا يكون الحال أيضاً في فكرنا: إن كل عنصر يبدو معكوساً. لقد وُجِّه الاتهام كثيراً للدين والمسيحية على أن لهما طابعاً لا عقلانياً مليئاً بالتناقض الظاهري. ومن المؤكد أن كثيراً من الغباء والخرافة والتعصب قد أُلصق بهما. والأمر بتضحية عقل الانسان هو أمر شيطاني لا إلهي. ذلك أن الإنسان يكف عن أن يكون إنساناً إذا كفّ عن أن يكون عقلانياً. غير أن عمق التضحية والمعاناة والصَلْب مطلوب من أجل تفكيرنا.. إن كل خطوة في عمق تفكيرنا هي انقطاع عن سطح الأفكار السابقة. وعندما حدث هذا الانقطاع عند أناس من أمثال بولس وأوغسطين ولوثر تكشّفت مثل هذه المعاناة الشديدة حتى جرت معايشتها على أنها الموت والجحيم. لكنهم تقبلوا مثل هذه المعاناة على أنها الطريق المفضي إلى عمق أشياء الله، على أنها الطريق الروحي، الطريق إلى الحقيقة. لقد عبروا عن الحقيقة التي واجهوها بكلمات روحية ـ أي الكلمات التي هي عكس كل التفكير السطحي، الكلمات المتناغمة مع عمق العقل الذي هو إلهي. إن اللغة المتناقضة ظاهرياً لغة الدين تكشف الطريق إلى الحقيقة على أنه الطريق إلى العمق وتكشف عنه على أنه طريق المعاناة والتضحية. وإن من يرغب في أن يسلك ذلك الطريق هو وحده القادر على فهم تناقضات الدين الظاهرية.

وآخر ما أود أن أقوله عن طريق العمق يخص تناقضاً ظاهرياً من هذه التناقضات الظاهرية. إن نهاية الطريق هو الفرح. والفرح أعمق من المعاناة. إنه شيء أقصى. ودعوني أعبر عن هذا بكلمات رجل وهو يسعى سعياً حاراً للعمق قد وقع في قبضة قوى الدمار ولم يعرف الكلمة التي تقهرها. لقد كتب فريدريك نيتشه: «إن العالم عميق بل أعمق مما يمكن للعصر أن يقرأه. إن

العمق هو ويله. والفرح لا يزال أعمق من الحزن. أقول الويل: ومن هنا أمضوا! غير أن الأفراح تريد كل الأبد، تريد الأبدية العميقة الأصيلة».

إن الفرح الأبدي هو نهاية طرق الله. هذه هي رسالة كل الأديان. إن مملكة الرب هي السلام والفرح. هذه هي رسالة المسيحية. غير أن الفرح الأبدي لا يمكن الوصول اليه بالعيش على السطح. بل إنه يتم إحرازه بالنفاذ من السطح، بالنفاذ من الأشياء العميقة في أنفسنا وفي عالمنا وفي الله. واللحظة التي نصل عندها إلى العمق الأخير لحياتنا هي اللحظة التي نستطيع فيها أن نعيش الفرح الذي يحوي الأبدية فيه والأمل الذي لا يمكن القضاء عليه والحقيقة التي تنبني عليها الحياة والموت. ذلك أن العمق هو الحقيقة؛ وفي العمق يكمن الأمل؛ وفي العمق يكمن الفرح.

(8)

عن الوجود الزائل للحياة

«يا ربُّ ملجأ كُنْتَ لنا في دوْر فدوْر. من قَبْلِ أن تولد الجبال أو أبدأْتَ الأرْضَ والمسكونَة منذ الأزل إلى الأبد أنْتَ الله. تُرجع الإنسان إلى الغبار وتقول ارجعوا يا بني آدم. لأنَّ ألف سنة في عينيْكَ مِثْلُ يوْمِ أمس بعدما عَبَر وكهزيعٍ من الليل. جرفْتَهُم. كسِنَةٍ يكونون. بالغداة كعُشْبٍ يزول. بالغداةِ يُزْهر فيزول. عند المساء يُجَزُّ فَيَيْبَسُ. لأننا قد فنينا بسخطك وبغضك ارتعبنا. قد جعلْتَ آثامنا أمامَكَ خفياتنا في ضوْءِ وجهك. لأنَّ كلَّ أيامنا قد إنقضت برِجْزِك. أفنينا سنيناً كغصّة. أيام سنيناً هي سبعون سنة. وإن كانتْ مع القوة فثمانون سنة وأفخرها تَعَبٌ وبَلِيَّة. لأنها تقْرض سريعاً فنطير. من يعرف قوةَ غضبك. وكخوفك سَخَطُك. إحصاءَ أيامنا هكذا علِّمنا فنؤتى قلْبَ حكمة. إرجع يا ربّ. حتى متى. وترأف على عبيدكِ. أشبعنا بالغداة من رحمتك فنبتهج ونفرح كلَّ أيامنا. فَرِّحْنا كالأيام التي فيها أذللتنا كالسنين التي رأينا فيها شرّاً. لِيَظْهَرْ فِعْلُك لعبيدك وجلالُك لبنيهم. ولْتَكُن نعمةُ الربِّ إلهنا علينا وَعَمل أيدينا ثبِّتْ علينا وعَمَلَ أيدينا ثبِّتْهُ.

(المزامير: الاصحاح 90)

هناك شيء فريد في هذا المزمور، هناك صعود وهبوط للمديح والانتحاب، هناك اعتبار ودعاء، هناك كآبة وأمل. وإذا أردنا أن نلتقط معناه علينا أن نتابعه كلمةً كلمة ونستشعر ما استشعره الشاعر ونحاول أن نرى ما رآه وأن ننظر إلى حياتنا من خلال رؤيته كما جرى تفسيرها وبكلماته العظيمة. إن هذه الكلمات تنحدر إلينا من الماضي السحيق ومع هذا تخاطب حاضرنا وكل مستقبل. ولقد أعربت الأجيال التالية في إسرائيل عن شعورها تجاه قوة هذا

الاصحاح التي لا تُقارن بأن نسبوه ـ هو وحده ـ لموسى، الذي أطلقوا عليه رجل الله. ودعونا نقترب منه بالطريقة نفسها المليئة بالرهبة. إن هذا الإصحاح مثل فقرات أخرى عديدة في الكتاب المقدس تتحدث عن حياة الإنسان وموته بكلمات متشائمة عميقة. إنها تردد صدى ما قاله الرب لآدم في الإصحاح الثالث من سفر التكوين: «ملعونةٌ الأرْضُ بسببك. بالتعب تأكل منها كلَّ أيام حياتك. وشوْكاً وحَسَكاً تُنبِتُ لك وتأكل عُشْبَ الحقل. بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أُخذت منها. لأنك تراب وإلى تراب تعود». ويَصْعُب علينا أن نضاعف من سوداوية هذه الكلمات. وسيصعب على المتشائم الحديث أن يضاعف من المرارة التي تحدى بها أصدقاءه الأخلاقيين قائلاً إن الإنسان الذي ولد من امرأة لا يعيش سوى أيام قليلة، وإن هناك أملاً لشجرة قُطِعَتْ أن تزدهر مرة أخرى ولكن الانسان يرقد ولا يقوم أبداً. وهو يقول للرب: «لقد حطمت كل آمال الانسان. إنك قوي للغاية إزاءه وعليه أن يولي». وصاحب النزعة الطبيعية الحديث لا يحتاج إلى أن يغير شيئاً في كلمات الكهنة، فقد أنكر الكاهن المبشر أن هناك إختلافاً بين الإنسان والوحش. «فكما يموت الوحش يموت الإنسان. كلاهما قاما من التراب وإلى التراب يعود الاثنان». ولقد شك في العقيدة المثالية القائلة بأن «روح الانسان تصعد للأعلى على حين أن روح الوحش تهبط للأرض». وعلى الانسان أن يكون سعيداً في عمله «فهذا هو الذي يُحصِّله من الحياة ـ فمن يستطيع أن يريه ما سيحدث بعد ذلك؟».

هذه هي حالة البشرية قديماً. وكثير منا خائف منها. إن المثالية المسيحية الضحلة لا يمكن أن تقف في وجه ظلام مثل هذه الرؤية. ولا الكتاب المقدس. إن هذا الكتاب باعتباره أعم الكتب يكشف حكمة العصور القديمة عن حياة الإنسان المؤقتة الزائلة وعن بؤسه. إن الكتاب المقدس لم يحاول أن يخفي الحقيقة عن حياة الإنسان وراء عبارات براقة عن خلود النفس. لم يفعل هذا لا العهد القديم ولا العهد الجديد. إنهما يعرفان الوضع الانساني وهما يأخذانه مأخذاً جاداً. وهما لا يعطيان لنا أية راحة تجاه أنفسنا.

هذا هو الضوء الذي يجب أن نقرأ فيه المزمور التسعين. غير أن المزمور يذهب أبعد. إنه يبدأ بأغنية مديح: «يا ربُّ ملجأ كنتَ لنا في دور فدوْر».

ولكي يصف الشاعر الطابع الزائل للانسان يمجد الخلود الإلهي. وهو قبل أن يتطلع للأسفل يتطلع للأعلى، وقبل أن ينظر في بؤس الانسان يشير إلى عظمة الله. ولأننا ننظر إلى شيء لا متناه نتمكن بهذا وحده من أن ندرك أننا متناهون. ولأننا قادرون على أن نرى الأبدي نستطيع بهذا وحده أن نرى الزمن المحدود الممنوح لنا. ولأننا نستطيع أن نرفع أنفسنا فوق الحيوانات نستطيع بهذا وحده أن نرى أننا أشبه بالحيوانات. إن سوداويتنا بالنسبة لطابعنا الزائل المؤقت مغروسة في قدرتنا على أن نتطلع إلى ما وراء ذلك. إن المتشائمين المحدثين لا يبدأون كتاباتهم بمدح الله الخالد. إنهم يعتقدون أنه يمكنهم أن يتناولوا الانسان مباشرة ويتحدثوا عن تناهيه وبؤسه وتراجيديته. لكنهم لا ينجحون. فيظل خفياً عليهم ـ حتى بالنسبة لأنفسهم ـ معيار به يقيسون الوجود الإنساني ويحكمون عليه. إنه شيء يتجاوز الإنسان. عندما تحدث الشعراء اليونانيون عن الناس بأنهم (فانون) كان في اعتبارهم الآلهة الخالدة التي قاسوا بها الفناء الإنساني. إن معيار زوال الانسان هو خلود الله، ومعيار بؤس الانسان وتراجيديته هو الكمال الالهي. وهذا هو ما يقصده المزمور عندما أطلق على الله ملجأنا، الديمومة الوحيدة في تغير كل العصور والأجيال. ولهذا يبدأ أغنيته عن أعمق سوداوية بمدح السيد الرب.

إن خلود الله موصوف برؤية قوية. «مِنْ قبل أن تولد الجبال أو أبدأْتَ الأرض والمسكونة منذ الأزل إلى الأبد أنت الله». حتى الجبال أشد الرواسي التي لا تتزعزع على الأرض تولد وتموت. ومن (كان) قبل ولادتها (سوف يكون) بعد موتها. من الأبدية إلى الأبدية أي من شكل إلى شكل ومن عالم إلى عالم الله (كائن). إن معياره في الزمن ليس معيارنا. «لأنَّ ألف سنة في عينيك مِثْلُ يوم أمس بعدما عَبَر وكهزيع من الليل». إن له معياره (هو) الذي يتجاوز الفهم الانساني. إن الخلود ليس قضاء على الزمن؛ إنه الوحدة الخلاقة لكل الأزمان ودوائر الزمن، الماضي والمستقبل. إن الأبد هو الحياة الأبدية وليس الموت الأبدي. إنه الله الحي الذي ينظر إليه صاحب المزامير.

ثم نظر صاحب المزامير إلى الأسفل إلى الانسان وكتب: «تُرجع الانسان إلى الغبار وتقول ارجعوا يا بني آدم». إن مصير الموت هو المصير الذي كتبه الله على الانسان. إن الله يسلمنا إلى قانون الطبيعة وهو أن التراب

يجب أن يعود إلى التراب. وما من مخلوق يستطيع أن يُفلت من هذا المصير. ما من مخلوق يمكن له أن يحصل على الخلود الالهي. وعندما حاول الانسان أن يتشبه بالله ـ كما تقول لنا قصة الجنة ـ بأن يحاول أن يحصل على معرفة بكل قوى الخير والشر حقق تلك المعرفة. ولكن في الوقت نفسه انفتحت عيناه ورأى موقفه الحقيقي الذي كان خفياً عليه في براءة الجنة الحالمة. لقد رأى أنه ليس كمثل الله. إنَّ هدية المعرفة التي تلقّاها تشمل مصير الجنس ومصير العمل ومصير الموت. لقد استيقظ ورأى الهوة اللامتناهية بين نفسه والله.

قصير هو الزمن بين الميلاد والموت. ورؤية الشاعر الفظيعة لا يتم التعبير عنها إلاّ على شكل شذرات عن طريق التشبيه: «كهزيع من الليل» أي منهم مثل هزيع من الهُزُع الثلاثة التي تنقسم إليها الليالي: «جَرَفْتَهُمْ. كسِنَةٍ يكونون» ـ من نوم أبدي نستيقظ؛ نستيقظ ثلث الليل؛ وهذه هي عودتنا، وهي عودة طويلة ولكن ليست ممتدة؛ فسرعان ما يصل الذين يحلون محلنا وننجرف إلى نوم أبدي مرة أخرى. والشاعر ينتقل من الليل إلى مجرى النهار وحياة العشب فيه، وهو يواصل: «بالغداة كعُشْب يزول. بالغداة يُزْهر فيزول. عند المساء يُجَزُّ فَيَيْبَسْ»: إن الشمس التي تحمل أولى أشعتها الحياة للعشب تحرقه حتى الموت في الظهيرة وتذويه وتزيله قبل أن يحل المساء. وعلى هذا النحو القصير حياتنا ـ وإن كانت تبدو طويلة: «أيام سنينا هي سبعون سنة. وإن كانت مع القوة فثمانون سنة وأفخرها تَعَبٌ وبَلِيَّة. لأنها تُقرض سريعاً فنطير». ولا يصل إلى هذه السنّ الكثيرون، إنها في نظر اليافعين مما لا يمكن تخيله، وهي أبعد ما تكون عن الإنسان الناضج وهي لا شيء بالنسبة للذين يصلون إلى هذا العُمْر، إنها مجرد لحظة تطير مثل الطير الذي لا نستطيع أن نمسكه أو أن نتبعه.

لماذا تأثر الشاعر تأثراً بالغاً بقصر حياتنا على هذا النحو؟ واضح أنه يشعر أنها تجعل الانجاز الحقيقي مستحيلاً. ورغم أن هناك قلة ضئيلة تريد تكرار حياتها إلا أننا كثيراً ما نسمع الناس يقولون: «أوّاه لو استطعت أن أبدأ حياتي مرة أخرى بكل تجاربها لكنت أعيشها على النحو الحق. . إنها كانت ستصبح أكثر من مجرد هذه النأمة المكسورة، هذه الشذرة، هذه المحاولة

المُخبَطَة التي أسميها حياتي». غير أن الحياة لا تسمح لنا أن نبدأ من جديد. وحتى لو استطعنا أن نبدأ من جديد، بل حتى لو كانت حياتنا من ضمن الحيوات الأكثر كمالاً وسعادة ونجاحاً أفلن نتطلع إليها ونشعر بما شعر به صاحب المزامير؟ ألن نشعر أن أكثر الأشياء قيمةً فيها، الساعات الطيبة والخلاقة والمرحة إنما هي قائمة على الكذح ويتبعها الاحباط؟ ألن نشعر بأن ما اعتقدنا أنه هام لم يكن كذلك؟ وفي مواجهة الموت ألن تتعرض كل تقييماتنا للشك؟ ومن المؤكد أن هذه كانت حالة الشاعر القديم الذي كتب المزمور.

وهناك خطر ينشأ من الأخذ بهذه الأمور، فهي قد تطرح متعة انفعاية مصطنعة لكآبتنا وتطرح استسلاماً شهوانياً مع حزننا، وتطرح حنيناً فاسداً للمأساوي. ولا توجد إشارة واحدة لمثل هذا الشعور في المزمور التسعين. لقد عرف الشاعر شيئاً يجهله معظم المتشائمين المحدثين لدينا وهو يعبر عن هذا بكلمات حزينة: «لأننا قد فنينا بسخطك وبغضبك إرتعبنا. قد جعلْتَ آثامنا أمامك خفياتنا في ضوء وجهك». إنَّ هذه الكلمات تشير إلى شيء لا نجده في الطبيعة: خطيئة الإنسان وغضب الله. وهناك نظام آخر للأشياء ينكشف. إن القانون الطبيعي وحده «من التراب وإلى التراب» لا يفسّر الوضع الإنساني. إن كون الانسان مقيد بهذا القانون هو رد فعل إلهي ضد محاولة الانسان أن يتشبه بالله. إننا يجب أن نموت لأننا من تراب، هذا هو قانون الطبيعة الذي نخضع له مع كل الموجودات: الجبال والزهور والوحوش. ولكن في الوقت نفسه إننا يجب أن نموت لأننا آثمون، وهذا هو القانون الخلقي الذي نخضع له على عكس كل الموجودات الأخرى وكلا القانونين صادقان؛ كلاهما واردان في جميع أجزاء الكتاب المقدس. ولو نحن سألنا صاحب المزامير أو الكتاب الانجيليين الآخرين رأيهم في كيفية ارتباط القانونين معاً لوجدوا الأمر صعباً للتوصل إلى جواب عنه. إنهم شعروا كما نشعر نحن بأن الموت ليس طبيعياً فقط، بل هو غير طبيعي أيضاً. إن شيئاً ما يتمرد ضد الموت أينما يظهر. إننا نتمرد لمرأى جثة من الجثث، ونحن نتمرد ضد موت الأطفال والشباب والرجال والنساء في عنفوان قوتهم. بل إننا لنشعر بعنصر مأساوي في شيخوخة المسنين بما عندهم من تجربة وحكمة وفردية لا يمكن استبدالها. إننا

نتمرد ضد نهايتنا وضد طابعها المحدد الذي لا مهرب منه. قد لا نتمرد إذا كان الموت بكل بساطة شيئاً طبيعياً بمثل ما لا نتمرد ضد سقوط أوراق الشجر. إننا نتقبل سقوطها وإن كنا نتقبل هذا بكآبة. لكننا لا نتقبل موت الإنسان بالطريقة نفسها. إننا نتمرد؛ ولما كان تمردنا عبثاً فإننا نصبح مستسلمين. وبين التمرد ضد الموت والاستسلام للموت نتذبذب ونحن نتظاهر في كلا الحالين. فإنّه ليس من الطبيعي أن نموت.

إن الموت هو عمل الغضب الالهي: «لأن كلّ أيامنا قد انقضت برجزك. أفنينا سنينا كغُصَّة» - أفتيناها قصيرة كغُصّة، ومليئةً بالأسى كغُصة. إن فكرة الغضب الالهي قد أصبحت غريبة في أيامنا. لقد رفضنا ديناً يبدو أنه يجعل من الله طاغية غضوباً، وشخصاً له أهواؤه ورغباته يرتكب الأعمال التعسفية. ليس هذا هو المقصود بغضب الله. إنه يعني رد الفعل الذي لا مهرب منه والذي لا يمكن تجنبه ضد كل تشويه لناموس الحياة وفوق كل شيء ضد الكبرياء الإنساني والغطرسة الإنسانية. هذا الغضب الذي يرتد خلاله الانسان إلى حدوده مرة أخرى ليس فعلاً انفعالياً للعقاب أو الانتقام من جانب الله. إنه إعادة تأسيس التوازن بين الله والإنسان، إنه غضب ناجم من الانزعاج لوقوف الانسان ضد الله.

إن الشاعر يعبر عن فهمه العميق للعلاقة بين الله والانسان في قوله إن الله يكشف أعمق أسرارنا في ضوء وجهه.. إن غضب الله ليس موجهاً ضد قصورنا الخلقي وضد أعمال بعينها متعلقة بالعصيان للنظام الالهي. إنه موجه ضد سر شخصيتنا، ضد ما يحدث فينا ولنا مما هو خفي عن الناس، خفي حتى عن أنفسنا. وسرنا هذا يحدد مصيرنا على نحو أفضل من أي شيء مرئي. إننا في عالم أعمالنا المرئية قد لا نشعر بأننا نستحق غضب الله - التعاسة والتراجيديا. لكن الله ينظر من خلال الأحجبة التي تخفي أسرارنا. إنها جلية بالنسبة له. ولهذا نشعر كل يوم بثقل كوننا واقعين تحت قوة تنفينا وتحللنا وتجعلنا غير سعداء. هذا هو الغضب الذي نمضي في ظلّه كل أيامنا، وليس لتلك الأيام وحدها التي فيها نتحمل أشكال فشل خاصة وأشكال معاناة خاصة.

هذا هو وضع الناس جميعاً. لكن ليس كل الناس يعرف هذا «مَنْ يعرف

قوة غضبك. وكخوفك سَخَطُك. إحصاءَ أيامنا هكذا علِّمنا فنؤتى قلب حكمة». إن المزمور التسعين يحاول أن يعلمنا حقيقة وضعنا الإنساني ووضعنا المؤقت الزائل وخطيئتنا. لقد فعل ما فعلته التراجيديات القديمة العظيمة. إنها كشفت لكل الناس في المدينة المتجمعين في الساحة حقيقة الانسان؛ لقد أظهرت للناس أن أفضل الناس وأجملهم وأقواهم بل كلهم يقومون في ظل الناموس المأساوي ولعنة الخالدين. لقد أرادت أن تكشف الوضع التراجيدي للإنسان، إلى وضعه أمام ما هو إلهي. إنه يصبح عظيماً ومزهُوّاً ويحاول أن يلمس المجال الالهي وهو يُلْقى به في الدمار واليأس. هذا ما أراد صاحب المزامير أن يكشفه للفضلاء وغير الفضلاء من أمته ـ حقيقتهم، وحقيقة الإنسان.

غير أن صاحب المزامير يعرف أن الناس حتى لو اهتزوا للحظة ينسون مصيرهم. إنه يعرف أن الناس يعبثون كما لو كانوا يعيشون للأبد وكما لو كان غضب الله ليس موجوداً. ولهذا فإنه يطلب منا أن نَعِدَّ أيامنا وأن نفكر في أنها سرعان ما تنتهي. وهو يتضرع إلى الله أن يعلمنا أننا يجب أن نموت.

إن صاحب المزامير لا يعتقد أن إدراك حقيقة ما يقوله سوف يقذف بالناس إلى اليأس. بالعكس، إنه يعتقد أن هذه البصيرة وحدها تستطيع أن تعطينا قلب الحكمة ـ قلباً يتقبل المسافة اللامتناهية بين الله والإنسان ولا يدعي عظمة وغبطة تخصان الله وحده.

إن القلب الحكيم هو القلب الذي لا يحاول أن يخبئ هذا عن نفسه والذي لا يحاول أن يهرب إلى أمان زائف أو ذاتية زائفة. إن القلب الحكيم هو القلب الذي يستطيع أن يتحمل هذه المعرفة بشجاعة بكرامة وتواضع وجَلَد. هذه الحكمة واردة في كل كلمة من كلمات المزمور. إنها أعظم حكمة حققها الإنسان في العالم القديم وقد شعر بتراجيديا الحياة.

وبعد التضرع للقلب الحكيم (وليس للحكمة العقلية) يبدأ قسم جديد من المزمور، وربما قد أضيف في فترة لاحقة من الدين اليهودي. هذا القسم الجديد خاص بالأمة ووضعها التاريخي: «إرجع يا ربّ. حتى متى. وتراءف على عبيدك. أشبعنا بالغداة من رحمتك فنبتهج ونفرح كلّ أيامنا. فرّحنا كالأيام التي فيها أذللتنا كالسنين التي رأينا فيها شراً لِيَظْهرْ فِعْلُك لعبيدك وجلالك

لِبَنِيهم. ولتكن نعمةُ الرب إلهنا علينا وعَمَل أيدينا ثبِّتْ علينا وعَملَ أيدينا ثبِّتْهُ». إن شيئاً جديداً يظهر في هذه الكلمات.. معنى الماضي والمستقبل والتضرع لمستقبل أفضل، مستقبل من السعادة والفرح وحضور الله ونجاح عملنا. إن الله ليس إله الأبدية فحسب، إنه أيضاً إله المستقبل. إن الدائرة من التراب وإلى التراب، من الخطيئة إلى الغضب تتحطم. هناك تظهر رؤية عصر من الانجاز بعد عصور البؤس. غير أن هذه الرؤية قاصرة على عبيده فحسب ـ قاصرة على الأمة المختارة وفيها وحدها، لمن هم خدمه حقاً. إن الفرد لا يعود قائماً وحده أمام الله، إنه من ضمن خدم الرب الآخرين وسط شعب الله الذين لا ينظرون نحو عودتهم إلى التراب بل نحو حياة في عصر جديد حيث يكون الله حاضراً. إن الأمل يعقب المأساة. وهذه هي الذروة التي يصل إليها الدين في العهد القديم.

غير أن روح الدين تتجاوز حتى هذا. ليست هذه هي النهاية. ماذا يعني الأمل التاريخي للإنسان؟ هل يُحرِّرُنا من قانون الحياة المؤقتة والخطيئة؟ إن التاريخ وهو يسرع نحو المستقبل المجهول يرد كل إنسان إلى الماضي ولا نصل إلى عصر التحقق الذي اشتاق إليه الشاعر. إن الخطوة القاسية للتاريخ إنما تتم فوق قبورنا ولا يبدو أن التاريخ نفسه يقترب من تحققه. وعندما يبدو التاريخ أنه يقترب من تحققه يتم قذفه إلى الوراء ويكون أكثر بُعْداً عن تحققه عن ذي قبل. وهذا هو ما نعيشه دون مهرب في زماننا. ومن هنا نسأل كما سألت كل أجيال البشرية.. هل التراجيديا أقوى من الأمل؟ هل الماضي يقهر المستقبل؟ هل الغضب أكثر قوة من الرحمة؟ إننا ننقذف جيئة وذهاباً بين الكآبة والتوقع ـ من التراجيديا إلى الأمل، من الأمل إلى التراجيديا. وفي هذا الموقف قد نكون مستعدّين لتلقي رسالة وجود جديد، نوع جديد من الوجود لا يكون مجرد أمل فحسب بل واقع أيضاً فيه يتم قهر الغضب الالهي والخطيئة الانسانية تماماً. والمسيحية هي قائمة على هذه الرسالة.. إن الله يُخضع نفسه للحالة العابرة المؤقتة والغضب لكي يكون معنا. ومن هنا يترافق الأمل الذي تغنى به صاحب المزامير: «ليظهر فعلك لعبيدك وجلالك لبنيهم».

وسواء تقبلنا هذه الرسالة أم لا فإنها الجواب على الأسئلة التي تركها صاحب المزامير دون رد. وقد نفضل أن نتمسك بمزيد من الأمل بالرغم من

جميع أشكال إزالة الوهم. قد نفضل أن نعود إلى الاستسلام التقي الوارد في الجزء الأقدم من المزمور. بل قد نفضل حتى أن نرجع إلى التوحّد السوداوي بين حياة الإنسان وعشب الحقل. قد نختار رأياً من هذه الطرق لتفسير حياتنا. ولكن إذا اخترنا أيّاً منها فيجب أن نتأكد أننا لا نستطيع أن نجد فيها الجواب على سؤال حياتنا. ويجب أن نستسلم. ولكن إذا تقبلنا رسالة الحقيقة الجدّيدة في المسيح فيجب أن نفهم أن هذه الرسالة لا تحتوي على أي إجابة سهلة وأنها لا تضمن أي طمأنينة روحية. وعلينا أن نعرف أنها إجابة حقيقية إذا ما فهمناها فحسب بشكل دائم في ضوء الوضع الإنساني حيث تتحارب المأساة والأمل معاً بدون إنتصار. إن النصر يتجاوزها. ولقد جاء النصر عندما حدثت تلبية لضراعة صاحب المزامير: «ترأّف على عبيدك» هذا التضرع هو تضرع البشرية عبر كل الدهور وهو التضرع الخفي في عمق كل نفس إنسانية.

(9)

«الطبيعة تنوح على الخير المفقود»

«يوم إلى يوم يذيع كلاماً وليْلٌ إلى ليل يبدي علماً لا قوْلَ ولا كلام. لا يُسْمع صوتهم. في كل الأرض خرج منطقهم وإلى أقصى المسكونة كلماتُهم. جعل للشمس مسكناً فيها. وهي مثلُ العروسِ الخارجِ من حَجَلَتِه. يبتهج مثلَ الجبّارِ للسّباق في الطريق».

(المزمور 19: 2 ـ 5)

«لأنَّ انتظارَ الخليقةِ يتوقَّعُ اسْتِعْلانَ أبناء الله. إذ أُخْضعِتْ الخليقةُ للبُطلْ. ليس طوعاً بلْ من أجل الذي أخضعها. على الرجاء. لأنَّ الخليقة نفسَها أيضاً ستُعْتَقُ من عبودية الفساد إلى حُرية مجد أولاد الله. فإننا نعلم أن كلَّ الخليقة تئن وتتمخَّضُ معاً إلى الآن».

(رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية 8: 19 ـ 22)

«ثم رأيتُ سماءَ جديدة وأرضاً جديدة لأن السماء الأولى والأرض الأولى مضَتَا والبحر لا يوجد في ما بعْدُ... وأراني نهراً صافياً من ماء حياةٍ لامعاً كبلّور خارجاً من عرش الله والخروف. في وسط سوقها وعلى النهر من هنا ومن هناك شجرة حياة تصنع إثنتي عشرة تمرة وتُعطى كلَّ شهر ثمرها. وورقُ الشجرة لشفاء الأمم».

(رؤيا يوحنا اللاهوتي 21: 1، 22: 1 ـ 2)

في كل عام تقترب الجمعة الحزينة وأحد الفِصْح تتحول أفكارنا نحو دراما الكفارة العظيمة وتصل الذروة في صور الصليب والبعث. من الذي ينال الكفارة؟ هل بعض الناس وحدهم؛ أم البشرية بما في ذلك كل الأمم؛ أم

العالم، كل شيء مخلوق بما في ذلك الطبيعة والنجوم والسحب والرياح والمحيطات والأحجار والنباتات والحيوانات وأجسامنا؟ إن الكتاب المقدس يتحدث مراراً عن خلاص (العالم) وهو يتحدّث عن خلق (العالم) وخضوع (العالم) للقوى المعادية لما هو إلهي. و(العالم) يعني الطبيعة وكذلك البشر.

ولهذا دعونا نسأل اليوم: ماذا تعني الطبيعة بالنسبة لنا؟ ماذا تعني بالنسبة لنفسها؟ ماذا تعني في الدراما العظيمة، دراما الخلق والخلاص؟ هناك إجابة ثلاثية من كلمات صاحب المزامير والحواريّ والنبي: إن صاحب المزامير يتغنى بعظمة الطبيعة؛ والحواريّ يظهر تراجيديا الطبيعة؛ والنبي يتحدث عن خلاص الطبيعة. إن ترنيمة صاحب المزامير تمتدح عظمة الله في عظمة الطبيعة؛ ورسالة الحواري تربط تراجيديا الطبيعة بتراجيديا الإنسان؛ ورؤية النبي ترى خلاص الطبيعة في خلاص العالم.

لهذا دعونا ننصت مرة أخرى لكلمات صاحب المزامير عن عظمة الطبيعة في معناها الدقيق: «السموات تُحَدِّث بمجد الله. والفلَكُ يُخْبر بعمل يديه. يومٌ إلى يوم يذيع كلاماً وليْلٌ إلى ليل يُبدي علماً. لا قول ولا كلام. لا يُسْمَعُ صوتُهم في كل الأرض خرج منطقهم وإلى أقصى المسكونة كلماتهم».

إن المزمور 19 يشير إلى عقيدة قديمة في العالم القديم وقد عبر عنها الشعراء والفلاسفة: وهي أن الأجرام السماوية، الشمس والقمر والنجوم، تُحْدث بحركتها تناغماً في الألحان، وهي تتردد ليلاً ونهاراً من طرف العالم إلى طرفه الآخر. هذه الأصوات الخاصة بالكون لا تسمعها الآذان البشرية؛ وهي لا تتكلم بلغة إنسانية. لكنها موجودة، ونستطيع أن ندركها من خلال أجهزة روحنا. يقول شكسبير:

«لا يوجد أصغر فلك تنظرونه

إلا وهو يغني في حركته...

ومثل هذا التناغم موجود في النفوس الخالدة؛ ولكن لمّا كان هذا الغطاء الطيني من الطمي يغلفه بإحكام فإننا لا نستطيع أن نسمعه...»(*).

(*) مسرحية تاجر البندقية، الفصل الخامس المنظر الأول.

لقد استمع صاحب المزامير (بالفعل) للتناغم؛ إنه يعرف ما الذي تعبر عنه النجوم: عظمة الخلق وأساسه الإلهي.

فهل (نحن) قادرون على إدراك الصوت الخفي للطبيعة؟ هل تتحدث الطبيعة لنا؟ هل تتحدث إليكم؟ أم أن الطبيعة أصبحت صامتة بالنسبة لنا، صامتة بالنسبة لأناس عصرنا؟

قد يقول بعضكم: «لم يحدث من قبل في أي عصر أن انفتحت الطبيعة للإنسان كما هي اليوم. إن أسرار الماضي قد أصبحت معرفة من معارف الأطفال. ومن خلال كل كتاب علمي، ومن خلال كل معمل، ومن خلال كل آلة تتحدث إلينا الطبيعة. والاستخدام التكنولوجي هو كشف أسرارها». إن صوت الطبيعة قد استمع إليه (بالفعل) العقل العلمي وجوابه هو قهر الطبيعة. ولكن هل هذا هو كل ما تقوله الطبيعة لنا؟

ذات يوم كنت أجلس تحت شجرة مع عالم بيولوجي عظيم. وفجأة صاح: «إنني أحب أن أعرف شيئاً عن هذه الشجرة». بطبيعة الحال هو عرف كلَّ شيء يمكن أن يقوله العلم عنها. ولقد سألته ماذا يقصد؟ فأجاب: «إنني أحبّ أن أعرف ماذا تعني الشجرة بالنسبة لنفسها، إنني أريد أن أفهم حياة هذه الشجرة. إنها غريبة، لا يمكن تناولها». لقد اشتاق إلى فهم تعاطفي (لحياة) الطبيعة. لكن مثل هذا الفهم ليس ممكناً! لا من خلال التواصل بين الإنسان والطبيعة. فهل مثل هذا التواصل ممكن في عصرنا من التاريخ؟ ألم تخضع الطبيعة بالكامل لإرادة ورغبة الإنسان؟ إن هذه الحضارة التكنولوجية التي هي فخر الانسان قد تسبَّبت في خراب هائل للطبيعة الأصلية والأرض والحيوانات والنباتات. لقد احتفظت بالطبيعة الأصيلة في مواضع صغيرة وشغلت كل شيء من أجل الهيمنة والاستغلال الشديد. والأسوأ من هذا: لقد فقد الكثيرون منا القدرة على أن يعيشوا مع الطبيعة. لقد ملأناها بضوضاء لغونا بدل أن ننصت لأصواتها المتعددة وموسيقى الكون الصامتة. إننا وقد فصلتنا الآلة عن التربة اندفعنا عبر الطبيعة وقد لمحناها لمْحاً ولكن دون أن نستوعب عظمتها أو الشعور بقوتها إطلاقاً. فمن ذلك الذي لا يزال قادراً على النفاذ والتأمل والاستيعاب لأساس الطبيعة الخلاق؟ لقد طلب امبراطور صيني من فنان مصور شهير أن يرسم له لوحة ديك. فوافق الفنان لكنه قال إن الأمر يقتضي منه فترة

طويلة. وبعد عام ذكره الامبراطور بوعده. فرد الفنان قائلاً إنه بعد عام من دراسة الديك شرع في تصور سطح طبيعته. وبعد عام ثان أكد الفنان أنه قد شرع في النفاذ إلى جوهر هذا النوع من الحياة. وهكذا دواليك عاماً بعد عام. وأخيراً بعد عشر سنوات من التركيز على طبيعة الديك رسم الفنان الصورة ـ وهو عمل وُصف بأنه كشف لا يُستنفذ للأساس الالهي في الكون في جزء صغير منه ألا وهو الديك. فقارنوا بين الصبر الحكيم الذي مارسه الامبراطور وتأمل الفنان المقدس لتعبير صغير لامتناه عن الحياة الالهية بتعجلات معاصرينا الذين يندفعون في سياراتهم إلى بعض المناظر الشهيرة وهو يصيحون: «كم هي جميلة!» وهم لا يشيرون بدون شك إلى المنظر بل إلى تقديرهم هم للجمال. فيا له من تجديف في حق عظمة الطبيعة وبالتالي في حق الأساس الالهي وهي عظمة تتردد عبر عظمة الطبيعة.

إن الثناء على عظمة الطبيعة لا يعني التحدث عن جمال الطبيعة وحدها ونسيان اتساعها الممتد وقوتها المخيفة. إن الطبيعة لا تظهر على الاطلاق جمالاً ضحلاً أو مجرد تناغُم واضح. يتغنى شاعر المزمور 29 قائلاً: «صوت الربِّ بالقوة. صوت الرب بالجلال. صوت الرب مُكَسِّرُ الأرز ويُكَسِّر الرب أرز لبنان... صوتُ الرب يقدح لُهُبَ نارٍ. صوت الرب يزلزل البرية يزلزل الرب برية قادش». وفي سفر أيوب نجد وصفاً لقوة الطبيعة المخيفة في الرموز الأسطورية بهيموث(*) والتنين. والشاعر المعاصر العظيم ريلكة يقول:

«الجمال ليس شيئاً
سوى بداية الرعب الذي لا نزال قادرين على تحمله،
ونحن نعبده هكذا لأنه بهدوء
يترفع عن أن يدمّرنا. إن كل ملاك مُفْرد مخيف»
إنَّ جمال الطبيعة ليس جمالاً ضحلاً.

والآن دعرنا ننصت مرة أخرى لكلمات الحواري عن تراجيديا الطبيعة في معناها الدقيق.

(*) البهيموث هو فرس البحر أو حيوان ضخم (المترجم).

«لأن انتظار الخليقة يتوقع اسْتِعْلانَ أبناء الله. إذْ أُخْضِعَتِ الخليقةُ للبُطْل. ليس طوعاً بل من أجل الذي أخضعها. عَلَى الرّجاء. لأنَّ الخليقة نفسها أيضاً ستُعْتق من عبودية الفساد إلى حرية مجد أولاد الله. فإننا نعلم أن كل الخليقة تئن وتتمخَّضُ معاً إلى الآن»(*).

إن الطبيعة ليست عظيمة فحسب؛ بل هي مأساوية أيضاً. إنها خاضعة لقوانين التناهي والدمار. إنها تعاني وتتنهّد معنا. وما من مخلوق قد استمع إلى أصوات الطبيعة متعاطفاً! يمكن أن ينسى ألحانها المأساوية. والكلمة اليونانية الواردة في رسالة بولس التي ترجمناها بكلمة (الخليقة) قد استُخدمت بصفة خاصة للتعبير عن الجانب غير العضوي حيث يلجأ بولس إلى كلمات الرب لآدم بعد السقوط: «ملعونة الأرض بسببك». إن أصوات الريح التي تتنهّد وتكسر الأمواج العقيم الذي لا يهدأ ربما قد ألهمت بالنظم الشاعري السوداوي عن خضوع الطبيعة للعبث. غير أن كلمات بولس تشير أيضاً على نحو أكثر مباشرة إلى مجال الأشياء الحية. إن كآبة الأوراق الساقطة في الخريف ونهاية حياة الربيع والخريف المتهللة والموت الهادئ لعديد من الكائنات في الهواء البارد، هواء الشتاء المقترب ـ كل هذا يستولي على القلوب وسوف يستولي عليها، لا قلوب الشعراء وحدهم، بل كل شعور عند الرجل والمرأة. إن أغنية الوجود الزائل تدوّي عند كل الأمم. وكلمات أشعياء تقول: «إن العُشب يذوى والزهرة تذبل لأن نَفَس الله يهب عليها» وهي تصف قصر حياة الأفراد والأمم. لكن ما كان يمكن أن يُكْتَب بدون تعاطف عميق مع حياة الطبيعة. ثم تحدث يسوع وهو يمدح زنابق الحقل: «حتى سليمان في كل عظمته لم يكن كاسياً مثل واحدة منها». وفي هذين القولين عن زهور الحقل ندرك كلاً من عظمة الطبيعة ومأساتها.

إن التعاطف مع الطبيعة في مأساتها ليس انفعالاً تعاطفياً؛ إنه شعور صادق بحقيقة الطبيعة. لقد قال الفيلسوف الألماني شلنج: «إن هناك حجاباً من الحزن مرخى على كل الطبيعة، إنَّ هناك كآبة حزينة على كل الحياة». وفي رأيه أن هذا «يتجلى من خلال آثار المعاناة في وجه الطبيعة كلها وخاصة في

(*) رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية 8: 19 ـ 22.

أوجه الحيوانات». إن عقيدة المعاناة باعتبارها طابع الحياة كلها وهي العقيدة التي دعا إليها بوذا قد غزت قطاعات كبيرة من البشرية. ولكن مَنْ يرتبط في أساس وجوده مع أساس الطبيعة هو وحده القادر على أن ينظر في المأساة؛ وكما يقول شلنج: «إن الأساس الأحلك والأعمق في الطبيعة الإنسانية هو (الإشتياق)... هو الكآبة. وهذا يخلق ـ أساساً ـ تعاطف الإنسان مع الطبيعة. ففي الطبيعة أيضاً أعمق أساس هو الكآبة. إن الطبيعة ـ أيضاً ـ تنوح على الخير المفقود». فهل لا زلنا نفهم معنى مثل هذه الكلمات شبه الشعرية وشبه الفلسفية؟ أم أننا استنفدنا أنفسنا في تفوقية إنسانية وفي عجرفة عقلية وفي نظرة مهيمنة تجاه الطبيعة؟ لقد أصبحنا عاجزين عن تصور الأصوات المتناغمة للطبيعة. فهل أصبحنا أيضاً غير حساسين إزاء الأصوات المأساوية؟

لماذا تكون الطبيعة مأساوية؟ من المسؤول عن معاناة الحيوانات وقبح الموت والتآكل والخشية الكلية من الموت؟ من سنوات عديدة وقفت على حاجز ماء عند الشاطئ مع عالم نفس أتطلع إلى المحيط. لقد رأى العديد من الأسماك الصغيرة التي تتسارع نحو الشاطئ. لقد كانت تطاردها الأسماك الأكبر التي بدورها كانت مُطاردة من سمكات أكبر. العدوان، الصراع، القلق ـ إنه تصوير كامل للقصة المستخدمة كثيراً عن السمك الكبير الذي يلتهم السمك الصغير في الطبيعة كما في التاريخ. والعالم الذي دافع في مجادلات عديدة عن البناء المتناغم للواقع انفجر باكياً وهو يقول: «لماذا تُخْلق هذه الكائنات إذا كانت لا توجد إلا من أجل أن تبتلعها الكائنات الأخرى؟» في هذه اللحظة فرضت مأساة الطبيعة نفسها على عقله المتفائل وقد تساءل: «لماذا؟».

لقد حاول بولس أن ينفذ إلى سر هذا السؤال. وإجابته المدهشة هي على هذا النحو: إن الطبيعة معرضة للفناء بسبب لعنة ألقاها الله من جرّاء خطيئة آدم. إن مأساة الطبيعة مرتبطة بمأساة الانسان، كما أن خلاص الطبيعة متوقف على خلاص الانسان. فماذا يعني هذا؟ لقد حلم الانسان دائماً بزمن يملأ فيه التناغم والفرح الطبيعة كلها ويسود السلام بين الطبيعة والانسان ـ الجنة، العصر الذهبي. لكن الإنسان بانتهاكه القانون الالهي دمّر التناغم، والآن هناك عداوة بين الانسان والطبيعة، بين الطبيعة والطبيعة. وبكلمات بولس السوداوية نجد صدى لهذا الحلم. إنّه حلم، لكنه يحتوي على حقيقة

عميقة: إن الإنسان والطبيعة يمتّان إلى بعضهما في عظمتهما المخلوقة وفي مأساتهما وفي خلاصهما. وكما أن الطبيعة ـ التي يتم التعبير عنها (بالحيّة) ـ تفضي بالإنسان إلى الغواية فإن الإنسان بانتهاكه للقانون الإلهي إنما يدفع الطبيعة إلى المأساة. إن هذا لم يحدث ذات يوم كما تمضي الحكاية. لكنه يحدث في كل زمان وفي كل مكان طالما أنه يوجد زمان وطالما أنه يوجد مكان. وطالما أن هناك سماء قديمة وأرضاً قديمة سوف يخضع الإنسان والطبيعة معاً لقانون العبث. إن كثيرين من المفكرين العميقين داخل المسيحية وخارجها يتفقون على أن الإنسان محدد له أن يحقق اشتياق الطبيعة. وطالما أنه قد فشل ولا يزال يفشل حتى يحقق إنجازه فإنه غير قادر على تحقيق الطبيعة ـ وجوده الجسماني والطبيعة من حوله. ومن هنا يُسمى يسوع ابن الله، الإنسان من أعلى، الانسان الحق، الذي فيه يتم قهر قوى الانفصال والمأساة لا في البشرية فحسب بل في الكون أيضاً. ذلك أنه لا يوجد خلاص للإنسان إذا لم يكن هناك خلاص للطبيعة، لأن الإنسان في الطبيعة والطبيعة في الإنسان.

ودعونا ننصت مرة أخرى لكلمات النبي عن خلاص الطبيعة:

«ثم رأيت سماء جديدة وأرضاً جديدة لأن السماء الأولى والأرض الأولى مضتا والبحر لا يوجد فيما بعد. . . وأراني نهراً صافياً من ماء حياة لامعاً كبلور. . . وعلى النهر من هنا وهناك شجرة حياة تصنع اثنتي عشرة ثمرة وتعطي كلَّ شهر ثمرها. وورقُ الشجرة لشفاء الأمم»(*).

إن السفر الأخير في الكتاب المقدس يصف بصور قوية خلاص الانسان والطبيعة من رباط الفساد: إن مدينة الله تنبني بأثمن مواد الطبيعة غير العضوية. ويتم استبعاد المحيط الذي هو رمز للفوضى الهلامية. والنهر لا يأسَن بأي عفن. إن الشجرات تحمل ثمراً لا يتغير ولا يفسد؛ وتعبد الحيوانات مع القديسين عرش العظمة. ويتم إلقاء القوى الشيطانية في العدم. لا تكون هناك معاناة ولا موت.

ولا حاجة إلى القول بإن هذا ليس وصفاً لحالة مستقبلية لعالمنا. فعلى

(*) رؤيا يوحنا اللاهوتي 21: 1، 22: 1 ـ 2.

غرار العصر الذهبي في الماضي فإن العصر الذهبي للمستقبل هو رمز يشير إلى شيء غامض في عالمنا الراهن ـ ألا وهو قوى الخلاص. وهناك شيء واحد يتضح تماماً في رؤى النبي وهو أن الخلاص يعني خلاص (العالم) لا البشر وحدهم. الأسود والغنم، الأطفال الصغار والحيات، سوف نرقد معاً في سلام كما يقول أشعياء. الملائكة والنجوم، الناس والحيوانات تعبد طفل أسطورة الميلاد. إن الأرض تهتز عندما يموت المسيح، وهي تهتز ثانية عندما يتم إنقاذه. إن الشمس تفقد ضياءها عندما يغلق عينيه، وهي تشرق عندما يُنشر من القبر. إن بعث (الجسم) ـ لا النفس الخالدة ـ هو رمز الانتصار على الموت. إن الروح غير المادية (وهذا معنى كل هذه الصور) ليس هو هدف الخلق؛ إن هدف الخلاص ليس العقل المجرد أو الشخصية الخلقية اللاطبيعية. ألا نرى في كل مكان غربة الناس عن الطبيعة، وعن قواهم الطبيعية، وعن الطبيعة من حولهم؟ وألا يصبحون جافين وغير مبدعين في حياتهم العقلية وأشداء متزمتين في موقفهم الخلقي وقد كُبِتَتْ حيويتهم وتسمَّمَت؟ من المؤكد أنّها ليست صور الخلاص. وكما قال أحد علماء اللاهوت بحق: «إن الوجود الجسماني هو غاية طرق الله».

لقد عُرف هذا دائماً عند الفنانين المصورين والنحاتين المبدعين. إن صورة عظيمة أو تمثالاً عظيماً هو توقع بالأرض الجديدة، إنه كشف لسر الطبيعة. إن الصورة أو التمثال هو نبات أو حجر تحول إلى حامل للمعنى الروحي. إنهِ الطبيعة وقد ارتفعت على ذاتها، وهي تكشف مأساتها وفي الوقت نفسه تكشف انتصارها على مأساتها. إن صورة يسوع والحواريين والقديسين طوال قرون الفن المسيحي ـ لوْناً وحجراً ـ تصور الناس الذين تكتشف فيهم الإنسانية قوتها وكرامتها ـ التعبير الذي لا يمكن مقارنته عن الشخصية في وجه حتى أبسط فرد تكشف أن الروح تصبح جسماً وأن الطبيعة ليست غريبة عن الشخصية. إن نظام الخلايا والوظائف الذي نسميه (جسماً) قادر على التعبير عن أجمل تغير في وجودنا الروحي. كثيراً ما فهم الفنانون الدلالة الخالدة للطبيعة حتى عندما أكد علماء اللاهوت النزعة الروحية غير الجسدية، وقد نسوا أن أول شيء كشف به يسوع رسالته المسيحية هو قدرته على مداواة المرضى جسدياً وعقلياً.

ودعوني أسألكم سؤالاً: هل لا زلنا قادرين على فهم ما يعنيه السر المقدس؟ وكلما اغتربنا عن الطبيعة قلت قدرتنا على الإجابة عن السؤال إيجابياً. وهذا هو السبب الذي به فقدت في عصرنا أسرارنا المقدسة كثيراً من دلالتها بالنسبة للأفراد والكنائس. ففي الأسرار المقدسة تشارك الطبيعة في سيرورة الخلاص. الخبز والنبيذ من الماء والنور، وكل عناصر الطبيعة العظيمة تصبح حاملة المعنى الروحي والقوة المخلصة. إن القوى الطبيعية والروحية تتحد ـ تعاد وحدتها ـ في السر المقدس. إن الكلمة تروق لعقلنا وهي تحرّك إرادتنا. إن السر المقدس إذا ما كان معناه حياً يستولي على لا شعورنا وكذلك وجودنا الواعي. إنه يستولي على الأساس الخلاق لوجودنا. إنه رمز الطبيعة والروح وقد اتحدا في الخلاص.

لهذا، اتحدوا مع الطبيعة! تصالحوا مع الطبيعة بعد غربتكم عنها. انصتوا إلى الطبيعة في هدوء وسوف تجدون قلبها. إنها سوف تردد عظمة أساسها الالهي. إنها سوف تتنهّد معنا في رباط المأساة. إنها سوف تتكلم عن الأمل الذي لا يمكن تدميره من أجل الخلاص.

(10)

تجربة المُقدّس

«في سنة وفاة عُزَيّا الملكِ رأيتُ السيِّدَ جالساً على كرسيٍّ عالٍ ومرتفع وأذيالُهُ تملأ الهيكل. السَّرافيمُ(*) واقفون فوقه لكلِ واحد ستة أجنحة. باثنين يُغطي وجهه وباثنين يغطي رجليه وباثنين يطير. وهذا نادى ذاك وقال قُدُّوسٌ قدّوسٌ قدّوسٌ ربُّ الجنود مَجْدُه ملءُ كلِ الأرض. فاهتزَّتْ أساساتُ العَتَبِ من صوتِ الصارخ وامتلأ البيت دخاناً. فقلْتُ ويْلٌ لي إنِّي هلكْتُ لأنِّي إنسان نَجِسُ الشفتيْن وأنا ساكنٌ بين شعْبٍ نجس الشفتين لأنَّ عينيَّ قد رأتا الملكَ ربَّ الجنود. فطار إليَّ واحدٌ من السرافيم وبيده جمرةٌ قد أخذها بملقَطٍ من على المذْبَحِ ومسَّ بها فمي وقال إنَّ هذه قد مسَّتْ شفتيْكَ فانْتُزِعَ إثْمُكَ وكفِّر عن خطيئتكَ. ثم سمعْتُ صوت السيد قائلاً مَنْ أُرْسِلُ ومَنْ يذهب من أجلنا. فقلْتُ هأنذا أرْسِلْني. فقال اذهب وقُلْ لهذا الشعب اسمعوا سمْعاً ولا تفهموا وأبصروا إبصاراً ولا تَعْرِفُوا. غَلِّظ قلْبَ هذا الشعب وثَقِّلْ أذنيه واطْمُسْ عينيه لئلا يُبْصرَ بعينيه ويسمعَ بأذنيه ويَفْهَمَ بقلبه ويرجِع فيُشْفَى. فقلْتُ إلى متى أيها السيد. فقال إلى أن تصير المدنُ خربةً بلا ساكنٍ والبيوت بلا إنسان وتَخْرُبَ الأرضُ وتُقْفر. ويُبْعِدُ الرب الإنسان ويكْثُرُ الخَرابُ في وسط الأرض. وإنْ بقي فيها عُشْرٌ بعْدُ فيعود ويصيرُ للخراب ولكن كالبُطْمةِ والبلّوطة التي وإن قُطِعَتْ لها ساقٌ يكون ساقُهُ زَرْعاً مقدّساً».

(إشعياء: 6)

هذا الإصحاح هو إصحاح من أعظمها في العهد القديم. وواضح أنه

(*) أحد ملائكة الطبقة الأولى الحارسين عرش الله في المعتقد اليهودي (المترجم).

يكشف جوهر الديانة الانجيلية. إن النبي يصف رؤية رسالته بكلمات وصور تعبر في الوقت نفسه عن تجربتِهِ الأساسية بالنسبة لله وتفسيره للوجود الإنساني وتصوره لمهمة النبي. إن تجربته بالنسبة لله هي تجربة بالنسبة لقدسية الله. وهو يفسر وضع الانسان على أنه وضع النجاسة وعدم القدرة على مواجهة الله. ومهمة النبي مليئة بالتناقض الظاهري وهي موجهة ضد المعنى الطبيعي للنبوة. هذه الأفكار الثلاثة تترابط وتضم على وجه الاحتمال أقصى تعبير طُرح عن الروح النبوئية.

إن النبي لا يصف الله نفسه بأي حال من الأحوال. إنه يتحدث فحسب عن الحاشية التي تملأ المعبد وعن الملائكة الذين يحيطون بعرش الرب وزعزعة الأساسات والدخان الذي يملأ البيت. وهو بهذه الطريقة يقول إن وحي الله هو في الوقت نفسه حجاب الله. إن الله لا يريد أن يكشف نفسه إلاّ من خلال أن يظل محتجباً. لكن الوحي المحتجب يجعل إشعياء يشعر بأنه يهلك. إن وجه الله حتى لو كان هناك مجرد اقتراب من مجاله حتى لو ظل الله نفسه خفياً يعني فناء الإنسان.

الشعور نفسه ثم التعبير عنه في صحبة السّرافيم (قُدّوس) وهذا له معنى مزدوج كما يتضح من النص. إنّه يعني العظمة التي يمتلئ بها العالم؛ وهو يعني أيضاً الطهارة ضد النجاسة الإنسانية. العظمة بدون الطهارة هو طابع كل الآلهة الوثنية. والطهارة بدون عظمة هو طابع كل الأفكار الانسانية عن الله. لقد حولت النزعة الإنسانية تعذر الوصول إلى الله إلى التسامي بوصاياه الخلقية. لقد نسيت الانسانية أن عظمة الله كما عاشها النبي تتضمن زعزعة الأساس حيثما يظهر وحجاب الدخان حيثما يُظهر نفسه. عندما يتوحد الله بعنصر في الطبيعة الانسانية كما في النزعة الانسانية تصبح المواجهة المرعبة والمدمرة مع العظمة مستحيلة. غير أن (القدوس) يعني أيضاً الكمال الخلقي والطهارة والخيرية والحقيقة والعدالة. إن عظمة الله لا تستطيع أن تملأ العالم كله إلا لأنه مقدس بهذا المعنى المزدوج. إن عظمة الآلهة غير المقدسين بهذا المعنى المزدوج لا يمكن أن تنجز إلا بلداً واحداً أو أسرة واحدة أو قبيلة واحدة، أمة أو دولة أو مجالاً واحداً للحياة الإنسانية وبالتالي فإنّ هذه الآلهة لا تملك الحقيقة والعدالة والطهارة التي لله الذي هو الإله حقاً. . إنهم شياطين

تأمل في القداسة لكنهم مطرودون منها لأن عظمتهم هي جلالة بدون طهارة. لهذا دعونا نقل هنا بصفة خاصة «أنتَ وحدك المقدس!».

إن النبي يعترف بأنه إنسان ذو شفاه غير نظيفة، وأنه يعيش وسط أناس شفاههم نجسة. وهو يؤكد شفتيه لأن عمله هو الوعظ؛ لكن نجاسة شفتيه ترمز إلى نجاسة وجوده الكلي ووجود الأفراد والمجتمع ككل. إن أشعياء يعرض بصيرة عميقة عندما يوحد نفسه مع شعبه النجس في اللحظة نفسها التي يكون فيها جديراً برؤيته الفريدة. إن الفارق بين الدين الصوفي والدين النبوئي يكمن في هذه البصيرة. فحتى في أعظم وجْد وجذب لا ينسى النبي الجماعة الاجتماعية التي ينتمي إليها وطابعها النجس الذي لا يستطيع أن يفتقده وبالتالي فإنّ الوجد النبوي مقابل الوجد الصوفي ليس على الإطلاق غاية في ذاتها بل بالأحرى وسيلة لتلقي الأوامر الالهية التي يعظ بها الناس. إن رؤية إشعياء تكشف الحالين للوجود النبوي. إن شفتي النبي يجب في البداية أن تتطهرا بالنار. وحينئذٍ يستطيع أن يسمع صوت الله وهو شرط إرسال الله له نبياً. ما من إنسان يستطيع أن يكون نبياً من خلال قوته، وما من إنسان يستطيع أن يغفر لنفسه. إن قوة القداسة الالهية وحدها وقد مسّت وجودنا هي التي يمكن أن تُقَرِّبنا من الله. إنَّ شيئاً ما من وجودنا: الخطيئة أو الجور أو النجاسة يجب أن يحترق، يجب أن يفنى. ومن خلال هذا الفناء وحده يمكن لله أن يتحدث إلينا من خلالنا. ولكن حيثما أو وقتما يتكلم الله إلينا لا يتوقف بالمرة علينا بأي حال من الأحوال. إن إشعياء لا يطرح الرؤية أو الطهارة. لقد تملكه الرعب والرهبة. وكان عليه أن يسلك. لقد سأل الله: «من الذي سوف يأتي إلينا؟» والله ينتظر الجواب. إنه لا يفرض الأمر. إن قرار إشعياء بالذهاب يجب أن يكونَ حراً. إن حرية القرار هي الشرط الثاني للوجود النبوي. إن النبي عليه أن يقرر ما إذا كان سيكرس نفسه أم لا للرسالة. وبالنسبة لقدرنا ورسالتنا نحن أحرار؛ وبالنسبة للعلاقة مع الله نحن بلا قوة. وعظمة الله تتجلى في كلا الحالين.

ثم يصف النبي محتوى الأمر الالهي: «غَلِّظْ قلْبَ هذا الشعب وثَقِّلْ أذنيه واطْمُسْ عينيه». إن مشاعرنا الخلقية الطبيعية ترفض تقبل مثل هذا التناقض الظاهري. لأننا إذا تكلمنا فنحن نرغب في أن نجعل أنفسنا مسموعين؛ وعندما

نعظ فنحن نرغب في أن نهدي وأن نداوي. غير أن النبي يتقبل الأمر الالهي. وعندما ترغمه مشاعره الطبيعية على أن يسأل: «إلى متى؟» يتلقى الجواب «إلى أن تصير المدن خربةً بلا ساكنٍ والبيوت بلا إنسانٍ، وتَخْرُبَ الأرض وتُقْفِر!» ما من أمل أو وعد يتم التعبير عنه. فما هو معنى هذا التناقض الظاهري؟ إنه يعني أن الأنبياء الحقيقيين هم أدوات الله لتحقيق حكمه ضد البشرية. إنهم أدوات طالما أن الكلمة النبوية تثير دائماً معارضة الإنسان بالنسبة لوجوده الحيوي وبالنسبة لوجوده الخلقي والديني ـ وفي الحقيقة بصفة خاصة بالنسبة لوجوده الديني. إن الناس جميعاً يرغبون في الأنبياء الكذبة الذين وهم يمجدون آلهتهم يمجدون أتباعهم وأنفسهم. إن الناس يحنّون إلى التملق بالنسبة لرغباتهم وفضائلهم ومشاعرهم الدينية ونشاطهم الاجتماعي ورغبتهم في القوة والآمال الخيالية ومعرفتهم وحبهم وأسرتهم وجنسهم وطبقتهم وأمتهم. والنبي الكذاب دائماً يوجد ليمجد الشيطان الذي يعبدونه. ولكن عندما يرتفع صوت النبي الصادق فإنهم يصمون آذانهم ويناقضون أقواله ويضطهدونه اضطهاداً شديداً ويقتلونه لأنهم غير قادرين على تلقي رسالته. ويستمر الأمر حتى تتحقق كلمات النبي فتدمر المدن وتصبح الأرض خربة.

إننا مشتاقون للروح النبوية. إننا شغوفون بقيادة الناس إلى عدالة جديدة وإلى نظام اجتماعي أفضل. إننا مشتاقون لإنقاذ الأمم من مصير مهدد. فهل لكلمتنا (نحن) إذا كانت هي كلمة الله تأثير أفضل عما رآه إشعياء في رؤيته وعاشه في حياته؟ هل نحن أكثر مما كان هو؟ هل شعبنا اليوم أقل عبادة للشياطين عما كان عليه شعبه؟ إذا كان الجواب بالسلب فهل يمكن أن تتقبّل شيئاً غير ما قيل له من أن يتوقعه من خلال رؤيته؟ يجب أن نصلي للروح النبوية التي ماتت من زمن طويل في الكنائس. ومن يشعر أنه قد مُنح المهمة النبوية يجب أن يحققها كما حققها إشعياء. يجب أن يبشر برسالة عدالة جديدة ونظام اجتماعي جديد باسم الرب وباسم عزته.

ولكن يجب أن يتوقع أن يواجه بالمعارضة ويلقى اضطهاداً لا من أعدائه فحسب بل أيضاً من أصدقائه وحزبه وطبقته وأمته. يجب أن يتوقع اضطهاداً للدرجة التي تكون فيها كلمته هي كلمة ذلك الله الذي وحده هو قدوس، ذلك الله الذي هو وحده قادر على خلق شعب مقدس من بقايا كل أمة.

(11)

نير الدين

«في ذلك الوقت أجاب يسوع وقال أحمدُكَ أيها الأب ربُّ السماء والأرض لأنَّك أخفيْتَ هذه عن الحكماء والفهماء وأعلنْتَها للأطفال. نعم أيها الأب لأنْ هكذا صارت المَسَرَّةُ أمامك. كلُّ شيء قد دُفِعَ إليَّ من أبي. وليس يعرف الابن إلا الأب. ولا أحد يعرف الأبَ إلا الابنُ ومن أراد الابنُ أن يُعْلِنَ له. تعالوا إليَّ يا جميع المُتْعَبِين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم. إحملوا نِيرِي عليكم وتعلَّموا منّي. لأني وديع ومتواضع القلب. فتجدوا راحةً لنفوسكم. لأنَّ نيري هيِّن وحملي خفيف».

(إنجيل متى 11: 25 ـ 30)

عندما شببت عن الطوق لتلقي العماد والعضوية الكاملة في الكنيسة طُلب مني أن أختار فقرة من الكتاب المقدس كتعبير عن نظرتي الشخصية للرسالة الإنجيلية والكنيسة المسيحية. وكان كل من يتلقى العماد مضطراً إلى أن يفعل هذا وأن يتلو الفقرة أمام الكرادلة. وعندما اخترت الكلمات «تعالوا إليَّ يا جميع المُتْعبين والثقيلي الأحمال» سئلت بنوع من الدهشة بل حتى الحسد لماذا اخترت تلك الفقرة بالذات. لقد كنت أعيش في ظل ظروف سعيدة، وكنت لم أتجاوز بعد الخامسة عشرة من عمري ولهذا لم أكن مُتْعباً وما كان حملي ثقيلاً. لم أتمكن من الإجابة آنذاك؛ لقد شعرت بشيء من الحيرة لكن كنت أساساً على حق. ولقد كنت على حق حقاً؛ فكل طفل هو على حق في الاستجابة مباشرة لتلك الكلمات؛ إن كل يافع هو على حق في الاستجابة لها في كل فترات حياته وفي ظل كل الظروف الخاصة بتاريخه الداخلي والخارجي. إن كلمات يسوع هذه كلية وهي تلائم كل إنسان وكل وضع

إنساني. هذه الكلمات بسيطة؛ وهي تستحوذ على اقلب البدائي وقلب من له عقل حكيم عميق ومثير للقلق. ومن الناحية العملية فإن كل كلمة من كلمات يسوع لها هذا الطابع وهي تشارك في الاختلاف بينه باعتباره الأصل والمفسرين المستقلين والحواريين والقديسين والمبشرين. فإذا عدت إلى المرة الأولى في حياتي إلى فقرة اختياري المبكر فإنني أشعر بأنها استولت عليّ كما حدث في ذلك الوقت وإن كانت مثيرة أكثر للحيرة بسبب ما فيها من جلال وعمق ومعنى لا يُسْتَنْفَد. وإنَّ مهمتنا في وجه كلمات من هذا النوع واضحة: يجب أن نشير إلى أساس قوتها على نفوسنا؛ يجب أن نشرح لماذا ترد قوة حقيقة قصوى داخل القوة العاطفية للكلمات؛ ويجب أن نحاول أن نصور وضْعَنا الانساني في ضوئها.

تُثار ثلاثة أسئلة من كلمات يسوع والأجوبة المتضمنة في كلماته سيتم تفسيرها. ما هو العمل والعبء اللذان نستطيع أن نجد راحة منهما من خلاله؟ ما هو النير السهل والثقل الخفيف اللذان سنضعهما على عاتقنا؟ لماذا هو وهو وحده القادر على أن يعطينا مثل هذه الراحة لنفوسنا؟

«يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال...»: إن هذا القول موجه لكل الناس وإن كان ليس كل الناس يشعرون به بالطريقة نفسها. إن الأمر أمر وضع إنساني عام ثقيل حمله وكله عمل دون كَلَل تحت نير يصعب تحمّله. فأي حمل هذا؟ إننا قد نعتقد أولاً أنه أعباء وأعمال الحياة اليومية الملقاة على عاتقنا. لكن ليس هذا هو الوارد في النص. إن يسوع لا يحكي لنا أنه سوف يخفف الأعمال وأحمال الحياة والجهد. فكيف يمكن له هذا لو أراد؟ سواء جئنا إليه أم لم نجيء لن تتناقص تهديدات المرض أو البطالة، وثقل عملنا لن يصبح أسهل ولن يتغير مصير أن نصبح لاجئين مطرودين من بلد إلى آخر؛ ولن تتوقف أشكال الرعب من الدمار والجروح والموت الذي ينزل من السماء؛ ولن يتم قهر الأسى لرحيل الأصدقاء أو الآباء أو الأطفال. ويسوع لا يستطيع أن يعد ولا يعد بمزيد من اللذة وبتقليل الألم لأولئك الذين يطلب منهم أن يجيئوا. بل بالعكس أحياناً ما يعدهم بمزيد من الألم ومزيد من الاضطهاد ومزيد من التهديد بالموت ـ أي (الصلْب) كما يسمى الأمر. كل هذا ليس هو الحِمْل الذي يشير إليه.

كما أن الأمر ليس عبء الخطيئة والإثم على نحو ما يذهب بعض المتعلمين في التفسير المسيحي التقليدي لعمل المسيح. لا نجد شيئاً من هذا في كلمات يسوع. أن يأخذ الانسان نيره على عاتقه لا يعني أن يأخذ الخطيئة أخذاً أسهل أو أن يأخذ الإثم أخذاً أقل جدية. إنه لا يقول لأولئك الذين يأتون إليه أن آثامهم ليست هامة كما تبدو. إنه لا يعطيهم ضميراً أسهل عن أشكال فشلهم وخطاياهم بل بالعكس، إنه يزيد من حدة ضميرهم إلى أقصى درجة ممكنة من الناحية العملية في كل كلمة من كلماته. إنه يدين الخطايا التي لم يعتبرها لاهوتيو عصره التقليديون حتى خطايا. ليس هذا هو الحِمْل الذي يشير إليه.

إن الحِمْل الذي يريد أن يأخذه منا هو حِمْل الدين. إنه نير الناموس المفروض على شعب عصره من المدرسين الدينيين والحكماء والفاهمين كما يسميهم في كلماته أي الكتبة والفريسيين(*) كما يُسَمّون عادة. إن من يكدّون وفوقهم حمل ثقيل هم الذين يئنون تحت نير الناموس الديني. وهو سوف يعطيهم قوة قهر الدين والناموس؛ إن النير الذي يعطيه إياهم هو (وجود جديد) فوق الدين. إنّ الشيء الذي سوف يتعلمونه منه هو الانتصار على ناموس الحكيم والفاهم وناموس الكتبة والفريسيين.

فكيف يهمنا هذا؟ لماذا يهم هذا كل الناس وفي كل الأحوال؟ إنه يهمنا لأننا مع كل البشر نئن تحت ثقل الناموس، تحت ناموس هو دين ودين هو ناموس. هذا هو عمق كلمات يسوع؛ هذه هي الحقيقة المتضمنة في القوة الانفعالية لكلماته. إن الانسان يعمل ويكدّ لأنه ذلك المخلوق الذي يعلم تناهيه والطابع المأساوي لوجوده. إن الخوف والقلق هما إرث كل الشعوب كما عرف بولس عندما نظر إلى اليهود والوثنيين. وعدم الراحة يسوق الانسان إبّان كل حياته كما عرف أوغسطين. إن هناك عنصراً خفياً لليأس قائم في نفس كل إنسان كما اكتشف البروتستنتي العظيم الدينماركي كيركجور. ولا توجد عبقرية دينية أو مراقب جديد للهاوية في النفس الإنسانية، ولا يوجد أي إنسان قادر على الانصات إلى الأصوات في قلبه إلاّ ويشهد هذه البصيرة في الطبيعة

(*) هم معتنقو الطقوس والتقوى الكاذبة من اليهود المعاصرين للمسيح (المترجم).

الإنسانية والوجود الإنساني. إن الانقسامات والفجوات قائمة في كل نفس.. وعلى سبيل المثال إننا نعرف أننا أكثر من مجرد تراب؛ ومع هذا نعرف أن مصيرنا هو إلى التراب. إننا نعرف أننا نمت إلى نظام أعلى من نظام احتياجاتنا ورغباتنا الحيوانية؛ ومع هذا نحن نعرف أننا سنسيء استخدام النظام الأعلى لصالح طبيعتنا الدنيا. إننا نعرف أننا لسنا سوى أعضاء صغار في العالم الروحي؛ ومع هذا نعرف أننا سوف نتوق إلى الكل جاعلين نفوسنا مركز العالم.

هذا هو الإنسان؛ ولأن هذا هو الانسان يوجد دين وناموس. إن ناموس الدين هو المحاولة الكبرى للإنسان لقهر قلقه وغدم راحته ويأسه ورأب الصدع داخل نفسه وللوصول إلى الخلود والروحية والكمال. ومن ثم فإنه يعمل ويكد تحت ثقل الناموس الديني في الفكر والعمل.

إن الناموس الديني يقتضي أن يتقبل أفكاراً وعقائد وأن يؤمن بالمذاهب والتقاليد وتقبّل هذا هو شرط خلاصه من القلق واليأس والموت. ومن هنا فإنه يحاول أن يتقبلها رغم أنها قد تصبح بالنسبة له غريبة أو مدعاة للشك. إنه يعمل ويكد تحت وطأة المطلب الديني ليؤمن بأشياء لا يستطيع أن يؤمن بها. وأخيراً فإنه يحاول أن يهرب من ناموس الدين. إنه يحاول أن يلقي النير الثقيل، نير الناموس العقائدي الذي تفرضه عليه السلطات الكنسية والمدرسون الأورثوذكس والآباء الورعون والتقاليد الثابتة. وهو يصبح ناقداً وشكاكاً. إنه يقذف النير؛ لكن ما من إنسان يستطيع أن يحيا في فراغ مجرد الشكية، ومن ثمّ يعود إلى النير القديم على شكل تعصب معذب للنفس ويحاول أن يفرض هذا على الآخرين، أو على أطفاله أو تلامذته. إنه مدفوع برغبة لاشعورية للانتقام بسبب حمل أخذه على نفسه. وهناك كثير من الأسَر تتمزق بمأساة مؤلمة وهناك عديد من العقول تتحطم من جراء هذا الموقف من جانب الآباء والمدرسين والكهنة. وهناك آخرون لا يستطيعون أن يتحملوا فراغ النزعة الشكية فيجدون نيراً جديداً خارج الكنيسة ونواميس عقائدية جديدة يبدأون في الكدح تحت وطأتها: أيديولوجيات سياسية يمزجونها بالتعصب الديني؛ ونظريات علمية يدافعون عنها مع العقيدة الدينية القطعية؛ وتوقعات خيالية يعلنون أنها شرط الخلاص للعالم وهم يرغمون الأمم كلها ويضعونها تحت نير

عقائدهم التي هي ديانات حتى وهم يتظاهرون بأنهم يدمرون الدين. إننا جميعاً نعمل تحت نير الدين؛ ونحن جميعاً نحاول أحياناً أن نطرح وننبذ عقائد قديمة أو جديدة، ولكن بعد فترة نرتد ثانية ونُكَبِّل أنفسنا وغيرنا في أصفادها.

ويصدق الأمر نفسه على نواميس الدين العملية. إنها تقتضي أوجه نشاط شعائرية والمشاركة في المشروعات الدينية ودراسة التراث الديني والصلوات والتأملات. وهي تقتضي طاعة خلقية وتحكماً غير إنساني للذات وزهداً وتجرداً للإنسان والأشياء على نحو مفارق لامكاناتنا والاستسلام لأفكار وواجبات تتجاوز قدرتنا ونكراننا للذات غير محدود وكمالاً ذاتياً غير محدود: إن الناموس الديني يقتضي الكمال في جميع المجالات. وإن ضميرنا ليتفق مع هذا الاقتضاء. لكن الانقسام في وجودنا مستمد من هذا عينه.. إن الكمال رغم أنه الحقيقة يتجاوزنا وضدنا ويحكم علينا ويديننا. ولهذا فنحن نحاول أن نطرح المطالب الشعائرية والخلقية. إننا نهملها ونكرهها، وننقدها؛ وبعضنا يبدي عدم اكتراث غير مبال تجاه الناموس الديني والخلقي. ولما كانت هذه اللامبالاة مستحيلة مثل استحالة النزعة الشكية في حد ذاتها فإننا نرتد إلى النواميس القديمة أو الجديدة ونصبح أكثر تعصباً عن ذي قبل ونأخذ نير الناموس على عاتقنا وهو أكثر تحدياً وأكثر قسوة ضد أنفسنا وأكثر رغبة في إرغام الآخرين تحت النير نفسه باسم الكمال. ويصبح يسوع نفسه بالنسبة لأصحاب النزعة الكمالية هؤلاء والمتطهرين والأخلاقيين مدرساً للناموس الديني الذي يضع علينا أثقل الأحمال ألا وهو حمل ناموسه (هو). ومثل هذا التشويه يمكن أن نجده في عقول أولئك الذين صلبوه لأنه حطم الناموس الديني لا بالهرب منه مثل الصُدوقيين(*) المتشائمين بل بقهره. إننا جميعاً معرضون دائماً إلى استخدام يسوع استخداماً سيئاً بأن نقرر أنه هو مؤسس دين جديد وحامل ناموس آخر أكثر رفاهة وأكثر عبودية. ولهذا نرى في كل الكنائس المسيحية كدح وعمل الناس الذين يسمون مسيحيين، مسيحيين جادين، في ظل نواميس عديدة لا حصر لها لا يستطيعون أن يحققوها والتي منها يهربون والتي إليها يعودون أو التي يحلّون محلها نواميس أخرى. هذا هو

(*) طائفة من اليهود لا تؤمن بالبعث والملائكة (المترجم).

النير الذي يريد لنا يسوع أن نتحرر منه. إنه أكثر من مجرد كاهن أو نبي أو عبقرية دينية. كل هؤلاء يخضعوننا للدين، أما هو فإنه يحررنا من الدين. كلهم يصنعون نواميس دينية جديدة؛ أما هو فإنه يقهر الناموس الديني.

«احملوا نيري عليكم وتعلّموا مني. . . لأن نيري هين وخفيف». إن هذا لا يدل على فارق كمّي ـ أكثر سهولة وأكثر خفة. إنه يدل على تناقض! إن نير يسوع سهل في ذاته لأنه فوق الناموس، وهو يضع الكدح والعمل مع الراحة في نفوسنا. إن نير الدين والناموس يفترض كل هذه الانقسامات والفجوات في نفوسنا التي تدفعنا إلى محاولة قهرها. إن نير يسوع فوق تلك الانقسامات والفجوات. لقد تغلب عليها وقتما تظهر ووقتما نتلقاها. إنه ليس مطلباً جديداً أو عقيدة جديدة أو أخلاقاً جديدة، بل بالأحرى حقيقة جديدة، وجوداً جديداً، وقوة جديدة لتبديل الحياة. إنه يسمي هذا نيراً وهو يعني أنه يأتي من فوق ويستحوذ علينا بقوة مُخَلِّصة؛ وإذا كان يسميه سهلاً فإنه يعني أنه ليس من فعلنا ومسعانا بل هو بالأحرى قد أُعْطِي لنا قبل أي شيء نستطيع أن نفعله. إنه وجود، قوة، حقيقة، وهو يقهر القلق واليأس، الخوف وزعزعة وجودنا. إنه هنا وسطنا ووسط مأساتنا الشخصية ومأساة التاريخ. وفجأة، وسط أشق نضال يبدو كانتصار، لا نحصل عليه بأنفسنا، بل يمثل فيما هو وراء التوقع والنضال. فجأة يتولاّنا سلام فوق العقل أي فوق مسعانا النظري من أجل الحق، وفوق مسعانا العملي من أجل الخير. إن الحق ـ ألا وهو حقيقة حياتنا ووجودنا ـ قد تملّكنا. إننا نعرف أننا (الآن)، في هذه اللحظة، إننا في الحقيقة، بالرغم من جهلنا بأنفسنا وعالمنا. إننا لم نصبح أكثر حكمة وأكثر فهماً بأي معنى عادي؛ إننا لا نزال أطفالاً في المعرفة. لكن حقيقة الحياة فينا، بيقين رائع، توحدنا مع أنفسنا وتعطينا سعادة عظيمة ومريحة. والخير، الخير الأقصى، الذي ليس خيراً لشيء عداه؛ بل هو خير في ذاته، قد تملكنا. إننا نعرف أننا الآن، في هذه اللحظة، إننا في الخير، بالرغم من كل ضعفنا وشرّنا، بالرغم من الطابع المتجزئ والمشوه لنفسنا والعالم. إننا لم نصبح أخلاقيين أكثر وقديسين أكبر؛ إننا لا نزال نمت إلى عالم خاضع للشر والدمار الذاتي. لكن خير الحياة هو فينا، يُوحّدنا مع خير كل شيء، ويعطينا التجربة المباركة بالحب الكلي الشامل. فإذا كان لا بد أن يحدث هذا ويمثل

هذا المعيار. فإننا يجب أن نصل إلى خلودنا والنظام الأعلى والعالم الروحي الذي ننتمي إليه والذي انفصلنا عنه في وجودنا العادي. يجب أن نتجاوز أنفسنا. إن الوجود الجديد يقهرنا وإن كان الوجود القديم لم يختف.

فأين يمكن أن نشعر بهذا الواقع الجديد؟ إننا لا نستطيع أن نجده؛ لكنه هو الذي يستطيع أن يجدنا. إنه يحاول أن يجدنا إبان حياتنا كلها. إنه في العالم؛ إنه يحمل العالم؛ وهو علة لحقيقة أن نفسنا وعالمنا لم يُقْذف بهما بعد إلى الدمار الذاتي. ورغم أنه خفي تحت القلق واليأس، تحت التناهي والمأساة، فإنه في كل شيء، في النفوس والأجسام، لأن كل شيء يستمد الحياة منه. إن الوجود الجديد يعني أن الوجود القديم لم يُدَمِّر نفسه بَعْد تماماً؛ وأن الحياة لا تزال ممكنة؛ وأن نفوسنا لا تزال تُجَمِّع القوة لتستمر قُدُماً؛ وأن الخيِّر والحقيقي لم يتلاشيا. إنه حاضر وهو سوف يجدنا. دعونا نتح له الفرصة لكي يجدنا. . إنه أقوى من العالم رغم أنه هادئ وخانع ومتواضع.

هذا هو معنى نداء يسوع: «تعالوا إليَّ» ففيه هو يَمْثُل هذا الوجود الجديد على نحو يحدد حياته هو. إن ما هو خفي في كل الأشياء، وما يبدو لنا أحياناً في الارتفاع العظيم لنفوسنا، هو القوة المشكلة لهذه الحياة. إنه تفرد وسر وجود يسوع، إنه التجسد والمظهر الكامل للوجود الجديد. وهذا هو السبب الذي يجعله يستطيع أن يقول كلمات لم يقلها أي نبي أو قديس من قبل: ما من إنسان يعرف الله سواه أي يسوع ومن يتلقون معرفتهم من خلاله. وهذه الكلمات من المؤكد أنها لا تعني أنه يفرض لاهوتاً جديداً أو ناموساً دينياً جديداً علينا. إنه بالأحرى يعني أنه هو الوجود الجديد الذي يستطيع أن يشارك فيه كل إنسان لأنه شامل ووجوده وجود كلي. لماذا قال عن نفسه انه خانع ومتواضع في القلب بعد أن تحدث بكلمات عن تفرده، وهي كلمات كانت ستكون في أي فهم آخر غطرسة كلها كُفر؟ لأن الوجود الجديد الذي يشكله ليس هو الذي يخلقه؛ إنه مخلوق به. لقد وجده وهو لا بد أن يجده. ولما كان وجوده ليس نتيجة مسعاه وعمله، ولما كان ليس عبداً للناموس الديني بل بالأحرى هو الانتصار على الدين والناموس الذي يشكل تفرده، فإنه لا يفرض الدين والناموس ولا الأثقال والنير على الإنسان. لقد كنا سنرفض دعوته

وبكراهية إذا دعانا إلى الدين المسيحي أو إلى العقائد المسيحية أو إلى الأخلاق المسيحية. إننا ما كنا نقبل مطلبه بأن يكون خانعاً ومتواضعاً وأن يريح نفوسنا إذا أعطانا أوامر جديدة للفكر والعمل. إن المسيح ليس خالق دين جديد، بل هو المنتصر على الدين؛ إنه ليس صانع ناموس آخر بل هو قاهر الناموس. ونحن كهنة المسيحية ومدرسيها لا ندعوكم إلى المسيحية بل بالأحرى ندعوكم إلى الوجود الجديد الذي يجب أن تكون المسيحية شاهدة عليه وليس شيئاً آخر دون أن تخلط نفسها بذلك الوجود الجديد. إنسوا كل العقائد المسيحية؛ إنسوا حتى اليقينيات الخاصة وكل شكوككم الخاصة عندما تسمعون دعوة يسوع. إنسوا كل الأخلاق المسيحية وانسوا كل انجازاتكم وكل أشكال فشلكم عندما تأتون إليه. ما مِنْ شيء مطلوب منكم ـ لا فكرة عن الله ولا خيراً في أنفسكم ولا أن تكونوا متدينين، ولا أن تكونوا مسيحيين، ولا أن تكونوا حكماء، ولا أن تكونوا أخلاقيين. لكن المطلوب هو فحسب أن تكونوا منفتحين وأن تكونوا راغبين في أن تتلقوا ما هو مُعْطَى لكم، الوجود الجديد، وجود الحب والعدالة والحقيقة، كما هو متجل فيه الذي نيره سهل والذي حمله خفيف.

ودعوني أختار ـ كما بدأت ـ كلمة شخصية. صدّقوني يا من أنتم متدينون ومسيحيون. إن الأمر لن يكون مما يستحق تعليم المسيحية إذا كان الأمر من أجل المسيحية. وصدّقوني يا مَنْ أنتم مغتربون عن الدين وبعيدون عن المسيحية ليس غرضنا أن نحولكم متدينين ومسيحيين ونحن نفسر دعوة يسوع لزماننا. إننا نسمي يسوع المسيح لا لأنه قد حمل ديناً جديداً بل لأنه نهاية الدين؛ انه فوق الدين واللادين، فوق المسيحية واللامسيحية ونحن ننشر دعوته لأنها دعوة لكل إنسان من كل عصر أن يتلقى الوجود الجديد، تلك القوة المُخَلِّصة الخفية في وجودنا التي تأخذ العمل والحِمْل وتعطي راحة لنفوسنا.

ولا تسألوا في هذه اللحظة ماذا سنفعل أو أي سلوك سنتبعه من الوجود الجديد، من الراحة التي في نفوسنا. لا تسألوا؛ لأنكم لا تسألون كيف تأتي الثمار الطيبة من طيبة الشجرة. إنها تتتالى؛ الفعل يتبع الوجود، والفعل الجديد، الفعل الأفضل، الفعل الأقوى يتبع الوجود الجديد، الوجود

الأفضل، الوجود الأقوى. إننا وعالمنا سنكون أفضل وأصدق وأعدل. إذا كان هناك مزيد من الراحة للنفوس في عالمنا: إن أعمالنا ستكون أكثر إبداعاً وأكثر قهراً، قهراً لتراجيديا عصرنا إذا انبثقت من مستوى أعمق لحياتنا. لأن عمقنا الخلاق هو العمق الذي نكون فيه هادئين.

(12)

معنى العناية الإلهية

«فإنّي متيقّن أنه لا موتَ ولا حياةَ ولا ملائكة ولا رؤساء ولا قوّاتَ ولا أمورَ حاضرةً ولا مستقبلة، ولا عُلُوَّ ولا عُمْقَ ولا خليقةً أخرى تقدر أن تفصلنا عن محبّة الله التي في المسيح يسوع ربنا».

(رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية 8: 38 ـ 39)

تعبر كلمات بولس المعروفة جيداً عن العقيدة المسيحية بالنسبة للعناية الإلهية. وهذه الكلمات هي أول تفسير بل التفسير الأساسي للكلمات التي تبعث على الاضطراب في انجيل متى حيث يأمرنا يسوع ألا نتفكّر في حياتنا وطعامنا ولباسنا، وحيث يأمرنا أن نبحث أولاً عن مملكة الله، فكل حياتنا اليومية واحتياجاتنا اليومية يعرفها الله. إننا في أمسّ الحاجة لمثل هذا التفسير. فهناك بضعة مواد واردة في العقيدة المسيحية أكثر أهمية للحياة اليومية لكل رجل وامرأة، وهناك كلمات قليلة أخرى معرضة لسوء التفسير والتشويه. ومثل سوء الفهم هذا لا يؤدي بالضرورة إلى تحويل قلوب الناس عن الله فحسب، بل يخلق أيضاً تمرداً ضده، وضد المسيحية، وضد الدين. عندما تحدثت إلى الجنود بين المعارك في الحرب العالمية الثانية أعربوا عن رفضهم للرسالة المسيحية في إطار الهجوم على الايمان بالعناية الإلهية ـ وهو هجوم واضح أنه يستمدّ مرارته من خيبات أمل أساسية. وبعد أن قرأت كلمة كتبها العالم العظيم أينشتين والتي فيها يتحدى الايمان بإله شخصي خلصت إلى أنه لا يوجد فرق بين مشاعره ومشاعر الجنود البسيطة. وبدت فكرة الله مستحيلة لأن واقع عالمنا يبدو متعارضاً للقوة الشاملة القديرة لإله حكيم حق.

ولقد حدث ذات يوم عندما كنت أحاول أن أفسر لجماعة من اللاجئين

المسيحيين واليهود الطابع المتناقض الظاهري لحكم العالم الإلهي في إطار سفر أشياء الثاني أخبرني يهودي ،رز سابق من ألمانيا الغربية بأنّه تلقى برقيات عديدة من جنوب فرنسا تطلعه على القصة المرعبة الخاصة بإجلاء فجائي من ألمانيا لحوالي عشرة آلاف يهودي في سن التسعين أو أكثر ونقلهم إلى معسكرات اعتقال. وقال إن فكرة هذه التعاسة غير المتخيلة تَمْنَعُه من أن يجد معنى في الرسالة القوية الخاصة بالعناية الالهية. فما هو الجواب الذي سنعطيه، ما هو الجواب الذي (نستطيع) أن نعطيه لمثل هذه المشكلة العويصة ـ وهي مشكلة تتبدى فيها المسيحية ككل وقد وُضعت على المحك، وهي مشكلة لا شأن لها بالنقد النظري لفكرة الله، بل هي مشكلة تمثل بالأحرى الكرب الذي يعيشه القلب الانساني والذي لا يعود مستطيعاً تحمل القوة المتولدة من القوى الشيطانية على الأرض؟

لقد تحدّث بولس عن هذه القوى. إنه يعرفها جميعاً. . الرعب من الموت والقلق من الحياة؛ الامكانية التي لا يمكن مقاومتها للقوى الطبيعية والتاريخية؛ التباس الحاضر وظلام المستقبل الذي لا يمكن تبديده؛ والتقلبات غير المحسوبة للقدر من الأعلى للأسفل ومن الأسفل إلى الأعلى؛ والتدمير الطبيعي للإنسان على يد الانسان. إنه يعرف كل هذا كما هو شأننا اليوم، نحن الذين في عصرنا قد أعدنا اكتشافها، بعد فترة وجيزة بدت فيها العناية الالهية والحقيقة أمراً واقعياً. لكن الأمر لم يكن هكذا بأي حال من الأحوال ولن يكون بأي حال من الأحوال أمراً واقعياً. لقد بدت المسألة بالأحرى مسألة إيمان شديد القوة وشديد التناقض الظاهري وشديد المخاطرة. وليس له معنى وحقيقة الا على هذا النحو.

فما هو محتوى الإيمان؟ من المؤكد أنه ليس وعداً غامضاً بأن كل شيء بمشيئة الله وعونه سينتهي نهاية حسنة؛ فهناك أشياء عديدة تنتهي نهاية سيئة. وليست المسألة أن نتمسك بالأمل في كل موقف؛ فهناك مواقف لا يمكن أن يكون فيها أي أمل. وليست المسألة مسألة توقع لحقبة من التاريخ فيها يتم التدليل على العناية الإلهية بالسعادة والخيرية الانسانيتين؛ ولا يوجد جيل تكون فيه العناية الالهية أقل في التناقض الظاهري عما في جيلنا. غير أن محتوى الايمان بالعناية الالهية هو على النحو التالي: عندما يمطر الموت من السماء

كما هو الحادث الآن، وعندما تولد القسوة قوة فوق الأمم والأفراد كما هو الحادث الآن، وعندما يسوق الجوع والاضطهاد الملايين من مكان إلى مكان كما يحدث الآن، وعندما تشوه السجون والمعتقلات في جميع أنحاء العالم إنسانية الأجسام والنفوس كما تفعل الآن - نستطيع أن تتباهى في ذلك الوقت، وفيه فقط، فإن كل هذا لا يستطيع أن يفصلنا عن محبة الله. وبهذا المعنى، وبهذا المعنى وحده، تعمل الأشياء جميعاً معاً للخير، للخير (الأقصى)، للمحبة الأبدية ومملكة الله. إن الإيمان بالعناية الالهية هو الايمان بأنه ما من شيء يستطيع أن يحول بيننا وبين تحقيق المعنى الأقصى لوجودنا. إن العناية الالهية لا تعني تخطيطاً إلهياً - كل شيء فيه جرى تجديده من ذي قبل شأن الآلة الفعالة. بل إن العناية الالهية تعني بالأحرى أن هناك إمكانية خلاقة ومنقذة واردة في كل موقف لا يمكن لأية حادثة أن تدمرها. إن العناية الالهية تعني أن القوى الشيطانية والمدمرة في نفوسنا وفي عالمنا لا يمكن أن تكون لها اليد العليا القابضة علينا وأن الرابطة التي تربطنا بتحقق الحب لا يمكن أن تنفصم.

إن هذا الحب يبدو لنا يتجسد في «يسوع المسيح سيدنا». إن بولس وهو يضيف هذا لا يستخدم مجرد عبارة كما نفعل غالباً عندما نستخدم الكلمات. إنه يستخدمها بالأحرى بعد أن أشار إلى الشيء الوحيد الذي يستطيع أن يدمر إيماننا بالعناية الإلهية الذي هو عدم إيماننا بمحبة الله وعدم ثقتنا في الله وخوفنا من غضبه وكراهيتنا لحضوره وتصورنا له على أنه طاغية يحكم علينا ويديننا وشعورنا بالإثم والخطيئة. إنه ليس عمق معاناتنا، بل عمق إنفصالنا عن الله هو الذي يدمّر إيماننا بالعناية الالهية. إن العناية الالهية والعفو عن الخطايا ليسا جانبين منفصلين للعقيدة المسيحية؛ إنهما شيء واحد بل هما الشيء نفسه - اليقين بأننا نستطيع أن نبلغ الحياة الخالدة بالرغم من المعاناة والخطيئة. وبولس يربط الكلمتين بقوله.. من ذا الذي يحكم علينا ويديننا؟ إنه يسوع المسيح... الذي يتشفع لنا و(لهذا) فإنه يواصل: «من ذا الذي سيفصلنا عن محبة المسيح؟ هل هي المحنة أو الكرب أو الاضطهاد أو المجاعة أو العري أو الخطر أو الكلمة؟... في كل هذه الأمور نحن أكثر من مجرد قاهرين من خلال ذلك الذي يُحبّنا...» (هذا) هو الإيمان في العناية الالهية، وهذا وحده.

(13)

المعرفة من خلال الحب

«المحبة لا تسقط أبداً. وأما النبوّات فَسَتُبْطَلُ والألسنة فستنتهي والعلم فَسَيُبْطَل. لأننا نعلم بعض العلم ونتنبأ بعض التنبؤ. ولكن متى جاء الكامل فحينئذٍ يبطل ما هو بعض. لما كنت طفلاً كطفلٍ كنت أتكلم وكنت أفْطَنُ وكطفلٍ كنت أفتكر. ولكن لما صِرْتُ رجلاً أبطلتُ ما للطفل. فإننا ننظر الآن في مرآةٍ في لغز لكن حينئذٍ وجهاً لوجه. الآن أعرِفُ بعضَ المعرفة لكن حينئذٍ سأعرِفُ كما عُرِفْت».

(رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس 13: 8 ـ 12)

لقد تحدث بولس في الكلمات الشهيرة من هذا النصّ عن أشياء متفرقة ـ أو كما يجب أن نقول اليوم عن أشياء شتى. إن الأشياء المتناثرة المتفرقة سوف تتبدّد؛ والأشياء الكاملة سوف تبقى. الأولى وقتية والأخيرة أبدية. والأشياء المؤقتة المتناثرة ليست هي مجرد الأشياء المادية؛ فهي بعض من أعظم هدايا الروح الالهية: النبوة التي هي تفسير لزماننا وتاريخنا؛ واللغات التي هي مشاعرنا الوجدانية ونطقنا؛ والمعرفة التي هي فهم وجودنا. حتى تلك الخيرات الروحية سوف تختفي مع كل الخيرات المادية والعقلية. إنها كلها متناثرة ومؤقتة وعابرة. الحب وحده هو الذي لا يختفي؛ إنه يبقى للأبد. وذلك أن الله نفسه محبة كما جاء في إنجيل يوحنا الذي حمل فكر بولس.

ولكنّ هناك اعتباراً آخر في نصّنا يبدو متناقضاً مع الكلمات المتعلقة بالحب. لقد عزل بولس المعرفة وأشار إلى الاختلاف بين معرفتنا المتناثرة وغير المباشرة والمظلمة والمعرفة الكاملة والمباشرة والكلية التي سوف تأتي. ولقد قارن بين التخيلات الطفلية والاستبصارات الناضجة عند البالغين. ولقد

تحدث عن شيء هو ـ بجانب الله ـ كامل وأبديَ ألا وهو رؤية الحقيقة وجهاً لوجه؛ المعرفة الكاملة كمال معرفة الله لنا.

كيف يمكن الربط بين هذين الأمرين؟ فهل نسي بولس أنه في التو قد تحدث عن كمال وخلود الحب وحده؟ كلا، إنه لم ينس؛ فهو قد أنهى هذا الجزء من رسالته بإعادة التأكيد على الطابع الباقي للحب على أنه أعظم الأشياء طرّة. أم أن الكلمات عن المعرفة قد جاءت بدون تفكير في تصور محدد مع بقية الفقرة؟ إنها ليست مجرد كلمات منطوقة؛ فهناك رابطة وهي من أعظم العبارات عمقاً فِي هذا الاصحاح العظيم: «. . . . الآن أعرِفُ بعضَ المعرفة لكن حينئذٍ سَأعرِفُ كما عُرِفْت» ـ كما عُرِفْتُ أي بالله. لكن ليست هناك سوى طريقة واحدة لمعرفة شخص من الأشخاص ـ أن تتوحد مع ذلك الشخص من خلال الحب. إن المعرفة الكاملة تقتضي الحب الكامل. إن الله يعرفني لأنه يحبّني؛ وأنا سوف أعرفه وجهاً لوجه مَن خلال وحدة مماثلة هي الحب والمعرفة في الوقت نفسه. الحب يدوم؛ الحب وحده هو الذي يبقى ولا شيء آخر بجانب الحب، لا شيء مستقل عن الحب. ومع هذا ففي الحب نجد أن الرؤية وجهاً لوجه والمعرفة بجوهر الأنا الآخر ومركزه الصحيحي واردان. إنه ليس حباً أعمى الحب الباقي، الحب الذي هو عين الله. إنه حب راءٍ، حب عارف، حب يتطلع في عمق قلب الله ومن عمق قلوبنا. لا توجد غربة في الحب؛ إن الحب يعرف؛ إنه القوة الوحيدة للمعرفة الكاملة والباقية. وهناك كلمة يونانية تشير إلى كلٍّ من المعرفة والحب الحسي. إنها تستطيع أن تشير إلى كليهما، لأنَّ كلا المعنيين يعبران عن فعل الوحدة، يعبران عن قهر للهوة بين البشر. سوف تتم الإطاحة بالمعرفة طالما أنها مختلفة عن الحب؛ والمعرفة تصبح أبدية طالما أنها متحدة مع الحب. وعلى هذا فإن معيار المعرفة هو معيار الحب. وعند بولس لا يوجد الاختلاف بين المعرفة والحب، بين الرؤية والفعل، بين النظرية والممارسة إلا عندما تصبح المعرفة المتناثرة محط اهتمامنا. المعرفة الكاملة لا تقر باختلاف بين نفسها والحب أو بين النظرية والتطبيق. الحب يقهر التعارض الظاهري بين النظرية والتطبيق، إنه المعرفة والفعل في الوقت نفسه. لهذا فإنه أعظم الأشياء قاطبة. ولهذا فإن الله نفسه محبة؛ والمسيح باعتباره تجلياً للحب الالهي ممتلئ لطفاً (و) حقيقة.

وهذا ما يقصده بولس؛ وهذا هو معيار المعرفة الذي يطرحه.

والآن دعونا ننظر في وجودنا والمعرفة التي نملكها. يقول بولس إن كل معرفتنا الراهنة هي أشبه بانعكاس شيء في مرآة ولهذا فإنها مليئة بالأحاجي والألغاز... وهذه طريقة أخرى للتعبير عن الطابع المتناثر لمعرفتنا لأن النثارات من سياق الكل ليست سوى ألغاز بالنسبة لنا. إننا قد نحدس طبيعة الكل؛ ونحن قد نقترب من الكل بشكل غير مباشر؛ لكننا لا نرى الكل نفسه؛ إننا لا نلتقطه مباشرة وجهاً لوجه؛ قليل من الضوء وكثير من الظلام؛ نثارات قليلة وليس الكل إطلاقاً؛ مشكلات عديدة وليس حلاً إطلاقاً؛ لا شيء سوى الانعكاسات في مرايا نفوسنا بدون مصدر الحقيقة نفسها... هذا هو حال معرفتنا. وهذا هو حال حبنا. لأن الحب الكامل والدائم لا يكمن في داخلنا فإن المعرفة الكاملة محرمة علينا. ولما كنا بشراً مفصولين بعضنا عن بعض وبالتالي مفصولين عن هذه الوحدة القصوى فإن مجموع المعرفة بين الأفراد المفردين مستحيل استحالة وجود الوحدة بين البشر وأساس الوجود نفسه. لقد قال فيلسوف عظيم أن معرفتنا تصل إلى الذي تصل إليه معرفتنا الخلاقة. وهذا حق بالنسبة لعالم معين من الحياة. ولكنه ليس حقاً لكل حياتنا. وإن حقيقة أن تصل معرفتنا إلى الذي يصل فيه حبنا المُوَحِّد صادقة لكل الوجود الإنساني.

لقد حاولت البشرية دائماً أن تفك شفرة شذرات الحياة المحيرة. وتلك المحاولة ليست قاصرة على الفلاسفة أو الكهنة أو الأنبياء أو الحكماء في كل حقب التاريخ. إنها مسألة خاصة بكل إنسان؛ فكل إنسان هو شذرة في ذاتها. إنه لغز بالنسبة لنفسه؛ والحياة الفردية لكل إنسان آخر هي لغز بالنسبة له، لغز حالك محير ومربك ومثير ومُعَذِّب. إن وجودنا نفسه هو تساؤل مستمر عن (معنى) وجودنا، محاولة دائمة لفك شفرة لغز عالمنا ولغز قلبنا. وإن الأطفال قبل أن يتكيفوا مع ردود الأفعال التقليدية من جانب البالغين وقبل أن يشبوا عن فرديتهم الخلاقة يطرحون تساؤلاً دائماً، يعبرون عن رغبة ملحة لفك شفرة الألغاز التي يرونها في المرآة البدائية لتجربتهم. إن الإنسان الخلاق في كل مجالات الحياة أشبه بطفل يتجرأ على التساؤل بالنسبة لما يتجاوز حدود الأجوبة التقليدية. إنه يكتشف الطابع المتناثر لكل هذه الأجوبة، وهو طابع يستشعره الجميع على نحو حالك ولا شعوري. إنه قد يدمر عبر طريق سؤال

أساسي واحد نسقاً كلياً شديد التنظيم للحياة والمجتمع والأخلاق والدين. إنه قد يظهر أن ما يعتقد الناس فيه أنه كل، ليس سوى شذرة لشذرة. إنه قد يهز اليقين الذي عاشوا عليه قروناً بأن ينقبوا عن لغز أو أحجية في أساسه ذاته. إن بؤس الانسان كامن في الطابع المتناثر لحياته ومعرفته؛ وإنّ عظمة الانسان تكمن في قدرته على أن يعرف أن وجوده وجود متناثر وإلغازي. فالإنسان قادر على أن يلغز وأن يسأل وأن يتجاوز الشذرات بحثاً عن الكامل. ومع هذا وهو قادر على أن يقوم بهذا يشعر في الوقت نفسه بالمأساة الكامنة في وجوده، مأساة اللغز والتناثر. إن الإنسان خاضع مع كل البشر لقانون العبث. لكن الإنسان وحده واع بذلك القانون ولهذا فإنه بشكل لامتناه أكثر تعاسة من كل الكائنات الأخرى في الخضوع لذلك القانون؛ ومن جهة أخرى إنه متفوق بشكل لا متناه لأنه وحده يعرف أنّ هناك شيئاً وراء العبث والتأمّل، وراء الألغاز والأحاجي. هذا هو ما استشعره بولس عندما قال إن الخلق نفسه سوف يتم إنقاذه من قيود التآكل ويجري نقله إلى حرية عظمة أطفال الله.

إن الإنسان شذرة ولغز بالنسبة لنفسه. وكلما عاش التجارب وعرف تلك الحقيقة يكون إنساناً حقاً. لقد عاش بولس تجربة انهيار نسق للحياة والفكر آمن بأنه كُلٌ وحقيقة كاملة بدون لغز أو فجوات. ثم وجد نفسه مدفوناً تحت شذرات معرفته وأخلاقياته. لكن بولس لم يحاول مرة أخرى إطلاقاً أن يبني بيتاً جديداً مريحاً من الشذرات. لقد سكن مع الشذرات. لقد أدرك دائماً أن الشذرات تظل شذرات، حتى لو حاول الإنسان أن يدركها. والوحدة التي تحن إليها الشذرات تكمن فيما يجاوزها؛ ويتم التقاطها بالأمل ولكن ليس وجهاً لوجه.

فكيف يمكن لبولس أن يطيق الحياة وهي غارقة في الشذرات والنثارات؟ لقد تحملها لأن للشذرات والنثارات معنى جديداً بالنسبة له. إن الصور في المرآة تشير إلى شيء جديد بالنسبة له: إنها تتنبأ بالكامل، بحقيقة الحب. من خلال شذرات معرفته وأخلاقه بدا الحب له. وقوة الحب تحول الألغاز المعذبة إلى رموز للحقيقة وتحول الشذرات المأساوية إلى رموز للكل.

(14)

فِعل الحق

«لأنّه لم يرسل الله ابنه إلى العالم ليدين العالم بل لِيَخْلُصَ به العالم. الذي يؤمن به لا يُدان والذي لا يؤمن قد دِينَ لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد. وهذه هي الدينونة إنّه قد جاء إلى العالم وأحب الناس الظلمة أكثر من النور لأن أعمالهم كانت شريرة. لأن كل من يعمل السيئات يُبغِضُ النورَ ولا يأتي إلى النور لئلا تُوَبَّخَ أعمالُهُ. وأما من يفعل الحق فَيُقْبِلُ إلى النور لكي تظهر أعماله أنها بالله معمولة».

(يوحنا: 3: 17 ـ 21)

من يفعل الحق! هذا ربط ومركب مدهش للكلمات. إننا قد ندرك الحق ونعرفه، وربما نتعرف أحياناً وفق معرفتنا، ولكن كيف نستطيع أن (نفعل) الحق؟ إن الحقيقة قد أُعْطِيَتْ لنا في نظرية حقيقية. إننا يمكننا أو لا يمكننا أن نقفو أثر تلك النظرية في التطبيق. النظرية والتطبيق يبدوان وكأنهما شيئان مختلفان، ومن الصعب التفكير فيهما مرتبطين. وبالمثل، من الصعب أن نفهم عبارة «يفعل الحق». ربما لا يجب أن نفهم هذه العبارة بجدية شديدة. وربما يجب تفسيرها ببساطة على أنها «العمل وفق الحقيقة». ولكن إذا كان مثل هذا التفسير صحيحاً فإننا نتساءل: وماذا بشأن العبارات الواردة أيضاً في الانجيل الرابع «أنا الحق»، «الحق الذي أصبح» والذي يتحدث عنه الناس «الذين هم من الحق؟» لا يمكن أن يكون لهذه العبارات معنى إذا كانت الحقيقة مسألة نظرية فقط.

يقول الناس أحياناً: «هذا حق نظرياً ولكنه لا يثمر أو يؤتى أكله في

الممارسة». وكان يجب أن يقولوا: «هذا خطأ نظرياً وبالتالي فهو خطأ في الممارسة». لا توجد نظرية حقيقية تكون خطأ في التطبيق. هذا التعارض بين النظرية والممارسة يتصوره الذين يريدون الهرب من التفكير الشاق والشامل. إنهم يحبون أن يقبعوا في ضحالة الممارسات المعتادة وعلى سطح ما يسمى «الخبرة». إنهم لا يقبلون سوى تأكيد متكرر لشيء يعرفونه أو يؤمنون به من قبل. وتلك الأسئلة المطروحة عن الحقيقة التي تحدث قروناً من الممارسة وأثارت فيها الاضطراب هي وحدها التي أوجدت تحولاً أساسياً في الممارسة. ويصدق هذا على تاريخ العلم والأخلاق والدين. لقد تساءل النبي عاموس عن نظرية كل الديانات الوثنية وتبين له فيها أن وجود الله وقوته متوحدان ومتماثلان بشكل كبير مع وجود قطر معين من الأقطار وقوته، وبهذا تقوّضت الممارسة الوثنية في كل أنحاء العالم. ولقد تساءل نبي المنفى عن النظرية القائلة إن معاناة أمة من الأمم هي عقاب عن خطاياها واستكشف النظرية القائلة إن معاناة خادم الرب تخدم كل الأمم، وبهذا اكتسب تاريخ البشرية طابعاً جديداً. ولقد تساءل الحواريون عن النظرية القائلة إن المسيح هو حالم أرضي وشرحوا صلب المسيح في إطار الخلاص، وبهذا اهتز النسق الكلي للقيم القديمة. لقد تحدى القديس أوغسطين النظرية القائلة إنّ الله والانسان يعملان معاً من أجل الخلاص. ولقد هاجم مارتن لوثر النظرية القائلة إنه لا يوجد خلاص بدون توسط الطقوس الكنسية. ولقد حطم العلم والتاريخ الحديث العقائد الآلية والخرافية عن الالهام. وبكل هذه الأمور فإن ممارسة قطاعات كبيرة من الناس قد تغيرت. وإن التأكيد على الحقيقة الواردة في الانجيل الرابع يجب أن يحول بيننا وبين أن يأخذنا التناقض المضلل بين النظرية والتطبيق. ويجب أن يعطينا هذا دافعاً ملحاً نحو مزيد من التفكير الشامل إزاء المعنيين بصفة خاصة بحقيقة المسيحية.

إن الكلمة اليونانية للحقيقة تعني: جعل الخفي يتجلى. إن الحقيقة خفية ويجب كشفها. وما من أحد يمتلك الحقيقة على نحو طبيعي. إنها تسكن في العمق تحت السطح؛ وإنّ سطح وجودنا يتغير ويتحرك باستمرار مثل أمواج المحيط، ولهذا فهو خادع. إن العمق خالد ولهذا فهو يقيني. والكلمة اليونانية استخدمها الانجيل الرابع وتقبّل مفهومها ومع هذا فإن هذا الانجيل قد طورها.

«فعل الحق»، «وجود الحق»، «الحق قد أصبح»، «أنا الحق» ـ إن كل هذه المركبات من الكلمات تشير إلى أن الحقيقة في المسيحية شيء (يحدث)، شيء مرتبط بمكان خاص وزمان خاص وشخصية خاصة. الحقيقة شيء جديد، شيء (يفعله) الله في التاريخ، وبسبب هذا هو شيء (يتم فعْله) في الحياة الفردية. الحقيقة خفية، الحقيقة سر ـ في المسيحية وكذلك في الفكر اليوناني. لكن سر الحقيقة في المسيحية حادثة وقعت وتقع مراراً وتكراراً. إنها الحياة، الحياة الشخصية، الكشف والقرار. إنّ الحقيقة تيار من الحياة وهي متمركزة في المسيح ومُتَحقِّقة في كل فرد مرتبط بالله، وقد انتظمت في مجمع الله ألا وهو الكنيسة. الحقيقة في الفكر اليوناني يمكن أن توجد فحسب. والحقيقة في المسيحية توجد إذا جرى فعلها، ويتم فعلها إذا وُجدت. الحقيقة في الفكر اليوناني هي تجلي الماهية الخالدة الثابتة للأشياء. والحقيقة في المسيحية هي الخلق الجديد، التحقق ذاته في التاريخ. لهذا في المسيحية فإن عكس الحقيقة هو الكذب وليس الظن كما عند اليونان. والقرار مع أو ضد الحقيقة هو قرار (ال) حياة و(ال) موت، وهذا القرار مطابق للقرار الذي يتم به قبول المسيح أو إنكاره. أنتم لا يمكن أن يكون لكم (ظن) عن المسيح بعد أن واجهتموه. وكل ما أمامكم هو أن تفعلوا الحق باتباعه أو فعل الكذب بإنكاره. ولهذا من المستحيل أن تجعلوه معلماً للحقيقة بين معلمي الحقيقة الآخرين أو حتى فوقهم، فهذا إنما يفصل الحقيقة عنه ويفصل قرار الحقيقة عن القرار من أجله (بمثل ما أن القرار بالنسبة لتعاليم أفلاطون ليس هو نفسه القرار من أجل أفلاطون). غير أن هذا الانفصال نفسه قد أنكره الانجيل الرابع عندما سمّى المسيح الحق «الذي أصبح» وعندما سمى أتباعه أولئك الذين هم من الحق ولهذا فهم القادرون على فعل الحق.

إن اللاهوت المسيحي مُتَجَذِّر في مفهوم الحق حيث لا يوجد اعتراف بالانفصال بين النظرية والتطبيق، لأن هذا الحق هو الحق المُخَلِّص. واللاهوت يجب أن يكون أشبه بدائرة حيث أن العناصر الواقعة على المحيط للنظريات التاريخية والتربوية والفلسفية موجهة نحو المركز، نحو الحق، الذي هو المسيح. وما من عبارة تكون لاهوتية إلا وهي تحتوي على نحو مباشر أو غير مباشر الحق المُخَلِّص. والحق المُخَلِّص يعني الحق الذي يتم فعله؛ الحق المُخَلِّص «فيه» في ذلك الذي يفعل الحق».

(15)

اللاهوتي (القسم الأول)(*)

«وأما من جهة المذاهب الروحية أيها الأخوة فلستُ أريد أن تجهلوا. أنتم تعلمون أنكم كنتم أمماً منقادين إلى الأوثان إليكم كما كنتم تساقون. لذلك أعرّفكم أن ليس أحد وهو يتكلم بروح الله يقول يسوع أناثيما. وليس أحد يقدر أن يقول يسوع رب إلا بالروح القدس. فأنواع مواهب موجودة ولكن الروح واحد. وأنواع خِدَم موجودة ولكن الرب واحد. وأنواع أعمال موجودة ولكن الله واحد الذي يعمل الكلَّ في الكل. ولكنه لكل واحد يُعْطَى إظهارُ الروح للمنفعة. فإنه لواحد يُعْطَى بالروح كلامُ حكمة. ولآخر كلامُ علْم بحسب الروح الواحد. ولآخرَ إيمانٌ بالروح الواحد. ولآخر مواهبُ شفاءٍ بالروح الواحد. ولآخر عمل قُوّاتٍ ولآخرَ نُبُوَّةٌ ولآخر تمييز الأرواح. ولآخر أنواعُ ألْسنة. ولآخر ترجمةُ ألسنة. ولكن هذه كلُّها يعملها الروح الواحد بعينه قاسماً لكل واحدٍ بمفرده كما يشاء».

(رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس 12: 1 ـ 11)

إنَّ معظمنا طلبة لاهوت، سواء كنا نُعَلِّم أم نتعلّم، سواء كنا مبشرين أم مربين، سواء كنا قُسساً أم عمالاً إجتماعيين، سواء كنا مديرين أم قادة سياسيين. ولكننا في هذه الجماعة الخاصة نحن (لاهوتيون)، أشخاص يطرحون السؤال عن إهتمامنا الأقصى، السؤال عن الله وتجليه. ومهما يكن ما نكون عليه فنحن أولاً وقبل كل شيء لاهوتيون. لهذا فمن الطبيعي للغاية ـ

(*) هذه الموعظة والموعظتان التاليتان قد ألّفتهما وقد وضعت في ذهني أنها موجهة لطلبة اللاهوت.

وإن كان ليس من المعتاد للغاية ـ بالنسبة لنا أن نعتبر وجودنا وجوداً لاهوتياً. على أي شيء يقوم هذا الوجود؟ ما الذي يجعل الانسان لاهوتياً؟ ما هي علاقته بالأشكال الأخرى للوجود؟ ما هو معنى وجودنا ككل؟ لقد أوضح بولس على نحو شديد عما يعتقد أنه أساس كل اللاهوت: الروح الالهية. وكلمة الحكمة والمعرفة أي اللاهوت هي أساساً هبة من الروح كما هو الشاهد في الكنيسة المسيحية ككل. إنها أساساً هبة (واحدة) من الهبات بجانب الهبات الأخرى. إنها هدية (خاصة) بجانب الهدايا الخاصة الأخرى. لكنها (هدية) الروح وليست هدية القدرة الطبيعية. إن كلمة المعرفة ـ اللاهوت ـ تتحدث (إلينا) قبل أن نستطيع (نحن) أن نقولها للآخرين أو حتى قبل أن نستطيع (نحن) أن نقولها لأنفسنا. ولكي يكون الانسان لاهوتياً يجب أولاً وقبل كل شيء أن يكون قادراً على (تلقّي) المعرفة الروحية. ولكن على أساس هذا المعيار هل يمكن أن نسمّي أنفسنا لاهوتيين؟ هل نستطيع أن نقول إن فكرنا (نحن) اللاهوتي هو هبة من الروح؟ هل نحن على يقين من أن وجودنا اللاهوتي يتجاوز قدراتنا الانسانية أو أن لدينا كلمة المعرفة، كلمة الحكمة الروحية؟

لقد طرح بولس معياراً عينياً للغاية للوجود اللاهوتي والذي هو أيضاً معيار لكل الوجود الروحي. إنه يقول: إن من يصيح: «ملعون يسوع» لا يتحدث باسم روح الله؛ ولا يستطيع أن يقول مخلوق «يسوع سيدنا» إلاّ في الروح القدس. إن من يتقبل يسوع على أنه المسيح إنما يبرهن بذلك التقبل الخالص على أنّه تلقى روح الله. وذلك لأن روح الانسان وحدها عاجزة عن أن تقول العبارة: «إنني أقبل يسوع على أنه المسيح». إن هذه العبارة هي سر وأساس الكنيسة المسيحية، إنها التناقض الظاهري واللب الأكبر وهي التي أوجدت اللعنات ضد المسيحية. إنّها العمق والقوة اللذان خلقا وجوداً جديداً في العالم والتاريخ والانسان. ولهذا فإنَّ مَنْ يُضمّن في اعترافه في الكنيسة أن يسوع هو المسيح يشارك في الروح الالهي. إنه هو من (يستطيع) أن يتلقى روح الحكمة والمعرفة؛ إنه هو من (يستطيع) أن يصبح لاهوتياً.

اللاهوت لا يمكن أن يوجد خارج جمْع أولئك الذين يؤكدون أن يسوع هو المسيح، خارج الكنيسة، خارج مجمع الله. إن اللاهوت عمل الكنيسة

لأنه هو هبة الروح الالهية. الوجود اللاهوتي هو عنصر وجود الكنيسة. إنه ليس ببساطة أمر تفكير (حر) أو بحث أو تحليل فلسفي عام. لكن علينا أن نسأل سؤالاً آخر: إذا كان هذا هو الوجود اللاهوتي فأيٌّ منا يستطيع أن يسمي نفسه لاهوتياً؟ مَنْ يستطيع أن يقرر أن يصبح لاهوتياً؟ ومَنْ الذي يستطيع أن يجرؤ على أن يظل لاهوتياً؟ هل نحن حقاً ننتمي إلى مجمع الله؟ هل نستطيع أن نتقبل بجدية التناقض الظاهري الذي بُنيت عليه الكنيسة، التناقض الموجود في عبارة أن يسوع هو المسيح؟ هل نحن مأخوذون بالروح الالهية، وهل تلقينا كلمة المعرفة كهدية؟ فإذا جاءنا أحدنا وقال لنا إنه ينتمي (على نحو مؤكد) للكنيسة وأنه لا يشك في أن يسوع هو المسيح وأنه يعيش باستمرار تجارب قبضة الروح الالهية وهبة المعرفة الروحية فماذا يجب أن تكون عليه إجابتنا له؟ من المؤكد أننا يجب أن نقول له إنه لم يحقق حتى الشرط الأول للوجود اللاهوتي الذي هو يحقق أن الانسان (لا) يعرف ما إذا كان عاش تجربة الروح الالهية أو الأرواح التي ليست إلهية. إننا لا يجب أن نقبله كلاهوتي. ومن جهة أخرى إذا جاء أحدنا وقال لنا إنه مغترب عن الكنيسة المسيحية وأساساتها، وأنه لا يشعر بحضور قوة الروح وأنه خاوٍ من المعرفة الروحية (ولكنه) يسأل مراراً وتكراراً السؤال اللاهوتي، السؤال الخاص بالاهتمام الأقصى وتجلياته في يسوع باعتباره المسيح فإننا نتقبله كلاهوتي. ربما نختبر جدية شكه لكي نتبين ما إذا كان خواؤه ويأسه يعبران عن عبث جديد أكثر رهافة. ولكن إذا اقتنعنا بجديته فإننا نعتبره لاهوتياً.

هناك الكثيرون بيننا الذين يؤمنون مع أنفسهم أنهم لا يستطيعون على الاطلاق أن يكونوا لاهوتيين ممتازين وأنهم يستطيعون أن يؤدوا عملاً أفضل يكاد يكون في كل مجال آخر. ومع هذا فإنهم لا يستطيعون أن يكون وجودهم أي شيء آخر سوى أنه وجود لاهوتي. وحتى لو كفوا عن اللاهوت على أنه عملهم الذي كرسوا أنفسهم له فإنهم لن يكفوا عن طرح السؤال اللاهوتي. . . إن هذا قد يدفعهم إلى كل مجال. وقد يرتبطون به بالفعل إن لم يكن كقناعة. إنهم لا يستطيعون أن يتأكدوا أنهم يستطيعون أن يحققوا مطالب السؤال اللاهوتي، ولكنهم متأكدون أنهم واقعون في أسره. وإن مَنْ يؤمنوا بهذه الأشياء في قلوبهم ينتموا لمجمع الله. لقد استحوذت عليهم الروح الالهية. لقد تلقوا هبة المعرفة. إنهم لاهوتيون.

اللاهوتي (القسم الثاني)

«فإنّي إذ كنْتُ حراً من الجميع استعبدت نفسي للجميع لأربح الكثيرين. فصرْت لليهود كيهودي لأربح اليهود. وللذين تحت الناموس كأني تحت الناموس لأربح الذين تحتِ الناموس. وللذين بلا ناموس كأني بلا ناموس. مع أنّي لسْتُ بلا ناموسٍ لله بل تحت ناموس للمسّيح. لأربح الذين بلا ناموس. صرت للضعفاء كضعيف لأربح الضعفاء. صرت للكل كلّ شيءٍ لأُخَلِّصَ على كل حالٍ قوماً. وهذا أنا أفعله لأجلِ الانجيل لأكون شريكاً فيه».

(رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس 9: 19 ـ 23)

لقد رأينا في الموعظة السابقة أن أساس وجودنا اللاهوتي هو الروح الالهية التي تحتفظ بنا في حوزتها وأن تحول بيننا على نحو مستحيل وبين الهرب من السؤال اللاهوتي، سؤال اهتمامنا الأقصى، السؤال عن الله. ونحن نعتبر اللاهوتي مؤمناً بالرغم من شكه ويأسه ونعتبره عضواً في الكنيسة التي في حوزتها كل العمل اللاهوتي الذي يتم وذلك بالرغم من نقص يقينه.

والآن، إن بعض كلمات بولس عن كهانته سوف تفضي بنا إلى فهم جانب آخر من وجودنا اللاهوتي. إنّ الحواري هو على وجه اليقين أكثر من مجرد لاهوتي؛ وإن رجل اللاهوت الكنسي يمارس مزيداً من الوظائف عن طالب اللاهوت. لكن الحواري هو (أيضاً) لاهوتي؛ ورجل الدين لا يستطيع أن يعمل بدون اللاهوت. ولهذا فإن الكلمات التي يقولها بولس عن كهانته ككل صادقة (ضاً) بالنسبة للجانب اللاهوتي في كهانته: «صرت للكل كل شيء». والوجو اللاهوتي يقتضي الموقف هذا عينه. إن اللاهوتي (في لاهوتيته) يجب ... يصبح كل شيء لكل الناس. وعلينا أن ننظر في تلك الكلمات.

«للذين تحت الناموس كأني تحت الناموس لأربح الذين تحت الناموس مع أني لست تحت الناموس». ودعونا نحلّ كلمة (المثالية) محل (الناموس) ولا يرجع الأمر فحسب إلى أن المثاليين ناموسيون عادة بل يمتد أيضاً إلى أن المثالية هي موقف نبيل ترفعنا فوق البنية التحتية لوجودنا وتطرح الايمان والإخلاص والتكريس بمثل ما يفعل الناموس. «للمثاليين كأني تحت المثالية لأربح الذين تحت المثالية مع أني لست تحت المثالية» فكيف يمكن لمثل هذا الفعل أن يتم؟ كيف يمكن للاهوتي الذي ليس مثالياً أن يصبح مثالياً عند المثاليين؟ إنه يستطيع أن يصبح مثالياً بالطريقة نفسها التي يستطيع بها حواري المسيح أن يصبح يهودياً بالنسبة لليهود. يقول بولس إن الناموس حق وأنّه لا يُلْغى بل يتحقق في المسيح. وبالمثل فإن اللاهوتي الذي ليس مثالياً (والذي لا يمكن إطلاقاً أن يكون مثالياً) لا يدمر المثالية. إنه يستخدمها ويقرر أنها تحتوي على بعض الحق الذي يخلق اغراء مستمراً للاهوتي لأن يكون مثالياً هو نفسه وأن ينكر الصليب الذي هو إدانة للمثالية. إن اللاهوتي يستخدم المثالية، يستخدم مفاهيمها وطرقها. إنه يصبح أفلاطونياً للأفلاطونيين، ورواقياً للرواقيين وهيجلياً للهجليين وتقدمياً للتقدميين. لكنه لا يستطيع أن يخلط أياً من هذه الأشكال الخاصة بالمثالية بالرسالة المسيحية. إنه يشايع بالمزيد للبعض عن البعض الآخر. لكنه لا يفرض إطلاقاً شكلاً مفضلاً على الآخرين باسم المسيحية. إنه يدرك اليأس الذي يمكن أن تحمله المثالية وكذلك الناس فوقنا. وهو يعرف أنه في المسيح يوجد وجود جديد فيه تجسدت كل المُثُل وأصبحت مرئية ولم تعد كمُثُل بل كوقائع.

«للذين بلا ناموس كأني بلا ناموس. مع أني لست بلا ناموس لله بل تحت ناموس للمسيح. لأربح الذين بلا ناموس». دعونا نحل كلمة (الواقعية) محل عبارة (بلا ناموس) وليس الأمر راجعاً إلى أن الواقعيين ليس لهم ناموس (فلا هم ولا الوثنيون بلا ناموس نوعاً ما) بل لأنه ليست لديهم مبادئ تجريدية يفرضونها على الواقع. إن عظمتهم ترجع إلى تقبلهم المتواضع للأشياء كما هي. «إن تقوى الواقعية هي التواضع». «للواقعيين كأني واقعي، لأربح الواقعيين مع أني لست واقعياً». إن اللاهوتي الذي ليس واقعياً (والذي لا يمكن على الإطلاق أن يكون واقعياً) لا يحطم الواقعية. إنه يعترف بحقيقة

الواقعية وهو واقع تحت إغراء مستمر بأن يصبح واقعياً هو نفسه ومن ثمّ ينكر الحياة الأبدية التي هي إدانة للواقعية. إن اللاهوتي يستخدم الواقعية ويصبح وضعياً للوضعيين وبراجماتياً للبراجماتيين ومفسراً مأساوياً للحياة للمفسرين المأساويين للحياة. لكنه لا يقول ان الواقعية هي الرسالة المسيحية. إنه لا يحارب من أجلها باسم المسيحية. إنه يعرف يأس مجرد الواقعية وهو يعرف أن هناك وجوداً جديداً يقهر الدمار الذاتي للواقعية.

«صرت للضعفاء كضعيف لأربح الضعفاء» هذه أعمق العبارات الثلاثة التي قالها بولس عن نفسه وهي أهمها بالنسبة لوجودنا كلاهوتيين. يجب أن نصبح (كما لو كنا ضعفاء) بالرغم من أننا لسنا ضعفاء وقد استحوذت علينا الروح الالهية أساس كل لاهوت. كيف يمكننا أن نكون ضعفاء دون أن نكون ضعفاء من قبل؟ إننا نستطيع أن نكون ضعفاء بأن تكون لدينا القوة للاعتراف بضعفنا وأن نمتنع عن كل تعصب ويقين ذاتي لاهوتي، وبالمشاركة ـ لا من الخارج بل من الداخل ـ في ضعف كل أولئك الذين نتحدث إليهم كلاهوتيين. إن قوتنا هي (ضعفنا)؛ وقوتنا ليست قوتنا (نحن). لهذا فإننا لا نكون أقوياء إلا إذا أشرنا للحقيقة التي تتملكنا والتي لا نملكها من أجلنا ومن أجل الآخرين.

لا يوجد شيء أكثر تدميراً للاهوتي نفسه وأكثر حقارة لأولئك الذين يريد أن يقنعهم من لاهوت قائم على اليقين الذاتي. إن اللاهوتي الحق هو ذلك الذي لديه قوة أن يدرك وأن يعترف بضعفه وهو لهذا لديه القوة لأن يصبح ضعيفاً للضعفاء وضعفه هو انتصاره.

اللاهوتي (القسم الثالث)

«فوقف بولس في وسط أرِيُوس باغوس وقال. أيها الرجال الأثينيون أراكم مِنْ كل وجْهٍ كأنكم متدينون كثيراً. لأنني بينما كنت أجتاز وأنظر إلى معبوداتكم وجدت أيضاً مذبحاً مكتوباً عليه لإله مجهول. فالذي تتقونه وأنتم تجهلونه هذا أنا أنادي لكم به. الإله الذي خلق العالم وكلَّ ما فيه هذا إذْ هو ربُّ السماء والأرض لا يسكن في هياكل مصنوعة بالأيادي. ولا يُخْدَمُ بأيادي الناس كأنه محتاج إلى شيء. إذْ هو يعطي الجميع حياة ونفْساً وكلَّ شيء. وصنع من دمٍ واحِدٍ كلَّ أمةٍ من الناس يسكنون على كل وجه الأرض وحَتَّمَ بالأوقات المعينة وبحدودِ مسكنهم. لكي يطلبوا الله لعلهم يتلمّسونه فيجدوه مع أنه عن كل واحدٍ معاً ليس بعيداً. لأننا به نحيا ونتحرّك ونوجد. كما قال بعض شعرائكم أيضاً لأننا أيضاً ذريته. فإذ نحن ذرية الله لا ينبغي أن نظن أن اللاهوت شبيه بذهب أو فضة أو حجر أو نقشٍ صناعةٍ واختراع إنسان. فالله الآن يأمر جميع الناس في كل مكان أن يتوبوا متغاضياً عن أزمنة الجهل. لأنه أقام يوْماً هو فيه مُزْمِعٌ أن يدين المسكونة بالعدل بِرَجُلٍ قد عَيَّنَهُ مُقَدِّماً للجميع إيماناً إذ أقامه من الأموات. ولما سمعوا بالقيامة من الأموات كان البعض يستهزئون والبعض يقولون سنسمع منك عن هذا أيضاً».

(أعمال الرسل 17: 22 ـ 32)

عندما تحدثت لأولِ مرة عن وجودنا كلاهوتيين أشرت إلى أن أساس هذا الوجود يكمن في قوة الروح الالهية وفي حقيقة الكنيسة. لقد كان هذا لاهوتياً (مؤمناً) ـ مؤمناً بالرغم من كل شكوكه وأشكال يأسه ـ هو ما حاولت أن أصفه. وفي المرة الثانية التي نظرنا فيها إلى وجودنا كلاهوتيين نظرنا إلى اللاهوتي (المستسلم ذاتياً) الذي أصبح من خلال قوة الحب «كل شيء للكل»، ذلك اللاهوتي الذي يبدو أنه يفقد ذاته من خلال فهْم كل شيء وكل

مخلوق. ودعوني هذه المرة أفكر في اللاهوتي (المجيب) الذي رغم مشاركته في ضعف الناس جميعاً وخطئهم قادر على أن يرد على أسئلتهم من خلال قوة أساسه، الوجود الجديد في المسيح.

إن الساحة الشهيرة التي تحدث فيها بولس من الموضع الرئيسي للحكمة اليونانية يظهر لنا رجلاً هو طراز اللاهوتي (المجيب). ولقد سُئل بولس عن رسالته، من جهة لأن الأثينيين كانوا دائماً فضوليين بالنسبة لكل ما هو جديد، ومن جهة أخرى لأنهم عرفوا أنهم (لم) يعرفوا الحقيقة وكانت لديهم رغبة حارة لمعرفتها. وهناك ثلاث مراحل في إجابة بولس تكشف عن المهمات الثلاث للاهوتي (المجيب). المرحلة الأولى في إجابة بولس وهي قائمة في التأكيد على أن أولئك الذين سألوه السؤال الأقصى ليسوا على عدم وعي بالجواب: إن هؤلاء الناس يعبدون إلهاً مجهولاً ومن ثم فإنهم شهود على معرفتهم الدينية رغم جهلهم الديني. وتلك المعرفة ليست مذهلة لأن الله قريب من كل واحد منا؛ ففيه (هو) نعيش ونتحرك ونوجد؛ وهذه الأمور تخص (أيضاً) شعبه. إذن الجواب الأول من أننا يجب أن نعطي لأولئك الذين يسألوننا مثل هذا السؤال هو أنهم يعرفون من قبل الجواب. إننا يجب أن نظهر لهم أنهم وأننا معهم لسنا خارج الله وأنه حتى الملاحدة يقفون في الله ـ باعتباره تلك القوة التي منها يعيشون والحقيقة التي نتلمسها والمعنى الأقصى للحياة الذي به يؤمنون. وإنه للاهوت سيء وجبن ديني سيء ان نعتقد أنه يمكن أن يوجد موضع نستطيع أن نتطلع فيه (إلى) الله كما لو كان شيئاً خارجياً نتجادل بشأنه معه أو ضده. إن الالحاد الأصيل ليس ممكناً من الناحية الانسانية لأن الله أقرب للإنسان من الانسان لنفسه. لا يمكن إنكار إله إلا باسم إله آخر؛ ولا يمكن إنكار إله يبدو في شكل (معين) إلا باله يبدو في شكل آخر. ذلك هو الجواب الذي يجب أن نعطيه لأنفسنا وأولئك الذين يسألوننا لا كعبارة تجريدية، بل بالأحرى كتفسير مستمر لوجودنا الانساني في كل حركاته الخفية وتيقناته.

إن الله أقرب إلينا من أنفسنا. إننا لا نستطيع أن نجد مكاناً خارجه؛ لكننا نستطيع أن (نحاول) أن نجد هذا المكان. والجزء الثاني من جواب بولس هو أننا نستطيع أن نكون في وضع الهرب المستمر من الله. نستطيع أن نتصور

طريقاً بعد آخر للهرب؛ نستطيع أن نحل محل الله منتجات من خيالنا، ونحن نفعل هذا. وبالرغم من أن البشرية ليست غريبة على الله، فإنها مغتربة عنه. وبالرغم من أن البشرية ليست بدون الله إطلاقاً فإنها تحرّف صورة الله. وبالرغم من أن البشرية ليست على الاطلاق بدون معرفة الله، فإنها جاهلة بالله. إن البشرية مفصولة عن أصلها؛ إنها تعيش تحت نير ناموس الغضب والإحباط، المأساة والدمار الذاتي، لأنها تنتج صوراً مشوهة لله صورة تلو أخرى وتعبد تلك الصور. واللاهوتي المجيب يجب أن يكتشف الآلهة المزيفة في النفس الفردية والمجتمع. يجب أن يطل في أشد أماكنها سرية واختباء. يجب أن يتحداها من خلال قوة اللوجوس الالهي أو العقل الالهي الذي يجعله لاهوتياً. الاشكالية اللاهوتية ليست مجرد مناقشة نظرية بل بالأحرى حكم روحي ضد الآلهة التي ليست هي الله، ضد أبنية الشر وضد تشويهات الله في الفكر والفعل. وغير مسموح بأي توفيق أو تكييف أو استسلام ذاتي لاهوتي على هذا المستوى. فالوصية الأولى هي الصخرة التي يقف عليها اللاهوت. لا يوجد مركب ممكن بين الله والأوثان. وبالرغم من الأخطار الكامنة في مثل هذا الحكم فإن على اللاهوتي أن يصبح أداة الحكم الالهي ضد عالم مشوه.

إن المنصتين لبولس إلى المدى الذي يستطيعون فيه التقاط هذا في ضوء أسئلتهم راغبون في تقبل هذا الجواب المزدوج غير أن بولس تحدث حينئذٍ عن شيء ثالث هم غير قادرين على تحمله. إنهم إما أن يرفضوه في التو أو يؤجلوا قرار رفضه أو قبوله. لقد تحدث عن إنسان أناط به الله أن يكون حكم وحياة العالم. وذلك هو القسم الثالث والأخير من الجواب اللاهوتي. فنحن نكون لاهوتيين حقاً عندما نقرر أن يسوع هو المسيح، وأنه فيه يتجلى لوجس أوناموس اللاهوت.

غير أننا لا نكون لاهوتيين إلا عندما نفسر هذا التناقض الظاهري، هذه العقبة للمثالية والواقعية، الضعيف والمركب، الوثنيين واليهود. ونحن كلاهوتيين يجب أن نفسر ذلك التناقض الظاهري لا أن نقذف العبارات المتناقضة ظاهرياً في عقول الناس. إننا يجب ألا نحتفظ أو ننتج العقبات المصطنعة وقصص المعجزات والأساطير والخرافات والكلام المعقد المليء بالتناقض الظاهري. ولا يجب بالكبرياء الكهنوتي واللاهوتي أن نشوه ذلك

التناقض الظاهري الكوني العظيم من أن هناك انتصاراً على الموت داخل عالم الموت نفسه. لا يجب أن نعرض العبء الباهظ للعقبات الخاطئة على أولئك الذين يسألوننا. ولكن بالمثل لا يجب أن نفرّغ التناقض الظاهري الحق من قوّته. إن الوجود اللاهوتي الحق هو مشاهدته: ذلك الذي نيره سهل والذي عبؤه خفيف، ذلك الذي هو التناقض الظاهري الحق.

(16)

شهادة الروح للروح

«إذاً لا شيء من الدينونة الآن على الذين هم في المسيح يسوعَ السالكين ليس حَسَبَ الجسد بل حَسَبَ الروح. لأنَّ ناموسَ روح الحياة في المسيح يسوع قد أعتقني من ناموس الخطيّة والموت. لأنه ما كانَ الناموس عاجزاً عنه في ما كان ضعيفاً بالجسد فالله إذ أرسل ابنه في شبه جسد الخطية ولأجل الخطية وان الخطيّة في الجسد لكي يتم حكم الناموس فينا نحن السالكين ليس حَسَبَ الجسد بل حسب الروح. فإن الذين هم حَسَب الجسد فيما للجسد يهتمون ولكنَّ الذين حسب الروح فبما للروح. لأن اهتمام الجسد هو موت ولكن اهتمام الروح هو حياة وسلام. لأن اهتمام الجسد هو عداوة لله إذ ليس هو خاضعاً لناموس الله لأنه أيضاً لا يستطيع. فالذين هم في الجسد لا يستطيعون أن يُرْضوا الله. وأمّا أنتم فلستم في الجسد بل في الروح إنْ كان روح الله ساكناً فيكم. ولكن إن كان أحد ليس له روح المسيح فذلك ليس له. وإن كان المسيح فيكم فالجسد ميت بسبب الخطية وأما الروح فحياة بسبب البِر. وإن كان روح الذي أقام يسوعَ من الأموات ساكناً فيكم فالذي أقام المسيح من الأموات سيُحيي أجسادكم المائتة أيضاً بروحه الساكن فيكم. فإذاً أيها الإخوة نحن مديونون ليس للجسد لنعيش حسب الجسد. لأنه إن عِشْتُمْ حسب الجسد فستموتون. ولكن إن كنتم بالروح تميتون أعمال الجسد فستَحْيَوْن. لأنَّ كلَّ الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله. إذ لم تأخذوا روح العبودية أيضاً للخوف بل أخذتم روح النبي الذي به تصرخ يا أبا الأب. الروح نفسه أيضاً يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله. . . وكذلك الروح أيضاً يُعين ضَعَفَاتنا. لأننا لسنا نعلم ما نصلي لأجله كما ينبغي ولكنَّ الروح نفسه يشفع فينا بأنّات لا يُنْطَقُ بها. ولكنَّ الذي يفحص القلوب يعلم ما هو اهتمام الروح.

لأنه بحسب مشيئة الله يشفع في القديسين».

(رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية 8: 1 ـ 16، 26 ـ 27)

يبدو هذا صعباً على آذاننا نحن المحدثين، ويبدو غريباً ويكاد يكون غير معقول. والكلمات مثل (الروح) و(الجسد)، و(الخطيئة) و(الناموس)، و(الحياة) و(الموت) تبدو لنا في مركباتها الغريبة تجريدات فلسفية لا كأوصاف عينية للتجربة المسيحية. وهي على أي حال ما يعبّر عنه بولس عن أشد تجارب الحياة حقيقية وعينية. وهذا الإصحاح الثامن من رسالته إلى المسيحية في روما أشبه بترنيمة تمدح ـ بكلمات كلها وجد وجذب ـ الحقيقة الجديدة التي بدت له والتي انكشفت في التاريخ وغيرتْ وجوده الكلي. لقد سمى بولس هذا الوجود الجديد (المسيح) عندما أصبح هذا مرئياً لأول مرة في يسوع المسيح. ولقد سماه (الروح) عندما أصبح حقيقة في روح كل مسيحي وفي الروح التي تشكل مجمع المسيحيين في كل مكان وفي كل زمان. وكلا الاسمين يشيران إلى الحقيقة نفسها. إن المسيح هو الروح والروح هي روح المسيح. إن المسيحي هو الانسان الذي يشارك في هذه الحقيقة الجديدة، أي هو ذلك الذي له روح. «إن كان أحد ليس له روح المسيح فذلك ليس له». أن تكون مسيحياً يعني أن تكون لك روح، وإن أي وصف للمسيحية يجب أن يكون وصفاً لتجليات الروح. ودعونا نتابع الوصف الذي أطلقه بولس على الروح؛ ودعونا نقارن تجربتنا بوصفه. وبهذا يمكننا أن نكتشف مقدار ابتعادنا عن تجربة بولس وفي الوقت نفسه نكتشف مقدار تشابه تجربتنا بتجربته. وإن كلماته الغريبة هذه قد تكشف المزيد لنا عن حياتنا على نحو أفضل عما يعتقده معاصرونا ويكتبونه عن طبيعة الانسان وحياته ومصيره.

«الروح نفسه يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله». إن هذه الكلمات تتضمن أن روحنا عاجزة عن أن تعطينا مثل هذا اليقين. إن روحنا أي عقلنا الطبيعي وفكرنا وإرادتنا وعواطفنا وكل حياتنا الباطنية لا تستطيع أن تعطينا اليقين بأننا أولاد الله. ليس معنى هذا أن بولس يحط من شأن الطبيعة والروح الانسانيين. بل بالعكس، إنه وهو يتحدث عن روحنا يعترف بخلق الانسان وتشابهه مع الله الذي هو روح وقدرته على أن يكون حراً بنفسه وتحرير الطبيعة كلها من العبث وقيد الفساد عن طريق تحرره. «إننا أيضاً من نسله»، هكذا قال بولس للأثينيين

في خطبته الشهيرة على جبل أريوباجوس وهكذا أكد فلاسفتهم. إن بولس يفكر في الانسان وهو يُكِنُّ له تقديراً كبيراً كما يستطيع أي إنسان حديث. ولقد وصف فيلسوف شهير في عصر النهضة بكلمات غنائية وضع الانسان في قلب الطبيعة ولا تناهيه وإبداعه والوحدة والامتلاء فيه بكل القوى الطبيعية. وبولس قد يوافق على هذا. لكن بولس عرف شيئاً أكثر مما عرف الفلاسفة اليونان وهو شيء نسيه فلاسفة عصر النهضة ألا وهو أن الروح الانسانية مرتبطة بالجسد الانساني وأن الجسد الانساني معاد لله.

«الجسد الانساني» لا يعني الجسم الانساني. إن جسم الانسان كما يرى بولس قد يكون معبد الروح. (لكن الجسد الانساني) يعني الأهواء الانسانية الطبيعية ورغبات الانسان واحتياجاته وطريقته في التفكير وغرض إرادته وطابع مشاعره، بقدر ما هي مفصولة عن الروح ومعادية له. إن (الجسد) هو تشويه للطبيعة الانسانية، سواء اسْتُعْمل لإبداعه ـ سواء اسْتُعْمِل أولاً وقبل كل شيء للاتناهية في خدمة رغبته غير المحدودة وإرادته غير المحدودة في القوة. وهذه الرغبة التي نعرف عنها شيئاً من خلال علم النفس الحديث وهذه الارادة في القوة التي علمنا عنها الكثير من علم الاجتماع الحديث مغروستان في وجودنا الفردي في الزمان والمكان، في الجسم والجسد. وهذا ما يسميه بولس قوة الجسد المشوهة.

إنه يصف إرادة الجسد بعمق لا مثيل له. «إهتمام الجسد هو عداوة لله إذ ليس هو خاضعاً لناموس الله (لأنه أيضاً لا يستطيع)» فإذا تلقينا ناموساً يجب أن نعترف به والذي لا نستطيع أن نحققه من جهة أخرى فإن نفسنا تطور على نحو حتمي الكراهية ضد من أعطى الناموس. إن الأب الذي هو ممثل الناموس الذي يقف ضد رغبة الطفل يصبح بالضرورة موضوع كراهية الطفل اللاشعورية وهي كراهية قد تصبح شعورية وقد تبدو وهي مزودة بقوة هائلة. إن هذا لن يكون على هذا النحو لو كان الناموس ضد رغبته غير المنظمة وغير المقيدة قد استشعره الطفل على أنه تعسفي وغير مبرر. لكنه يشعر به وقد نال التبرير، لقد أصبح جزءاً من الأنا الأعلى للطفل أي جزءاً من سلطة المجتمع على نحو ما يقول علم النفس الحديث؛ أو بلغة الأخلاق التقليدية إنه أصبح مطلباً لضميره. فلأن الناموس الذي أعطاه الأب رائع والطفل لا يملك إلا أن يعترف به ولأن

الناموس لا يمكن الهرب منه فإن الطفل يجب أن يكره الأب؛ فهو يبدو أنه سبب الانقسام المُعَذِّب في نفس الطفل. هذا هو موقف الانسان أمام الله. إن الإنسان الطبيعي يكره الله ويعتبره عدوه لأنه يمثل للانسان الناموس الذي لا يستطيع أن يصل إليه والذي يناضل ضده والذي في الوقت نفسه يجب أن يعترف بأنه رائع وحقيقي. وفي هذه النقطة لا يوجد فرق بين المؤمن والملحد. إن الالحاد ليس سوى شكل من أشكال العداوة ضد الله ألا وهي أن الله الذي يمثل الناموس ومع الناموس يوجد الانقسام واليأس ولامعنى وجودنا. إن الملحد شأنه شأن المؤمن يكره أن يُوَاجَه بما يجب أن يكون عليه وبالمعنى الأقصى والخير اللذين لا يمكن له أن ينكرهما واللذين مع هذا لا يستطيع أن يصل إليهما. إن الملحد يعطي أسماء أخرى لله الذي يكرهه لكنه لا يستطيع أن يهرب منه بمثل ما لا يستطيع أن يهرب من كراهيته له. وهذا هو السبب الذي دفع بولس إلى أن يقول: «الروح أيضاً يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله». إن روحنا لا تشهد إلا بأننا أعداؤه!

وعندما تتحدث المسيحية على نحو دائم عن الله وحبنا لله في حياتنا اليومية علينا أن نتذكر أن عظمة الله تتعرض للتحدي عندما نجعله الأب المحب قبل أن ندركه على أنه القانون الذي يدين والذي نكرهه في أعماق قلوبنا.

«الروح يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله». لقد ظهر شيء جديد، لقد ظهرت حقيقة جديدة، لقد ظهر وجود جديد، لقد ظهرت روح تتميز عن روحنا، ومع هذا تجعل نفسها مفهومة لروحنا فيما وراءنا ومع هذا فينا. إن الرسالة الشاملة للمسيحية قائمة في هذه العبارة، إن المسيحية تقهر الناموس واليأس باليقين القائل بأننا أولاد الله. ولا يوجد شيء أعلى من هذا. فرغم أننا في الجسد وفي ظل الناموس وفي قفص وجودنا فإننا في الوقت نفسه في الروح وفي اكتمال ووحدة مع المعنى الأقصى لحياتنا. وهذا التناقض الظاهري هو عند بولس المحتوى المدهش والمتحدث بالإنسانية والذي لا يُصَدَّق للمسيحية. وهذا اليقين يعطيه الدافع ليلقى موعظة رسالته للعالم كله ولقهر العالم. إن هذا اليقين قد أعطاه القوة لكي يقطع رابطته بطبقته المغلقة وأمته وأن يأخذ على عاتقه قدراً كبيراً من المعاناة والنضال وأن يأخذ على عاتقه في النهاية الاستشهاد. لقد قهر المسيح الناموس، نظام الأوامر الذي يجعلنا عبيداً

لأننا لا نستطيع أن نفلت منه والذي يلقي بنا في وهدة اليأس لأنه يجعلنا أعداء مصيرنا وخيرنا الأقصى. فإذا كان لدينا يقين بأننا أولاد الله فإن المقصود بهذا عند بولس (أن لدينا الروح). ومن هذا اليقين يترتب كل شيء يجعل الوجود المسيحي على ما هو عليه. إنه يعطينا أولاً وقبل كل شيء القوة كي نصيح: «أبانا» أي القوة لكي نُصَلِّ صلاة الرب. إن من لديه الروح هو وحده الذي لديه القوة لكي يقول الله «أبانا».

إن كل إنسان يستطيع أن (يقول) صلاة الرب، ويرددها الملايين وملايين المرات كل يوم. ولكن كم عدد الذين من بينهم ممن يقولونها قد تلقى القوة لكي (يصليها)؟ إن أبوّة الله التي هي المحتوى الأعظم والذي لا يصدق المسيحية قد أصبحت عبارة من ضمن العبارات المعتادة والخالية من المعنى في الحياة اليومية. لقد نسيت المسيحية أنه في كل محتوى لله باعتباره أباً فإن العداوة ضد الله يجب قهرها وأن تعطينا الروح اليقين الانجذابي لطفولتنا. وهناك الكثيرون ممن هم خارج المسيحية يعرفون المزيد عن هذا اليقين أفضل من أولئك الذين داخل المسيحية. إنهم يعرفون أن تسمية الله (الأب) مليئة بالتناقض الظاهري والاستحالة. ولكن عندما يكتسب الانسان الحرية فإن (روح القيد) بالخوف تقهرها (روح الاختيار). عندما تتوفر لدى الطفل لحظة يمكن أن نسميها لحظة اللطف أو النعمة فإنه فجأة يفعل الخير بحرية بدونه أو بل أكثر مما يوجد في الأمر؛ إن السعادة تتوهج في وجهه. إنه يتوازن في نفسه بدون وجود عداوة ويكون ممتلئ حبّاً. ان القيد والخوف يختفيان؛ وتكف الطاعة عن أن تكون طاعة وتصبح تضميناً حراً؛ تتحد الأنا والأنا الأعلى. هذه هي حرية أولاد الله، حرية من الناموس ولما كانت حرية من الناموس فهي أيضاً حرية من مصير اليأس.

وإن من لديهم الروح يمشون لا وراء الجسد بل وراء الروح. تتحطم قوة اليأس اللامتناهي والارادة اللامتناهية. إنها لا تتلاشى؛ إن الجوع والتعطّش للحياة يظلان. ولكن عندما تكون الروح حاضرة بالنسبة لنا تتحول الرغبة إلى الحب وتتحول إرادة القوة إلى العدل. وفي الإصحاح العظيم عن الحب في الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس يوضح بولس أن الحب هو ثمرة الروح وأنه لا يوجد حب بدون وجود الروح. الحب ليس مسألة ناموس. وطالما أن هناك

أمراً فإن الحب لا يوجد. كما أن الحب ليس مسألة عاطفة انفعالية. إنه مستحيل بالنسبة للانسان الطبيعي؛ وهو كله جذب ووجد في مظهره شأنه في هذا شأن كل هبة من هبات الروح.

وأخيراً فإن الروح هي الحياة. «لأن اهتمام الجسد هو موت». هناك رجل في زماننا اكتشف حقيقة هذه العبارة العميقة. لقد تبين سيجموند فرويد أن في جذر رغباتنا اللامتناهية تكمن إرادة الموت. إن الفرد وهو يشعر باستحالة تحقيق رغبته يريد أن يخلص نفسه منها بأن يفقد نفسه كفرد. إن الموت محتم، لكنه أيضاً مختار. لا (يجب) أن نموت فحسب، بل إننا أيضاً (نريد) أن نموت «لأن اهتمام الجسد هو موت».

غير أن بولس يواصل قوله: .«ولكن اهتمام الروح هو حياة وسلام». إن الروح حياة، حياة خلاقة على حد قول ترنيمة قديمة. إن كلمة (الروح) قد اختفت إلى حد كبير من لغتنا اليومية واختفت كلية من مصطلحنا العلمي. لقد حلت محلها كلمة (العقل). لكن العقل يتجادل حول ما قد تلقاه؛ إنه يحلل الحياة وفي الأغلب يقتل الحياة. إنه ليس الحياة نفسها؛ إنه بدون قوة خلاقة. لكن الروح هي قوة كما أنها عقل، إنها توحد القوة والعقل وتتجاوزهما. إنها حياة خلاقة. ليست القوة وحدها وليس العقل وحده هو الذي يخلق أعمال الفن والشعر، أعمال الفلسفة والسياسة؛ إن الروح تخلقها فردياً وكلياً، قوية ومليئة بالعقل في الوقت نفسه. في كل عمل إنساني عظيم نحن نعجب بالعمق الذي لا يستنفد للفرد الذي أبدع والطابع الذي لا مثيل له والقوة الخاصة بشيء يحدث ولكن لمرة واحدة ولا يمكن أن يتكرر وهو مع هذا مشاهد قرناً بعد قرن، كلياً ومتاحاً في كل حقبة.

ما من حجة للعقل بقادرة على إعطاء اليقين. إن المتناهي لا يستطيع أن يحاج من أجل اللامتناهي؛ إنه لا يستطيع أن يصل إلى الله ولا يستطيع إطلاقاً أن يصل إلى خلوده. ولكنْ هناك يقينان: يقين يستقر في كل نفس لتعرف نفسها. إنه اليقين الذي يفرضه الناموس من أنه لا توجد حياة ولا يوجد موت، ولا توجد شجاعة ولا يوجد إنفلات يمكن أن يحررنا من الآمر أن نكون ما يجب أن نكون عليه واستحالة أن نكون على هذا النحو والذي يعني اليأس. إن أبدية اليأس تحيط بنا في اللحظة التي نعي فيها رؤيتنا للناموس. واليقين الثاني

يستقر في أولئك الذين لديهم روح؛ إنهم يتجاوزون تناهيهم وهم لا يستطيعون أن يلجأوا إلى الحجج لأن خلودهم ماثل لهم. ليست المسألة مسألة حياة مستقبلية بعد الموت؛ إنها الحضور المُقْنِع للروح التي هي حياة بما يجاوز الحياة والموت.

وفي قصة عيد العُنْصرة(*) فإن روح المسيح أظهرت إبداعها في كلا الاتجاهين: الفردي والكلي. إن كل حواري تلقى لسان اللهب الذي هو الروح المبدعة الجديدة. إن أعضاء كل الأمم وقد انفصلوا بألسنتهم المختلفة فهموا بعضهم بعضاً بهذه الروح الجديدة التي تخلق سلاماً جديداً وراء انقسام بابل - إنه سلام الكنيسة. زيادة على ذلك فإن الروح عند بولس هي الحياة الأبدية. من الواضح أن اليقين بأننا أولاد الله وأننا متحدون بالمعنى الأبدي لحياتنا هو نفسه أبدي أو أنه لا شيء. ليست هناك حجة عقلية بشأن خلود نفوسنا. هنا والآن نحن محاطون باليأس الذي لا ينتهي أبداً والذي يلقى الناموس بثقله علينا. هنا والآن نحن محاطون بالحياة الأبدية والتي لا تستنفد التي تخلقها الروح التي هي شاهدة على حقيقة أننا أبناء الله.

ولكن قد يقول أحدنا: «إنني لم أتلق هذه المشاهدة.. إنني لم أعش حياة الروح التي تحدث عنها بولس. «إنني لست مسيحياً بهذا المعنى». أنظروا إلى رد بولس. ربما كان رده أكثر أقواله باعثاً على الحيرة وأشدها أسرارية: «وكذلك الروح أيضاً يعين ضَعَفاتنا. لأننا لسنا نعلم ما نصلي لأجله كما ينبغي ولكنَّ الروح نفسه يشفع فينا بأنّات لا يُنْطَق بها. ولكن الذي يفحص القلوب يعلن ما هو اهتمام الروح. لأنه بحسب مشيئة الله يشفع في القديسين». إن بولس يعلم حقيقة أننا عادة ما يستولي علينا ضعفنا الذي يجعل تجربة الروح

(*) هو أصلاً عيد الأسابيع عند اليهود ويقع في اليوم الخمسين بعد عيد الغفران. وقد هبط الروح القدس على الحواريين في هذا اليوم. وهو ينطبق على عيد المسيحيين الذي يحتفل بهذه المناسبة. وقد جاء في الإصحاح الثاني من أعمال الرسل: «ولما حضر يوم الخمسين كان الجميع معاً بنفس واحدة. وصار بغتة من السماء صوت كما من هبوب ريح عاصفة وملأ كل البيت حيث كانوا جالسين. وظهرت لهم ألسنة منقسمة كأنها من نار واستقرت على كل واحد منهم. وامتلأ الجميع من الروح القدس وابتدأوا يتكلمون بألسنة أخرى كما أعطاهم الروح أن ينطقوا» (المترجم).

والصلاة الحقة مستحيلتين. ولكنه يقول لنا إنه في تلك الفترات لا يجب أن نعتقد بأن الروح بعيدة عنا. إنها فينا وإن كنا لا نعيشها. إن تنهّدنا في عمق نفوسنا والذي نحن عاجزون عن أن نفصح عنه بالتفصيل ينقله الله إلى عمل الروح داخلنا! ينقله إلى الإنسان الذي يشتاق إلى الله ولا يستطيع أن يجده؛ ينقله إلى الإنسان الذي يريد أن يعترف به الله والذي حتى لا يؤمن بأن الله موجود؛ ينقله إلى الأنسان الذي يبحث عن معنى جديد خالد ولا يستطيع أن يكتشفه ـ إلى هذا الإنسان يتكلم بولس. وكُلٌ منا مثل هذا الإنسان. في مثل هذا الموقف، حيث الروح هنا أبعد ما تكون عن وعينا، وحيث نحن عاجزون عن الصلاة أو أن نعيش أي معنى للحياة، وفي هذا الموقف تعمل الروح بهدوء في عمق نفوسنا. في اللحظة التي نشعر فيها بأننا منفصلون عن الله ونشعر باللامعنى في حياتنا ويكون محكوماً علينا باليأس فإننا نحن لسنا متروكين وحدنا. إن الروح وهي تتنهد وتشتاق فينا ومعنا تمثلنا. إنها تكشف عما نحن عليه حقاً. إننا بشعورنا هذا ضد الشعور، وفي إيماننا هذا ضد الإيمان، وفي معرفتنا هذه ضد المعرفة نحن مثل بولس نملك الكل. ومن هم خارج هذه التجربة لا يملكون شيئاً. وبولس رغم جسارة إيمانه وعمق تصوفه هو أكثر إنسانية وأكثر واقعية ـ إنه أقرب إلى أولئك الضعفاء عما هو بالنسبة للأقوياء. إنه يعرف أننا مع كل المخلوقات الأخرى في مرحلة التوقع والاشتياق والمعاناة مع كل الحيوانات والزهور، مع المحبطات والرياح. إن الأنين الصامت لتلك المخلوقات يُدَوّي بصوت الاشتياق الصامت للنفس الإنسانية. إن بولس يعرف أن ما يجب أن يكون لم يظهر بعد. ومع هذا كتب رسالته الحافلة بالانتصار والوجد الصوفي عن الروح والحياة. ليست روحه هي التي ألهمته بأن يكتب تلك الكلمات؛ بل بالأحرى هي الروح القدس التي تجلت لروحه والتي تجلت لأرواحنا بأننا أبناء الله.

(17)

من هو المسيح

«ثم خرج يسوع وتلاميذه إلى قرى قيصريَّة*رفيلبُّس. وفي الطريق سأل تلاميذَه قائلاً لهم من يقول الناس إني أنا. فأجابوا يوحنا المعمدان. وآخرون إيليّا. وآخرون واحد من الأنبياء. فقال لهم وأنتم من تقولون إني أنا. فأجاب بطرس وقال له أنت المسيح. فانتهرهم كي لا يقولوا لأحد عنه. وابتدأ يعلمهم أن ابن الإنسان ينبغي أن يتألم كثيراً ويُرْفَضَ من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة ويُقْتَل؛ وبعد ثلاثة أيام يقوم. وقال القوْلَ علانيةً. فأخذه بطرس إليه وابتدأ ينتهره. فالتفت وأبصر تلاميذه فانتهر بطرس قائلاً اذهب عني يا شيطان. لأنّك لا تهتم بما لله لكن بما للناس».

(مَرْقُس 8: 27 ـ 33)

هذه القصة هي لب انجيل مَرْقُص. وفي هذه القصة نجد قلب الرسالة المسيحية. والرسالة متناهية البساطة ومع هذا فهي رسالة غنية وعميقة ومتمركزة في كلمتين (أنت المسيح). ودعونا ننظر في هذه الرسالة في ضوء قصتنا التي هي البداية الحقيقية للهوى والموت.

لقد إنطلق المسيح وتلامذته إلى قرى قيصرية رفيلبس في طريق يقع بين قرى غير مهمة في وقت يبدو أنه غير محدد فقيل عنه (حينئذٍ). ولكن على هذا الطريق وقع أهم حدث في التاريخ الإنساني. وعندما نقول أهم حدث فليس هذا من وجهة نظر المؤمن فحسب، بل من وجهة نظر المراقب المنفصل لتاريخ العالم. وكلمة (حينئذٍ) غير المحددة تشير إلى أكبر لحظة محددة وحاسمة في تجربة البشرية، وهي اللحظة التي فيها جرؤ إنسان على أن يقول لإنسان آخر: (أنت المسيح).

في الطريق لقد سأل تلاميذه: «من يقول الناس إني أنا» فقالوا له: «يوحنا المعمدان» و«آخرون إيليا» و«آخرون واحد من الأنبياء» لماذا أعطوه ألقاباً ترفعه فوق الإنسان العادي؟ الأمر يرجع إلى أنهم توقعوا شيئاً غير عادي: مجيء النظام العالمي الجديد في المستقبل القريب. لقد انتظرت كل الأجيال عبثاً هذه المرحلة الجديدة لعالم يسود فيه العدل والسلام. لقد اعتقد الناس أن جيلهم سيشهد مجيئه. ولكن قبل مجيئه كان على المبشرين أن يظهروا ليعلنوا مجيئه ولكي يهيئوا الناس لهذا. قد يأتي إيليا من السماء الذي رُفع إليه؛ ربما ينبعث إرميا من بين الموتى؛ أو قد يظهر نبي آخر؛ وحتى يوحنا المعمدان قد يعود من قبره. لقد شعروا أن وراء شخص هذا الراهب المعلم والمداوي يوجد شيء غامض خفي. لقد اعتقدوا أنه لا بد أنه قناع واحد من المبشرين الذين يأتون لتهيئة الحقبة الجديدة والنهائية للتاريخ. هذا هو ما سمعه التلاميذ من الناس.

ورغم مرور ألفي عام على المسيحية إلا أنه لا يزال هناك مثل هؤلاء الناس، فالمسيح عندهم يظل المبشر والعالم الجديد ومن الذي يحمله لا يزالان في المستقبل وسوف يأتيان. والعدل والسلام لم يشرعا بعد في أن يحكما ويسودا. قد يكون العالم الجديد في متناول اليد أو قد يكون بعيداً كل البعد عنا. وعلى أي حال فإنّه لم يظهر بعد. هذا هو الشعوّر المميز للشعب اليهودي، الشعور الذي حال بينهم وبين أن يكونوا مسيحيين. وهو أيضاً الشعور لدى جماعات كبيرة داخل العالم المسيحي اليوم، وهو الشعور الذي يدفعهم إلى الانتظار وإلى العمل لعالم السلام والعدل رغم إحباطهم الدائم ودوماً عليهم أن يبدأوا من جديد. فإذا تصورنا أن يسوع سيسألنا اليوم: «من يقول الناس إني أنا» فيجب أن نردّ بالضبط كما فعل تلامذته الأول. . إنه أحد المبشرين ورغم أنه قد يكون أعظمهم جميعاً إلا أنه على الأرجح ليس آخرهم، إنه مبشر ونبي ولكن ليس ذلك الذي سيحقق كل شيء. إن حكم العدل والسلام والعالم الجديد لم يأت بعد.

وهكذا سألهم: (وأنتم) من تقولون إني أنا» ذلك السؤال الذي ينطرح أمام كل مسيحي في كل وقت. إنه السؤال الذي ينطرح أمام الكنيسة ككل لأن الكنيسة تنبني على جواب هذا السؤال وهو الرد الذي قال به بطرس: «أنت

المسيح». ولقد عبر في هذه الكلمات عن شيء مختلف تماماً عما قاله الناس. لقد نفى أن يسوع من المتنبئين؛ ولقد نفى أن يكون هناك توقع لشخص عداه. لقد أكد أن الشيء الحاسم في التاريخ قد ظهر، وأن المسيح، حامل الجديد، قد جاء في شخص يسوع هذا والذي كان يمشي معه على طريق القرية والمترب شمالي فلسطين.

فهل لا يزال في استطاعتنا أن نستشعر معنى عبارة بطرس؟ إن الأمر شاق علينا لأن كلمة (المسيح) قد أصبحت الاسم الثاني ليسوع. ولكن عندما أطلق بطرس كلمة المسيح على يسوع كانت كلمة (المسيح) لا تزال تعد لقباً حافلاً برسالة موجهة. لقد شخصته الكلمة على أنه الذي يحمل تحرر إسرائيل وانتصار الله على الأمم وتبديل القلب الانساني وإقامة حكم مسيحي للسلام والعدل. ومن خلال المسيح سوف يتحقق التاريخ. إن الله سوف يصبح مرة أخرى سيد البشرية؛ وسوف تتغير الأرض وتصبح مكاناً للبركة. كل هذا متضمن في كلمات بطرس: «أنت المسيح».

إن عظمة ومأساة اللحظة التي نطق فيها بطرس هذه الكلمات ماثلة في رد فعل يسوع: لقد منعهم أن يخبروا أي مخلوق عن شخصه. إن الطابع المسيحي ليسوع هو طابع السر. إن معنى هذا الأمر لم يكن مماثلاً لمعناه بالنسبة للناس. فلو كانوا قد سمعوه وهو يسمي نفسه المسيح فإنهم لا بد وأن يكونوا قد توقعوا إما زعيماً سياسياً عظيماً أو شخصاً إلهياً قادماً من السماء. إنه لم يؤمن بأن العمل السياسي وتحرير إسرائيل وسحق الامبراطورية يمكن أن تخلق حقيقة جديدة على الأرض. وهو لم يستطع أن يسمي نفسه المسيح الإلهي دون أن يبدو مجدفاً في نظر أولئك الذين أساءوا فهمه بالضرورة. فالمسيح ليس (ملك سلام) سياسياً تتوقعه أمم كل التاريخ والذي نتوقع اليوم ظهوره، كما أنه ليس (ملك العظمة) الإلهية والذي كان يتوقعه كثير من كهنة عصره والذي نتوقعه اليوم أيضاً. إن سره أكثر عمقاً؛ وهو لا يمكن التعبير عنه من خلال الأسماء التقليدية. إنه لا يمكن أن ينكشف إلا من خلال الأحداث التي ستقع بعد اعتراف بطرس: المعاناة والموت والقيامة مرة أخرى. وربما لو ظهر اليوم لكان منع رجال الكنيسة المسيحية أن يتحدثوا عنه لمدة طويلة. «فانتهرهم كي لا يقولوا لأحد عنه». وإن كنائسنا تتحدث عنه يوماً بعد يوم،

البعض يتحدث عنه في إطار أنه الملك السياسي للسلام والبعض يتحدث عنه في إطار ملك العظمة الإلهية. لقد أسموه المسيح يسوع وقد نسوا وجعلونا ننسى ماذا يعني القول: يسوع هو المسيح. إن أكبر حادثة لا تصدق ومستحيلة من الناحية الانسانية ـ راهب يهودي متجول هو المسيح ـ قد أصبحت أمراً طبيعياً بالنسبة لنا.

دعونا على الأقل أحياناً نُذَكِّر أنفسنا وشعبنا بأن (المسيح يسوع) يعني (يسوع الذي قيل إنه هو المسيح). دعونا نسأل أنفسنا ونسأل الآخرين من وقت لآخر ما إذا كنا نتفق بجدية مع صيحة بطرس المليئة بالوجد وما إذا كان قد استحوذ علينا سر هذا الإنسان. وإذا لم نستطع أن نرد بالإيجاب أفلا يجب أن نصمت على الأقل لكي نحتفظ بسر الكلمات بدل أن ندمر معناها بحديثنا العام الشائع؟

ولقد شرع يعلمهم أن ابن الإنسان يجب أن يتحمل الكثير من المعاناة، ويجب أن يُنْبَذ من جانب الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة، ويجب أن يُقْتل وبعد ثلاثة أيام يقوم من جديد. لقد تحدث عن هذا بحرية تامة. ففي اللحظة التي أسماه فيها بطرس المسيح تنبأ يسوع بمعاناته وموته. ولقد بدأ يكشف سر مصيره المسيحي. لقد كان عكس كل شيء توقعه الناس وما حلم به العرافون وما أمل فيه الأتباع. يجب أن تنبذه سلطات الأمة السياسية والتي سيصبح المسيح عليها ملكاً. كان يجب أن تنبذه السلطات الدينية لشعب مختار والتي سيصبح المسيح عليها زعيماً. كان يجب أن يُنبذ من جانب السلطات الثقافية المؤمنة بالتراث حيث يتم قهر كل التراث الوثني من خلال المسيح. لقد كان عليه (هو) أن يعاني ـ ذلك الذي كان متوقعاً منه أن يحول كل معاناة إلى بركة. كان عليه (هو) أن يموت ذلك الذي كان مفروضاً فيه أن يظهر في عظمة إلهية. إن يسوع لم ينكر رسالته المسيحية التبشيرية. ولقد دلَّ في الكلمات الرمزية الخاصة (بالقيامة بعد ثلاثة أيام) على أن نبذه ووفاته لن يكونا هزيمة بل خطوة ضرورية في الطريق إلى أن يصبح المسيح. إنه لا يمكن أن يكون المسيح إلا من خلال المسيح الذي يعاني والذي يموت. وعلى هذا النحو فقط (يكون) هو المسيح أو كما أسمى نفسه بشكل أكثر غموضاً: ابن الإنسان.

لقد أخذه بطرس وبدأ يبرهن له من جديد على كلماته. لكن يسوع

التفت إليه ونظر إلى تلامذته وعنّف بطرس قائلاً: «إذهب عني يا شيطان. لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس». لم يكن هناك أحد في زمن يسوع يشك في أن الله بعث المعاناة والشهادة حتى بالنسبة للأتقياء. والعهد القديم يبرهن على هذا في كل صفحة. ولهذا ليست هذه الواقعة هي التي شكلت تاريخ آلام المسيح التي تشكل الجانب الأهم في الإنجيل كله. ليست قيمة المعاناة ولا قيمة موت بطولي هي التي أعطت قوة لصورة الصلب. إن هناك صوراً عديدة للمعاناة الشديدة والموت البطولي في التاريخ الإنساني. ولكن لا يمكن لأية صورة منها أن نعقد مقارنة بينها وبين صورة موت يسوع. لقد حدث شيء فريد في معاناته وموته. لقد كان بجانب أنه سر الهي، غير معقول إنسانياً وغير ضروري إلهياً. ولهذا عندما هزه بطرس وحاول وهو ممتلئ أسى وحباً أن يمنعه من التوجه إلى القدس اعتبر يسوع نشدانه اغراء شيطانياً. . . إن هذا كان سيدمر طابعه التبشيري المسيحي. إنه وهو المسيح كان عليه أن يعاني ويموت. إن المسيح الحقيقي هو مسيح القوة والعظمة.

لقد كان على المسيح أن يعاني ويموت، وذلك لأنه عندما يظهر ما هو إلهي بكل عمقه فإن البشر لن يستطيعوا أن يتحملوه. لقد كان على ما هو إلهي أن تدفعه السلطات السياسية والسلطات الدينية وحَمَلَة التراث الثقافي بعيداً. ونحن ننظر في صورة المصلوب رفض البشرية لما هو إلهي. ونحن نرى في هذا الرفض لا أدنى تمثيل للبشرية بل أعظم تمثيل لها وقد جرت إدانته عندما ظهر ما هو إلهي. إنه هجوم شديد على كل شيء طيب في الإنسان ولهذا يجب أن يدفعه الإنسان ويجب صلبه. وعندما يظهر ما هو إلهي نفسهُ على انه الحقيقة الجديدة فإنه يجب أن يُنْبذ من جانب ممثلي الحقيقة القديمة.. وذلك لأن ما هو إلهي لا يُكْمل ما هو إلهي؛ إنه يتمرد ضد ما هو بشري. وبسبب ذلك فإن ما هو بشري يجب أن يدافع عن نفسه ضده، يجب أن ينبذه، ويحاول أن يدمره.

ومع هذا عندما يجري نبذ ما هو إلهي فإنه يأخذ النبذ على عاتقه. إنه يتقبل صلبنا ونبذنا ودفاعنا ضده. إنه يتقبل رفضنا لكي يتقبلنا ومن ثم يقهرنا. هذا هو لب سر المسيح. ودعونا نحاول تصور مسيح لا يموت ويأتي في عظمة لكي يفرض علينا قوته وحكمته وأخلاقه وتقواه. إنه قد يكون قادراً على

أن يحطم مقاومتنا بقوته وسيطرته العجيبة وحكمته المعصومة وكماله الذي يُقَاوَم، لكنه لا يستطيع أن يكسب، قلوبنا. إنه قد يحمل ناموساً جديداً ويمكن أن يفرضه علينا بشخصيته الكلية القوة والكمال. إن قوته ستحطم حريتنا؛ وعظمته ستستولي علينا مثل الشمس الحارقة الكاسحة؛ وإن إنسانيتنا سوف تستولي عليها إلوهية. ومن أشد بصائر مارتن لوثر عمقاً قوله ان الله يجعل نفسه صغيراً بالنسبة لنا في المسيح. إنه يترك لنا حريتنا وإنسانيتنا. لقد أرانا قلبه حتى يمكن أن يكسب قلوبنا.

وعندما ننظر إلى سر عالمنا وشرّه وخطيئته خاصة في تلك الأيام التي تميز نهاية حقبة عالمية فإننا نَحِنُّ إلى التدخل الالهي حتى يمكن قهر العالم وحكامه الشياطين. إننا نحنُّ إلى ملكٍ للسلام داخل التاريخ أو نَحِنُّ إلى ملك للعظمة فوق التاريخ. إننا نَحنُّ إلى مسيح للقوة. ولكن إذا كان عليه (هو) أن يأتي ويغيرنا ويغير عالمنا فإن علينا أن ندفع الثمن (الوحيد) الذي نستطيع أن ندفعه؛ علينا أن نفقد حريتنا وإنسانيتنا وعظمتنا الروحية. ربما نكون أسعد؛ ولكن سنكون كائنات دنيا ولن نطيق بؤسنا ونضالنا ويأسنا الحالي. إننا سنكون حيوانات أكثر بركة يصيغها الناس على صورة الله. وإن أولئك الذين يحلمون بحياة أفضل ويحاولون أن يتجنبوا الصَلْب كطريق، وأولئك الذين يأملون في مسيح ويحاولون استبعاد المصلوب ليست لديهم معرفة بسر الله وسر الإنسان.

إنهم الأفراد الذين يجب أن يعدّوا المسيح مجرد بشير. . إنهم أولئك الأفراد الذين يجب أن يتوقعوا الآخرين الذين لديهم قوة أكبر لتغيير العالم وأن يتوقعوا الآخرين الذين لديهم حكمة أكبر لتغيير قلوبنا. ولكن حتى ما هو أعظم في القوة والحكمة لا يستطيع أن يكشف قلب الله وقلب الإنسان على نحو أكبر مما فعله المصلوب من قبل. إن تلك الأمور قد انكشفت مرة واحدة وللأبد. لقد (حدثت وانتهت). في وجه المصلوب فإن كل ما هو (أكثر) وكل ما هو (أقل) وكل تقدم وكل اقتراب ودنو بلا معنى. ولهذا نستطيع أن نقول عنه (هو) وحده: إنه الحقيقة الجديدة؛ إنه النهاية والغاية؛ إنه المسيح المبشر. للمصلوب وحده نستطيع أن نقول: «أنت المسيح».

(18)

الانتظار

«إنتظرتك يا ربُّ انتظرتَ نفسي وبكلامه رجوت. نفسي تنتظر الرب أكثر من المراقبين الصبْحَ أكثر من المراقبين الصبح. لِيَرْجُ إسرائيلُ الربَّ لأن عند الرب الرحمة وعنده فِدىً كثير».

(المزامير 130: 5 ـ 7)

«لأننا بالرجاء خَلَصْنا. ولكن الرجاءَ المنظور ليس رجاء. لأن ما ينظره أحد كيف يرجوه أيضاً. ولكن إن كنا نرجو ما لسنا ننتظره فإننا نتوقعه بالصبر».

(رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية 8: 24 ـ 25)

يصف كلا العهدين: القديم والجديد وجودنا في علاقته بالله على أن هذه العلاقة علاقة انتظار. في المزمور نجد انتظاراً قلقاً؛ وفي الرسول يوجد انتظار صابر. الانتظار يعني (عدم) الملكية والملكية في الوقت نفسه. وذلك لأنّنا (لا) نملك ما ننتظره؛ أو كما يقول بولس الرسول إذا نحن أملنا فيما (لا) نراه فإننا (حينئذٍ) ننتظره. إن شرط علاقة الإنسان بالله هي أولاً وقبلَ كل شيء (عدم) ملكية و(عدم) رؤية و(عدم) معرفة و(عدم) إستحواذ. وإنّ الدين الذي ينسى ذلك إنما يحل محل الله خلقه لصورة لله مهما يكن هذا الدين مليئاً بالوجد أو الفعل أو العقل. وإن حياتنا الدينية تتميز بذلك النوع من الخلق أكثر من أي شيء آخر. وأنا أعتقد أن اللاهوتي الذي لا ينتظر الله لأنه يمتلكه ينغلق داخل معتقد. وأنا أعتقد أن الدارس للإنجيل والذي لا ينتظر الله لأنه يمتلكه ينغلق داخل كتاب. وأنا أعتقد أن رجل الكنيسة الذي لا ينتظر الله لأنه يمتلكه ينغلق في مؤسسة. وأنا أعتقد أن المؤمن الذي لا ينتظر الله إنما ينغلق داخل

تجربته. وليس أمراً سهلاً أن نتحمّل ألا يكون لدينا الله، ليس أمراً سهلاً أن نتحمّل انتظار الله، ليس من السهل أن نقدم موغظة الأحد أحداً بعد أحد دون أن نقنع أنفسنا والآخرين أننا (نمتلك) الله ونستطيع أن نهبه. ليس من السهل أن ننادي بالله للأطفال والوثنيين وللشكاك والدنيويين وفي الوقت نفسه نوضح لهم أننا أنفسنا لا نمتلك الله وأننا أيضاً ننتظره. وأنا مقتنع بأن كثيراً من التمرد ضد المسيحية إنما يرجع إلى الزعْم الصريح أو المُقَنّع بأن المسيحيين يمتلكون الله وبالتالي يفتقدون هذا العنصر الخاص بالانتظار وهذه مسألة هامة بالنسبة للأنبياء والحواريين. ودعونا لا ننخدع في التفكير في ذلك لأنهم يتحدّثون عن الانتظار وهم ينتظرون للنهاية فحسب، دينونة وتحقق كل شيء وليس الله الذي يتسبب في هذه النهاية. إنهم لا يمتلكون الله؛ إنهم ينتظرونه، فكيف يمكن تملك الله؟ هل الله شيء يمكن الاستحواذ عليه ويمكن معرفته ضمن الأشياء الأخرى؟ هل الله أقل من الإنسان؟ إننا دائماً ننتظر مخلوقاً بشرياً. وحتى في أشد تواصل صحيح يوجد عنصر (عدم) التملك و(عدم) المعرفة والانتظار. ولهذا لما كان الله خفياً وحراً ولا يمكن عدّه بشكل لامتناه فإننا يجب أن ننتظره بأكثر الطرق إطلاقية وجذرية. إنه الله بالنسبة لنا طالما أننا (لا) نمتلكه. إن صاحب المزامير يقول إن كل وجوده ينتظر الرب وهو يشير إلى ذلك الانتظار لله ليس على أنه مجرد جزء من علاقتنا بالله، بل بالأحرى إنه شرط تلك العلاقة ككل. إننا نمتلك الله من خلال (عدم) تملكه.

غير أن الانتظار رغم أنه (عدم) تملك فإنه أيضاً تملك. فحقيقة أننا ننتظر شيئاً تكشف بشكل ما أننا نحرزه من قبل. إن الانتظار يتوقع ما ليس حقيقياً. فإذا انتظرنا آملين وصابرين فإن قوة ذلك الذي ننتظره تؤثر فينا من ذي قبل. إن من ينتظر بالمعنى الأقصى للانتظار ليس بعيداً بالمرة عن ذلك الذي ينتظره. وإن من ينتظر بجدية مطلقة هو في قبضة ما ينتظره. وإن من ينتظر صابراً قد تلقى من قبل قوة ذلك الذي ينتظره. ومن ينتظر بانفعال يكون هو نفسه من قبل قوة فاعلة، بل أكبر قوة تغيير في الحياة الشخصية والتاريخية. ونحن نكون أقوى عندما ننتظر عما عندما نملك. وعندما نمتلك الله فإننا ننقص من قدره فيصبح شيئاً صغيراً نعرفه ونستحوذه؛ ونجعل هذا الشيء صَنَماً. وفي العبادة الصنمية وحدها يؤمن الانسان بامتلاك الله. وهناك الكثير من هذه الصنمية بين المسيحيين.

ولكن إذا عرفنا أننا لا نعرفه وإذا كنا ننتظره حتى يصبح معروفاً لنا فإننا حينئذٍ نعرف شيئاً عنه حقاً، وإنه حينئذٍ يستحوذ علينا ويعرفنا ويتملكنا. (آنذاك) نكون مؤمنين في عدم إيماننا ونكون مقبولين لديه رغم انفصالنا عنه.

وعلى أية حال دعونا لا ننس أن الانتظار هو توتر هائل. إنه يعوق كل رضا فيما يتعلق بعدم ملكية شيء أو عدم الاكتراث أو الاحتقار الشديد لأولئك الذين لديهم شيء ويحدث غرق في الشك واليأس. فدعونا ألا نجعل من زهونا بعدم تملك شيء تملكاً جديداً. وهذا هو إغراء من الاغراءات الكبرى في عصرنا، فهناك أشياء قليلة متروكة نزعم أنها ممتلكات. ونحن نستسلم لنفس الاغراء عندما نتباهى في محاولتنا أن نمتلك الله أننا لا نمتلكه. وإن الرد الالهي على مثل هذه المحاولة هو الفراغ التام. إن الانتظار ليس يأساً. إنه التقبل، تقبل عدم ملكيتنا، في قوة ما نملكه من ذي قبل.

إن عصرنا هو عصر إنتظار؛ إن الانتظار هو قدره. وكل زمان هو زمان انتظار، انتظار للنفاذ في الابدية. إن كل زمان يجري للأمام. وكل زمان من التاريخ والحياة العملية على السواء هو توقع. الزمان نفسه هو انتظار، انتظار لا لزمان آخر، بل انتظار لما هو أبدي.

(19)

مقبولون

«وأما الناموس فدخل لكي تكثر الخطيّة. ولكن حيث كثرت الخطية ازدادت النعمة جداً».

(رسالة بولس الرسول إلى أهل رمية 5: 20)

تلخص كلمات بولس هذه تجربته الرسولية ورسالته الدينية ككل والفهم المسيحي للحياة. وحتى يمكن مناقشة هذه الكلمات أو حتى يمكن أن نجعل منها نص عدة مواعظ بدا لي دائماً أمراً مستحيلاً. إنني لم أجرؤ إطلاقاً من قبل أن أستخدم هذه الكلمات. ولكن هناك شيئاً دفعني إلى النظر فيها خلال الأشهر القليلة الماضية وتولتني رغبة أن أعطي شاهداً على حقيقتين بدتا لي في ساعات استعادة أحداث الماضي على أنهما الحقيقتان المحددتان كلياً لحياتنا: وفرة الخطيئة والوفرة الأكبر للنعمة.

لا توجد سوى كلمات قليلة تبدو لمعظمنا أكثر غرابة من (الخطيئة) و(النعمة). إنهما غريبتان لا لشيء سوى أنهما معروفتان تماماً. وعلى مدار القرون اكتسبتا دلالات مشوهة وفقدتا الكثير من قوتهما الأصلية حتى أنه ينبغي علينا أن نسألَ أنفسنا بجدية ما إذا كان يجب استخدامهما أصلاً أم ننحيهما على أنهما أداتان لا فائدة منهما. ولكن هناك حقيقة غامضة عن الكلمات الكبيرة في تراثنا الديني: إن هذه الكلمات الكبيرة لا يمكن أن يحل محلها شيء آخر. وكل المحاولات لعمل بدائل بما في ذلك التي حاولت بنفسي أن أقوم بها قد فشلت في نقل الحقيقة التي يجب التعبير عنها؛ وقد انتهت إلى أن تكون كلاماً ضحلاً وعقيماً. لا توجد بدائل لكلمات من نوع (الخطيئة) و(النعمة). ولكن (يوجد) طريق لإعادة اكتشاف معناهما، الطريق نفسه الذي يفضي بنا إلى عمق

وجودنا الانساني. في ذلك العمق جرى تصور هاتين الكلمتين؛ و(هناك) اكتسبتا القوة لكل العصور؛ و(هناك) يجب أن نجدهما مع كل جيل ومع كلٍّ منا لنفسه. ولهذا دعونا ننفذ إلى الطبقات الأعمق من حياتنا لكي نرى ما إذا كنا نستطيع أن نكتشف فيها الحقائق التي تتحدث عنها النصوص.

هل لا يزال لدى أناس عصرنا شعور بمعنى الخطيئة؟ هل لا يزالون يدركون وهل لا نزال ندرك أن الخطيئة (لا) تعني فعلاً غير خلقي وأن كلمة (الخطيئة) لا يجب استخدامها كاسم جمعي وأنه لا خطايانا بل (خطيئتنا) هي المشكلة الكبرى الشاملة المحيطة بحياتنا؟ هل لا نزال نعرف أنه من الصلف والخطأ أن نُقَسِّم الناس بأن نسمي البعض (خطاة) والبعض الآخر (تقاة)؟ فعن طريق مثل هذا التقسيم نستطيع عادة أن نكتشف أننا أنفسنا لا نمت (تماماً) إلى الخطاة، لأننا قد تجنبنا الخطايا الوبيلة وقمنا ببعض التقدم في السيطرة على هذه الخطيئة أو تلك، ولقد أصبحنا حتى متواضعين فلا نسمي أنفسنا (تقاة). فهل لا نزال قادرين على إدراك هذا النوع من التفكير والشعور عن الخطيئة على أنه بعيد تماماً عما قصده التراث الديني العظيم داخل الإنجيل وخارجه عما يقصده عندما يتحدث عن الخطيئة؟

وأحب أن أقترح عليكم كلمة أخرى لا كبديل لكلمة (خطيئة) بل كمفتاح مفيد في تفسير كلمة (الخطيئة). إن الانفصال هو جانب من تجربة كل إنسان. وربما لكلمة (الخطيئة) نفس جذر كلمة (التباعد). على أية حال إن (الخطيئة هي إنفصال). والانفصال ثلاثي: هناك انفصال بين الأفراد، وانفصال الانسان عن نفسه، وانفصال الناس جميعاً عن أساس الوجود. هذا الانفصال الثلاثي يشكل حالة كل شيء يوجد؛ إنه حقيقة كلية؛ إنه مصير كل حياة. وهو مصيرنا الانساني بمعنى خاص جداً. (فنحن) كبشر نعرف أننا منفصلون. ونحن لا نعاني مع المخلوقات الأخرى بسبب النتائج المدمرة لانفصالنا فحسب، بل نحن نعرف أيضاً (لماذا) نعاني. إننا نعرف أننا مغتربون عن شيء نمت إليه حقاً، وبه (يجب) أن نتحد. إننا نعرف أن قدر الانفصال ليس مجرد حدث طبيعي مثل ومضة برق مفاجىء، بل هو تجربة نشارك فيها بشكل فعال وفيها تنخرط شخصيتنا بكاملها، وهذا الانفصال باعتباره قَدراً هو أيضاً (ذنب). إن الانفصال الذي هو قدر ومصير (و) ذنب يشكل معنى كلمة (خطيئة). و(هذا)

هو حالة وجودنا بتمامه، منذ بدايته الأولى إلى نهايته الختامية. مثل هذا الانفصال يتم الاعداد له في رحم الأم، وقبل ذلك، في كل جيل سابق. وهو جلي في الأعمال الخاصة لحياتنا الشعورية. إنه يصل إلى ما وراء قبورنا في كل الأجيال التالية. إنّه وجودنا نفسه. (إنّ الوجود انفصال!) فالخطيئة قبل أن تكون فعلاً هي حالة.

ونحن نستطيع أن نقول الأشياء نفسها عن النعمة، وذلك أن الخطيئة والنعمة مقترنتان معاً. ونحن حتى لا تكون لدينا معرفة بالخطيئة ما لم تكن لدينا من قبل تجربة وحدة الحياة والتي هي النعمة. والأمر بالعكس أيضاً، فنحن لا نستطيع أن نلتقط معنى النعمة بدون تجربة انفصال الحياة الذي هو الخطيئة. إن النعمة صعب وصفها صعوبة وصف الخطيئة؛ وهي عند البعض الرغبة في مَلِكٍ وأب إلهي ليسامح وبالتالي يغفر غباء وضعف رعاياه وأطفاله. علينا أن ننحي مثل هذا المفهوم عن النعمة؛ فهو مجرد تدمير طفولي لكرامة إنسانية. والنعمة عند آخرين هي قوة سحرية في الأماكن المظلمة من النفس، لكنها قوة بدون أي معنى بالنسبة للحياة العملية، وهي فكرة متلاشية وعديمة الجدوى بسرعة. والنعمة بالنسبة لطائفة ثالثة هي الأريحية التي قد نجدها بجانب القسوة والتدمير في الحياة. ولكن لن يهم آنذاك سواء قلنا (الحياة تسير) أم قلنا (هناك نعمة في الحياة)؛ وإذا كانت النعمة لا تعني أكثر من هذا فإن الكلمة يجب أن تختفي وسوف تختفي. والنعمة عند طائفة رابعة تدل على الهبات التي يتلقاها الإنسان من الطبيعة أو المجتمع، والقوة على القيام بالأشياء الطيبة بمساعدة تلك الهبات. غير أن النعمة أكثر من الهبات. ففي النعمة هناك شيء يتم قهره؛ إن النعمة تحدث (بالرغم من) شيء؛ إن النعمة تحدث بالرغم من الانفصال والغربة. إن النعمة هي إعادة وحدة الحياة مع الحياة، وتصالحها مع نفسها. إن النعمة هي تقبل ذلك الذي يجري نبذه. إن النعمة تحول المصير إلى قدر ذي معنى؛ إنها تحول الإثم إلى ثقة وشجاعة. هناك شيء ينتصر في كلمة (النعمة): بالرغم من وفرة الخطيئة فإن النعمة أكثر وفرة.

والآن دعونا نتطلع إلى أنفسنا لنكتشف فيها الصراع بين الانفصال وإعادة الوحدة، بين الخطيئة والنعمة في علاقتنا بالآخرين وعلاقتنا بأنفسنا وعلاقتنا بأساس الوجود وهدف وجودنا. فإذا كانت نفوسنا تستجيب للوصف الذي

قصدت أن أعطيه فإن كلمات مثل (الخطيئة) و(الانفصال) و(النعمة) و(إعادة الوحدة) قد يصبح لها معنى جديد لنا. غير أن الكلمات نفسها ليست هامة. إنَّ ما هو هام هو الاستجابة لأعمق وجودنا. فإذا ما حدثت مثل هذه الاستجابة بيننا في هذه اللحظة فإنه يمكن القول إننا قد كسبنا النعمة.

من منا لم يكن وحيداً في وقت ما وسط حادثة اجتماعية؟ إن الشعور بانفصالنا عن بقية الحياة يكون الأكثر دقة عندما نكون محاطين به وسط الضجة والحديث. إننا ندرك حينذاك عما في لحظات العزلة-كم نحن غرباء بالنسبة لبعضنا وكم غريبة هي الحياة عن الحياة. إن كلامنا يرتد إلى نفسه. إننا لا نستطيع أن ننفذ إلى اللب الخفي لفرد آخر؛ ولا يمكن لمثل هذا الفرد أن يتجاوز الستر الذي يغطي وجودنا. وحتى أعظم حب لا يستطيع أن ينفذ من جدران النفس. فمن منا الذي لم يعش إزالة الوهم هذه في كل حب عظيم؟ وإذا كان على المرء أن يجعل نفسه تستسلم استسلاماً تاماً فإنه يصبح شيئاً بدون شكل أو قوة، سيصبح نفساً بلا نفس، مجرد شيء معرض للاحتقار وإساءة استعماله. إن جيلنا يعرف أكثر مما عرفه جيل آبائنا عن العداوة الخفية في أساس نفوسنا. إننا اليوم نعرف الكثير عن العدوانية الوافرة في كل وجود. نستطيع اليوم أن نؤكد ما كان الفيلسوف الألماني إمانويل كانت نبي العقل الانساني والكرامة يقوله بأمانة شديدة: هناك شيء في سوء حظ خيرة أصدقائنا مما لا يسرنا. من منا الذي يكون غير أمين على نحو كاف فينكر أن هذا حقيقي أيضاً عنه؟ ألسنا مستعدين دائماً لسوء إستخدام كل إنسان وكل شيء حتى لو كان بشكل مهذب للغاية من أجل لذة الارتقاء النفسي، من أجل فرصة للتباهي، من أجل لحظة للشهوة؟ وإن معرفة أننا مستعدون هي أن نعرف معنى انفصال الحياة عن الحياة ومعرفة (وفرة الخطيئة).

إن أكبر تعبير نهائي عن انفصال الحياة عن الحياة اليوم هو موقف الجماعات الاجتماعية اليوم كل منها تجاه الجماعات الأخرى وموقف الأمم نفسها تجاه الأمم الأخرى. لقد أزيلت جدران المسافة في الزمان والمكان بالتقدم التكنولوجي؛ لكن جدران الغربة بين القلب والقلب قد تدعمت بشكل مخيف. وإن جنون النازية الألمانية وقسوة الجماهير المشاغبة في الجنوب يطرحان تبريراً لنا كي نحول أفكارنا عن أنفسنا. ولكن دعونا ننظر في أنفسنا

وما نشعر به عندما نقرأ صباحاً ومساء أن كل الأطفال في بعض مناطق أوربا دون الثالثة من العمر مرضى ويموتون أو أن الملايين في بعض مناطق آسيا بدون بيوت وأنهم يتجمدون ويتعرضون للموت. إنّ غربة الحياة عن الحياة جلية في الحقيقة الغريبة التي تذهب إلى أننا نستطيع أن نعرف كل هذا ومع هذا نستطيع أن نحيا صباحاً ومساء كما لو كنا في تمام الجهل بهذا. وأنا أشير إلى أكثر الناس حساسية بيننا. من كلا البشرية والطبيعة نجد أن الحياة قد انفصلت عن الحياة. إن الغربة قائمة وسط كل الأشياء الموجودة. إن الخطيئة تتكاثر.

ومن الأهمية بمكان أن نتذكر اننا لا ينفصل بعضنا عن بعض فحسب، فنحن منفصلون أيضاً عن أنفسنا. (الانسان ضد نفسه) ليس مجرد عنوان كتاب بل هو بالأحرى يدل على إعادة اكتشاف بصيرة قديمة. لقد انقسم الانسان في نفسه. إن الحياة تتحرك ضد نفسها من خلال العدوان والكراهية واليأس. ونحن نميل إلى إدانة حب الذات؛ ولكن ما نقصد حقاً أن ندينه هو عكس حب الذات. إنه ذلك الخليط من الأنانية والكراهية الذاتية وذلك الخليط يغرينا دائماً، وذلك الخليط يحول بيننا وبين حب الآخرين وهو يمنعنا من أن نفقد أنفسنا في الحب الذي به نُحَبُّ إلى الأبد. إنَّ من هو قادر على أن يحب نفسه قادر على أن يحب الآخرين أيضاً؛ وإن من تعلم أن يقهر احتقار الذات إنما قد قهر احتقاره للآخرين. غير أن عمق إنفصالنا يكمن في حقيقة أننا عاجزون عن الحب الالهي العظيم والرحيم نحو أنفسنا. بل بالعكس، فينا غريزة تدمير الذات، وهي قوية قوة غريزة حفظ الذات لدينا. ونحن في ميلنا إلى إساءة استخدام الآخرين وتدميرهم هناك ميل صريح أو خفي لإساءة استخدام أنفسنا وتدميرها. إن القسوة تجاه الآخرين هي دائماً أيضاً قسوة تجاه أنفسنا. ولا يوجد شيء أوضح من الانقسام في كلا حياتنا اللاشعورية وشخصيتنا الواعية. وبدون عون علم النفس الحديث عبر بولس عن الحقيقة في كلماته الشهيرة: «لأني لست أعرف ما أنا أفعله إذ لسْتُ أفعل ما أريده بل ما أبغضه فإياه أفعل»(*) ثم استمر في كلماته التي قد تكون شعاراً رائعاً لعلم نفس الأعماق:

(*) رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية 7: 15 (المترجم).

«فالآن لست بعد أفعل ذلك أنا بل الخطية الساكنة فيّ»(*) لقد استشعر الحواري إنقساماً بين إرادته الواعية وإرادته الحقيقية، بين نفسه وشيء غريب في الداخل وغريب عنه. لقد اغترب عن نفسه؛ وهذا الاغتراب يسميه (خطيّة). وهو يسمي هذا أيضاً (ناموساً) غريباً: «ولكني أرى ناموساً آخر في أعضائي» (**) إنه شيء قهري لا يقاوم. وكثيراً ما نرتكب أعمالاً معينة بوعي تام ومع هذا مع شعور فظيع بأن قوة غريبة تسيطر علينا. هذه هي تجربة انفصال أنفسنا عن أنفسنا والتي هي (الخطية) سواء أحببنا استخدام تلك الكلمة أم لا.

وهكذا نجد أن حالة حياتنا الكلية عبارة عن اغتراب عن الآخرين وعن أنفسنا، لأننا مغتربون عن أساس وجودنا، لأننا مغتربون عن أصل حياتنا وهدفها. ونحن لا نعرف من أين جئنا أو إلى أين نمضي. إننا منفصلون عن سر وجودنا وعمقه وعظمته. ونحن نسمع صوت ذلك العمق؛ لكن آذاننا صماء. ونحن نشعر أنَّ هناك شيئاً جذرياً وكلياً وغير مشروط يطلبنا؛ لكننا نتمرّد ضده ونحاول أن نهرب من إلحاحه ولا نقبل وعده.

وعلى أية حال لا نستطيع أن نهرب. فإذا كان ذلك الشيء هو أساس وجودنا فنحن مقيدون به إلى الأبد بمثل ما نحن مقيدون بأنفسنا وبكل الحياة الأخرى. إننا نظل دائماً في قبضة ذلك الذي منه نغترب. وتلك الحقيقة تحملنا إلى العمق الأقصى للخطيئة: نحن مفصولون ومع هذا مقيدون، مغتربون ومع هذا نشتاق، مدمَّرون ومع هذا محفوظون، إنها الحالة التي تسمى يأساً. إن اليأس يعني أنه لا يوجد مفرّ. اليأس هو «مرض حتى الموت». لكن الشيء المرعب عن مرض اليأس هو أننا لا يمكن أن نتحرر منه حتى ولو بالانتحار جهرة أو خفية. فنحن جميعاً نعرف أننا مقيدون للأبد ودون مهرب بأساس وجودنا. وهوة الانفصال لا تُرى دائماً. لكننا ازددنا بها رؤية في جيلنا عن الأجيال السابقة بسبب شعورنا باللامعنى والخواء والشك والسخرية ـ وكلها تعبير عن اليأس وعن انفصالنا عن جذور حياتنا ومعناها. إن الخطيئة بمعناها الأعمق، الخطيئة باعتبارها يأساً متوفِّرة بيننا.

(*) رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية 7: 17 (المترجم).

(* *) رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية 7: 23 (المترجم).

«ولكن حيث كثرت الخطيّة ازدادت النعمة جداً» هكذا يقول بولس في رسالته التي وصف فيها القوة غير المتخيلة للانفصال والدمار الذاتي داخل المجتمع والنفس الفردية. إنه لا يقول هذه الكلمات لأن المصالح العاطفية الانفعالية تقتضي نهاية سعيدة لكل شيء مأساوي. إنه يقول هذه الكلمات لأنها تصف تجربة حياته الشاملة والكلية. ففي صورة يسوع على أنه المسيح والتي لاحت له في لحظة انفصاله الأكبر عن الآخرين وعن نفسه وعن الله وجد نفسه مقبولاً رغم أنه مرفوض. وعندما وجد أنه مقبول كان قادراً على أن يتقبل نفسه وأن يتصالح مع الآخرين. في اللحظة التي أصابته النعمة وغمرته عاود وحدته مع ما يمت إليه وما منه اغترب في غربة شاملة. فهل نعرف ما معنى أن يصاب الانسان بالنعمة أو اللطف؟ إنه (لا) يعني أننا فجأة نؤمن بوجود الله أو أن يسوع هو المخلِّص أو أنّ الانجيل يحتوي الحقيقة. إن الإيمان بأن شيئاً (يوجد) يكاد يكون عكس معنى النعمة أو اللطف. زيادة على ذلك فإن النعمة لا تعني ببساطة أننا نصنع تقدماً في سيطرتنا الذاتية الخلقية أو في نضالنا ضد أخطاء بعينها وفي علاقاتنا بالناس والمجتمع. قد يكون التقدم ثمرة النعمة؛ لكنه ليس النعمة نفسها، بل إنه قد يحول بيننا وبين تلقي النعمة. فهناك أيضاً وفي الغالب تقبل بلا نعمة للعقائد المسيحية وهناك معركة لا نعمة فيها ضد أبنية الشر في شخوصنا. مثل هذه العلاقة التي بلا نعمة مع الله قد تفضي بنا بالضرورة إما إلى تكبّر أو إلى يأس. ويفضل أن نرفض الله والمسيح والإنجيل عن أن نتقبلهم دون نعمة. فإذا نحن تقبلنا بدون نعمة فإننا نفعل هذا في حالة الانفصال ولا ننجح إلا في تعميق الانفصال. إننا لا نستطيع أن نغيّر حياتنا ما لم نتح لها أن تتغير بلمسة النعمة هذه. إنها تحدث أو لا تحدث. ومن المؤكد أنها (لا) تحدث إذا حاولنا فرضها على أنفسنا بمثل أنها لا تحدث طالما نحن نفكر ـ برضانا الذاتي ـ إننا لا نحتاج إليها. إن النعمة تمسنا عندما نكون في الألم العظيم والقلق العظيم. إنها تمسنا عندما نسير في الوادي الحالك للحياة الخاوية والخالية من المعنى. إنها تمسنا عندما نشعر بأن انفصالنا أعمق مما هو معتاد لأننا انتهكنا حياة أخرى، حياة نحبها، أو انفصلنا عما منه نغترب. إنها تمسنا عندما لا نعود نطيق ضعفنا وعداوتنا ونقص الاتجاه وربطة جأشنا. إنها تمسنا عندما لا يظهر عاماً بعد عام الاشتياق لكمال الحياة، عندما تسود أشكال الإكراهات القديمة داخلنا على مدى عقود السنين، عندما يدمر الناس كل

الفرح والشجاعة. وفي تلك اللحظة يحدث أحياناً أن تنطلق موجة من الضوء في حلكتنا ويكون الأمر كما لو كان هناك صوت يقول: «إنكم مقبولون. (إنّكم مقبولون) من جانب ذلك الذي هو أعظم منكم والذي لا تعرفون اسمه. لا تسألوا عن الاسم الآن؛ ربما تجدونه فيما بعد. لا تحاولوا أن تفعلوا أي شيء الآن؛ وربّما تفعلون المزيد فيما بعد. لا تتحدثوا من أجل شيء؛ لا تقوموا بشيء؛ لا تقصدوا أي شيء. (بكل بساطة تقبلوا أنكم مقبولون!)». فإذا حدث ذلك لنا فإننا نعيش تجربة النعمة. وبعد مثل تلك التجربة قد لا نكون أفضل مما كنا، وربما لا نكون أكثر إيماناً عما ذي قبل. لكن كل شيء يتغير. في تلك اللحظة تقهر النعمة الخطيئة، والتصالح يقيم جسراً على هوة الاغتراب. وليس هناك شيء مطلوب من هذه التجربة، وليس مطلوباً افتراضات دينية أو خلقية أو عقلية، ليس مطلوباً إلا (التقبل).

وفي ضوء هذه النعمة نتصور قوة النعمة في علاقتنا بالآخرين وأنفسنا. إننا نعيش تجربة نعمة قدرتنا على أن نتطلع صراحة في عيون الآخرين، النعمة الاعجازية لإعادة وحدة الحياة مع الحياة. إننا نعيش تجربة نعمة فهم كل منا لكلمات الآخرين. ونحن لا نفهم فحسب المعنى الحرفي للكلمات بل أيضاً ذلك الذي يكمن وراءها حتى لو كانت مندفعة أو غاضبة. فحتى هناك يوجد اشتياق للنفاذ من جدران الانفصال. إننا نعيش نعمة قدرتنا على تقبل حياة الآخرين حتى لو كانت معادية وضارة لنا وذلك لأننا من خلال النعمة نعرف أنها تمت إلى الأساس نفسه الذي ننتمي إليه والذي به يجري تقبلنا. إننا نعيش تجربة النعمة القادرة على قهر الانفصال المأساوي بين الجنسين وبين الأجيال وبين الأمم وبين الأعراق بل وحتى الغربة الشاملة بين الإنسان والطبيعة. أحياناً تبدو النعمة في كل هذه الانفصالات لإعادة توحدنا مع أولئك الذين ننتمي إليهم. وذلك لأن الحياة تنتمي للحياة.

وفي ضوء هذه النعمة نتصور قوة النعمة في علاقتنا بأنفسنا. إننا نعيش لحظات فيها نتقبل أنفسنا لأننا نشعر بأننا مقبولون عند ذلك (الذي) هو أكبر منا، وذلك إذا مُنحت لنا مثل هذه اللحظات!. فمثل تلك اللحظات هي التي تجعلنا نحب الحياة وتجعلنا نتقبل أنفسنا، لا في خيريتنا وزهونا بل في يقيننا بالمعنى الأبدي لحياتنا. إننا لا نستطيع أن نرغم أنفسنا على تقبل حياتنا. نحن

لا نستطيع أن نرغم أحداً على تقبل نفسه. ولكن يحدث أحياناً أننا نتلقى قوة على أن نقول (نعم) لأنفسنا وأن السلام ينفذ فينا ويجعل منا كُلاً وأن الكراهية الذاتية والاحتقار الذاتي يختفيان وأن نفسنا تعاد وحدتها مع نفسها. وحينئذٍ نستطيع أن نقول إن النعمة قد أصابتنا.

إن (الخطيئة) و(النعمة) كلمتان غريبتان؛ لكنهما ليستا شيئين غريبين. إننا نجدهما عندما نطل في أنفسنا بعيون باحثة وقلوب متشوقة. إنهما تحددان حياتنا. إنهما متوفرتان معنا وفي كل الحياة. فهل نأمل أن تزداد النعمة وفرة معنا!

(20)

مولود في القبر

«ولما كان المساء جاء رجل غني من الرّامة اسمه يوسف. وكان هو أيضاً تلميذاً ليسوع. فهذا تقدم إلى بيلاطس(*) وطلب جسد يسوع. فأمر بيلاطس حينئذٍ أن يُعطي الجسد. فأخذه يوسف ولفّه بكتان نقي. وَوَضَعه في قبره الجديد الذي كان قد نحته في الصخرة ثم دحرج حجراً كبيراً على باب القبر ومضى. وكانت هناك مريم المجدلية(**) ومريم الأخرى جالستين تجاه القبر. وفي الغد الذي بعد الاستعداد اجتمع رؤساء الكهنة والفريسيّون إلى بيلاطس قائلين: يا سيِّدُ قد تذكرنا أن ذلك المُضِلَّ قال وهو حي إنِّي بعد ثلاثة أيام أقوم فَمُرْ بضبط القبر إلى اليوم الثالث لئلا يأتي تلاميذه ليلاً ويسرقوه ويقولوا للشعب إنه قام من الأموات. فتكون الضلالةُ الأخيرةُ أشرَّ من الأولى. فقال لهم بيلاطس عندكم حراس. إذهبوا واضبطوه كما تعلمون. فمضوا وضبطوا القبر بالحراس وختموا الحجر».

(إنجيل متى 27: 57 ـ 66)

في محاكمات نورمبرج الخاصة بمجرمي الحرب ظهر شاهد قد عاش فترة في قبر في فناء مدفن يهودي في فيلنا ببولندا. لقد كان هذا المكان هو الموضع الوحيد الذي استطاع أن يعيش فيه وكثيرون آخرون مختبئين بعد أن هربوا من غرف الغاز النازية. وخلال هذه الفترة كتب شعراً وإحدى القصائد تناولت وصف ميلاد. وفي قبر مجاور وضعت فتاة شابة مولوداً. وساعدها

(*) حاكم روماني في فلسطين حوالي 20 ميلادية حاول أن يتهرب من مسؤولية صلب المسيح (المترجم).

(* *) هي امرأة داوى المسيح روحها الشريرة وكانت حاضرة ساعة الصلب وكانت أول شاهد على قيامة المسيح (المترجم).

حفار قبور في الثمانين من عمره وهو ملفوف بكفن من الكتان. وعندما أطلق المولود أول صيحة صلى الرجل العجوز قائلاً: «أيها الرب العظيم، أبعثت إلينا أخيراً المسيح؟ فمن غير المسيح نفسه يمكن أن يولد في قبر؟» ولكن بعد ثلاثة أيام رأى الشاعر الطفل يلعق دموع أمه فلم يكن لديها لبن له.

هذه القصة التي تتجاوز أي خيال إنساني يمكن أن تكون مخترعة وليست فيها فحسب قيمة عاطفية لا مثيل لها بل فيها أيضاً قوة رمزية هائلة. عندما قرأتها لأول مرة خطر لي على نحو أكثر قوة من ذي قبل أن رموزنا المسيحية المستمدة من قصص الرسل والحواريين قد فقدت قدراً كبيراً من قوتها لأنها تكررت كثيراً واستخدمت استخداماً مصطنعاً عدة مرات. لقد جرى نسيان أن مدبر المسيحيين هو تعبير عن المسغبة التامة واليأس المُطبق قبل أن يصبح الموضع الذي ظهرت فيه الملائكة والتي أشار إليها النجم. ولقد جرى نسيان أن قبر يسوع هو نهاية حياته ونهاية عمله (قبل) أن يصبح موضوع انتصاره النهائي. لقد أصبحنا حساسين إزاء التوتر اللامتناهي الوارد في كلمات عقيدة الرسل والحواريين: «المعاناة... الصلب، الموت والدفن... يقوم ثانية من الموت». إننا نعرف من قبل عندما نسمع الكلمات الأولى ما هي النهاية: «القيامة من جديد» وبالنسبة للكثيرين هي ليست سوى (النهاية السعيدة) الحتمية. إن حفار القبور اليهودي القديم يعرف أفضل. فبالنسبة له يعد التوتر الذي لا مثيل له المتمثل في توقع المسيح حقيقة، تتمثل في التقابل اللامتناهي بين الأشياء التي رآها والأمل الذي يتمسك به.

ويتأكد عمق هذا التوتر بالقصة الأخيرة من الرواية. فبعد ثلاثة أيام لم يرتفع الطفل إلى العظمة؛ لقد مصّ دموع أمه فلم يكن لديه شيء آخر ليشربه. وربما مات وأمل اليهودي القديم قد أُحبِط من جديد بمثل ما أنه أُحبط آلاف المرات من قبل. ولا يمكننا أن نستخلص من هذه القصة أي عزاء؛ فلا يمكن أن توجد نهاية سعيدة ـ وهذا بالضبط هو حقيقة حياتنا. وفي فقرة بارزة كتب كارل بارت(*) في كتابه (القصيدة) عن كلمة (مدفون) الواردة في العقيدة: «إذا

(*) كارل بارت (1886 ـ 1968) لاهوتي بروتستنتي سويسري عارض الحكم النازي وهاجر من ألمانيا إلى سويسرا وهو متخصص في لاهوت الكلمة أو اللاهوت الجدلي وركز على إعادة حركة الاصلاح وكلمة الله ووحيه ليسوع المسيح (المترجم).

ما دُفن المرء فواضح أنه يتأكد وتنتهي - في حضوره وفي غيابه - إنه (لم يعد له) حاضر بقدر أنه لم يعد له مستقبل. لقد أصبح جزءاً من الماضي. وهو أصبح متاحاً فقط للذاكرة، وحتى هذا لا يكون إلا بالنسبة لأولئك القادرين والراغبين في تذكّره وأنهم هم أنفسهم ليسوا مدفونين. والمستقبل الذي يتجه إليه كل الحاضر الانساني هو هذا فحسب: أن يُدفن».

وتصف هذه الكلمات بالضبط الموقف الذي صلى فيه اليهودي القديم الورع: «الهنا العظيم، هل أرسلت لنا أخيراً المسيح؟».

ولكنّ هناك جانباً آخر بالنسبة للتأكيد القائل إنه لا يوجد شخص آخر سوى المسيح نفسه يمكن أن يولد في قبر، وهو جانب ربما لم يكن يدركه تماماً اليهودي التقي. إن المسيح (يجب) أن يدفن لكي يكون (المسيح)، أي الذي قهر الموت. إن قصة الرسول، أو الحواري التي سمعناها تؤكد لنا موت يسوع ودفنه الحقيقيين والمؤكدين. والنساء وكبار الكهنة والجنود والحجر الذي وُضع على القبر كلهم مدعوون من جانب الرسول أو الحواري أن يشهدوا حقيقة النهاية. وعلينا أن ننصت بانتباه أشد إلى هؤلاء اليهود، إلى هؤلاء الذين يقولون لنا بانتصار أو بزهو أنه قد دُفن وأنه قد أزيل للأبد من على ظهر الأرض وأنه ما من آثار حقيقية باقية له في عالمنا. وعلينا أيضاً أن ننصت للآخرين الذين يقولون وهم شاكون ويائسون: «لكننا نثق أنه هو الذي يفتدي بالكفارة اسرائيل». ليس صعباً أن نسمع هذه الأصوات اليوم في عالمنا حيث هناك أماكن عديدة مثل المقبرة اليهودية في فيلنا. فمن الممكن حتى أن نسمعهم في أنفسنا، فكل منا يسمعهم في نفسه.

ولكن إذا سمعناهم فبماذا يمكن أن نرد؟ دعونا نكن واضحين هنا. إن رد عيد الفصح رمز قيامة المسيح ليس ضرورياً. وفي الحقيقة لا توجد نهاية سعيدة محتمة كما في السينما. لكن رد عيد الفصح أصبح ممكناً لأن المسيح قد دُفن. إن الحياة الجديدة لن تكون حياة (جديدة) حقاً إذا لم تأت من النهاية الكاملة للحياة القديمة. ولكن إذا خرجت الحياة الجديدة من القبر فإن المسيح المبشر نفسه يكون قد ظهر.

(21)

تدمير الموت

«فإذ قد تشارك الأولاد في اللحم والدم اشترك هو أيضاً كذلك فيهما لكي يُبيد بالموت ذاك الذي له سلطان الموت أي إبليس ويُعْتق أولئك، الذين خوفاً من الموت كانوا جميعاً كل حياتهم تحت العبودية. لأنه حقاً ليس يمسك الملائكة بل يمسك نسل إبراهيم. من ثمّ كان ينبغي أن يشبه إخوته في كل شيء لكي يكون رحيماً ورئيس كهنةٍ أميناً في ما لله حتى يُكَفِّر خطايا الشعب. لأنه في ما هو قد تألم مُجَرَّباً يقدر أن يُعين المجربين».

(الرسالة إلى العبرانيين 2: 14 ـ 18)

إن الظلام الذي شع فيه نور عيد الميلاد هو قبل كل شيء ظلام الموت. إن تهديد الموت الذي يلقى بظله على الطريق الكلي لحياتنا هو الخلفية المظلمة هو توقع البشرية الخاص بمجيء المسيح إلى العالم ثانية. ليس الموت مجرد مقص يقطع خيط حياتنا كما يشير رمز قديم شهير، بل هو بالأحرى خيط من الخيوط المنسوجة في تصميم وجودنا منذ بدايته حتى نهايته. إن كوننا نموت هو قوة مُشَكِّلة عبر وجودنا كله جسماً ونفساً في كل لحظة. إن وجه كل إنسان يظهر أثر حضور الموت في حياته وخوفه من الموت وشجاعته تجاه الموت واستسلامه للموت. وهذا الحضور المخيف للموت يخضع الانسان للقيد والعبودية طوال حياته كما جاء في نصّنا. وطالما أقف في الخوف لا أقف في الحرية؛ ولا أكون حراً في العمل بما يقتضيه الموقف، لكنني مقيد في العمل حيث أنّ الصور والتخيلات الناجمة من خوفي تسوقني للعمل. فالخوف فوق كل شيء هو خوف من المجهول؛ وظلام المجهول مليء بالصور التي يخلقها الخوف. وهذا حق حتى بالنسبة للأحداث

على مستوى الحياة اليومية: الوجه المجهول يرعب الطفل؛ الارادة المجهولة للأب والمدرس تخلق الخوف عند الطفل، وكل التضحيات المجهولة في أي موقف أو مهمة جديدة تولد الخوف وهو الشعور بالعجز عن معالجة الموقف. وكل هذا حق بدرجة مطلقة بالنسبة للموت ـ المجهول المطلق؛ الظلام الذي ليس فيه نور على الإطلاق، والذي فيه يتلاشى حتى الخيال؛ ذلك الظلام الذي ينقطع فيه كل فعل وكل سيطرة والذي فيه ينتهي كل ما كنا عليه؛ إنه الفكرة الأكثر ضرورة والأكثر استحالة في الوقت نفسه؛ إنه الموضوع الحقيقي والأقصى للخوف والذي منه تستمد كل أشكال الخوف الأخرى قوتها، إنه ذلك الخوف الذي انتاب حتى المسيح في جتسميني في فلسطين عندما خانه أحد تلامذته.

ولكن علينا أن نسأل عن سبب هذا الخوف. ألسنا متناهين ومحدودين وعاجزين عن تخيل استمرار لامتناه لتناهينا ورغبتنا فيه؟ ألن يكون ذلك أكثر رعباً من الخوف؟ ألا يوجد شعور داخلنا بالامتلاء والرضا والقلق بشأن الحياة كما هو بيّن في الكلمات عن آباء الجنس البشري في العهد القديم؟ أليس ناموس «من التراب وإلى التراب» ناموساً طبيعياً؟ ولكن لماذا يُسْتخدم كلعنة في قصة الجنة؟ لا بد أن هناك شيئاً أكثر أسرارية على نحو عميق بالنسبة للموت عن الكآبة الطبيعية التي تصاحب إدراكنا أن وجودنا زائل ومؤقت. ولقد أشار بولس إليه عندما اعتبر الموت أجر الخطيئة والخطيئة الثمن الباهظ للموت. والنص الذي لدينا يتحدث بالمثل «عن ذلك الذي له قوة الموت ألا وهو الشيطان» ـ القوة المنظمة للخطيئة والشر. إن الموت رغم أنه طبيعي بالنسبة لكل موجود متناه يبدو أنه يقف في الوقت نفسه ضد الطبيعة. لكن الإنسان وحده هو الوحيد القادر على مواجهة موته بوعي؛ وهذا يمت إلى عظمته وكرامته. وهذا هو الذي يُمَكِّنه من النظر إلى حياته ككل، من بداية محددة إلى نهاية محددة. إنه ذلك الذي يُمَكِّنه أن يتساءل عن معنى حياته ـ وهو تساؤل يرفعه فوق حياته ويعطيه شعوراً بأبديته وخلوده. إن معرفة الإنسان أنه سيموت هي أيضاً معرفته أنه فوق الموت. إن قدر الانسان هو أن يكون فانياً وخالداً في الوقت نفسه. ونحن نعرف الآن الثمن الباهظ للموت ولماذا لدى الشيطان قوة الموت: لقد فقدنا خلودنا. ليس كوننا نموت هو الذي يخلق الخوف الأقصى

من الموت بل بالأحرى إنّه أننا فقدنا خلودنا فيما يتجاوز الموت الطبيعي والحتمي؛ ونحن قد فقدناه بالانفصال الآثم عن الأبدي؛ ونحن خطاة بسبب هذا الانفصال.

إن كوننا عبيداً للخوف من الموت إبّان حياتنا يعني أننا عبيد للخوف من الموت الذي هو طبيعة وخطيئة في الوقت نفسه. فالخوف من الموت ليس مجرد معرفة تناهينا بل أيضاً معرفة لا تناهينا، رغبتنا في الخلود وفقداننا للخلود. إننا عبيد الخوف لا لأننا نموت بل لأننا نستحق الموت!

ولهذا ليس الخلاص إجراء سحرياً به نفقد تناهينا. بل هو حُكْم يعلن أننا لا نستحق الموت لأننا مبررون ـ وهو حكم ليس قائماً على أي شيء فعَلناه، فساعتها من المؤكد لن يكون لدينا إيمان به. بل هو قائم على شيء فعلته الأبدية، شيء نستطيع أن نسمعه وأن نراه في حقيقة إنسان فانٍ بموته قد قهر ذلك الذي لديه قوة الموت.

فلو كان لعيد الميلاد أي معنى فإن له ذلك المعنى. إسألوا أنفسكم وأنتم تنصتون إلى نبوءات مجيء المسيح إلى العالم ثانية وقصص أعياد الميلاد سواء تغير موقفكم من الموت؛ وسواء استطعتم أن تواجهوا صورة موتكم. لا تخدعوا أنفسكم بشأن جدّية الموت ـ لا الموت بصفة عامة ولا موت أي شخص آخر، بل قوتكم الخاصة ـ بالحجج الرائعة عن خلود النفس. إن الرسالة المسيحية أكثر واقعية عن تلك الحجج. إنها تعرف أننا، (أننا حقاً) علينا أن نموت؛ ليس مجرد جزء منا هو الذي يموت. وفي داخل المسيحية لا توجد سوى (حجة) واحدة ضد الموت: العفو عن الخطايا والانتصار عليه ذلك الذي لديه قوة الموت. إنها تتحدث عن مجيء الأبدي إلينا، أن نصبح فانين لكي نستعيد أبديتنا وخلودنا. إن الإنسان بكليته فانٍ وخالد في الوقت نفسه: الانسان بكليته زماني وأبدي في الوقت نفسه؛ الإنسان بكليته محكوم عليه ويلقى خلاصه في الوقت نفسه لأن الأبدي يحتل مكاناً في الجسد والدم والخوف من الموت. هذه هي رسالة عيد الميلاد.

(22)

انظروا، هأنذا صانع أمراً جديداً

«هكذا يقول الرب الجاعل في البحر طريقاً وفي الحياة القوية مسلكاً. . . لا تذكروا الأوليات. والقديمات لا تتأملوا بها. هأنذا صانع أمراً جديداً. الآن ينبت. ألا تعرفونه. أجعل في البرية طريقاً في القفر أنهاراً»

(إشعياء 43: 16، 18 ـ 19)

دعونا ننصت لكلمات العهدين القديم والجديد التي تتحدث عن الجديد الذي يصنعه الله في الحياة والتاريخ:

«ها أيام تأتي يقول الرب وأقطع مع بيت إسرائيل ومع بيت يهوذا عهداً جديداً. ليس كالعهد الذي قطعته مع آبائهم يوم أمسكتهم بيدهم لأخرجهم من أرض مصر حين نقضوا عهدي فرفضتهم يقول الرب. بل هذا هو العهد الذي أقطعه مع بيت إسرائيل بعد تلك الأيام يقول الرب. أجعل شريعتي في داخلهم وأكتبها على قلوبهم وأكون لهم إلهاً وهم يكونون لي شعباً. ولا يعلمون بعد كل واحد صاحبه وكل واحد أخاه قائلين اعرفوا الرب لأنهم كلهم سيعرفونني من صغيرهم إلى كبيرهم يقول الرب. لأني أصفح عن إثمهم ولا أذكر خطيّتهم بعد».

(إرميا 31: 31 ـ 34)

(وكان إليّ كلام الرب). . .

«وأعطيهم قلباً واحداً وأجعل في داخلكم روحاً جديداً وأنزع قلب الحجر من لحمهم وأعطيهم قلب لحم».

(حزقيال 11: 19)

(وهكذا قال الرب). . .

«الضيّقات الأول قد نُسِيَتْ ولأنها استترت عن عينيَّ. لأني هأنذا خالق سموات جديدة وأرضاً جديدة فلا تُذكر الأولى ولا تخطر على بال بل افرحوا وابتهجوا إلى الأبد في ما أنا خالق»

(إشعياء 65: 16 ـ 18)

ولكن لا تدعونا نحذف الكلمات المأساوية الواردة لدى الواعظ:

«باطل الأباطيل قال الجامعة. باطل الأباطيل الكل باطل. . . ما كان فهو ما يكون والذي صُنع فهو الذي يُصنع فليس تحت الشمس جديد. إنْ وُجدَ شيء يقال عنه انظر هذا جديد فهو منذ زمانٍ كان في الدهور التي قبْلَنَا».

(الجامعة 1: 2، 9 ـ 10)

وهذه هي الإجابة التي أدلى بها الرسول: «إذن إن كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة: الأشياء العتيقة قد مضت. هو ذا الكل قد صار جديداً».

(رسالة بولس الرسول الثانية إلى أهل كورنثوس 5: 17)

(فقال لهم يسوع). . . «ليس أحد يجعل رقعة من قطعة جديدة على ثوب عتيق. لأنَّ المِلْءَ يأخذ من الثوب فيصير الخِرْق أردَأ. ولا يجعلون خمراً جديدة في زِقَاقٍ عتيقة لئلا تَنشَقَّ الزِّقَاقُ فالخمر تنصبّ والزِّقاق تَتْلَفُ: بل يجعلون خمْراً جديدة في زِقَاقٍ جديدة فتُحْفَظُ جميعاً».

(متّى 9: 16 ـ 17)

وأخيراً دعونا ننصت لعراف العهد الجديد: «ثمّ رأيت سماء جديدة وأرضاً جديدة لأن السماء الأولى والأرض الأولى مَضَتَا والبحْرُ لا يوجد فيما بعد. وأنا يوحنا رأيت المدينة المقدسة أورشليم الجديدة نازلةً من السماء من عند الله مهيّأة كعروس مُزَيَّنَةً لرَجُلِهَا. وسمعت صوتاً عظيماً من السماء قائلاً هوذا مَسْكَنُ اللهِ مع الناس وهو سيسكن معهم وهم يكونون له شَعْباً والله نفسه يكون معهم إلهاً لهم. وسيمسح الله كل دمعة من عيونهم والموْتُ لا يكون فيما بعد ولا يكون حزن ولا صراخ ولا وَجَعٌ في ما بعد لأن الأمور الأولى قد مضت. وقال الجالس على العرش هأنا أصنع كل شيء جديداً».

(رؤيا يوحنا اللاهوتي 21: 1 ـ 5)

دعونا نتأمل فيما هو قديم وجديد، في أنفسنا وفي عالمنا في هذه النصوص الإنجيلية نجد أن الجديد مطروح مقابل القديم. . القديم مرفوض، وينطرح بكلمات عاطفية توقّع الجديد. وحتى الجامعة الذي يرفض إمكانية أي شيء جديد حقاً على الأرض لا يخفي اشتياقه للجديد وخيبة أمله في عدم قدرته على أن يجده. فلماذا يشعر هؤلاء الكتاب ويتحدثون بهذه الطريقة؟ لماذا يفضلون الجديد على القديم، لماذا يؤمنون بأن الله هو إله الجديد؟ لماذا يطلبون ويتوقّعون الميلاد الجديد، القلب الجديد، الإنسان الجديد، القيامة الجديدة، أورشليم الجديدة، السماء الجديدة والأرض الجديدة؟

إنهم لا يعلنون الجديد لأنهم يؤمنون بما آمن به كثير من الناس في عشرات السنين الماضية. . إن الأخرويات خير من الأوليات (لا لشيء) سوى أنها ببساطة هي المتأمرة؛ وأن التطورات الجديدة أكثر ألوهية من القديمة، ولأنهم أقرب إلى الكمال النهائي؛ وأن الله يضمن تقدماً دائماً (ولهذا) السبب هو إله الجديد. ضد مثل هذه الأوهام تأتي الكلمات المحبطة التي نطق بها الجامعة بالنسبة لكل التاريخ. ومن المؤكد أن مثل هذه الأوهام ليست هي محتوى الوعظ النبوي والرسولي فيما يتعلق بالجديد. ما هو محتوى توقعاتهم؟ ماذا يقصدون عندما يُحذّروننا ألا نأخذ بأشياء الماضي؟ ما هي تلك الأشياء الماضية وما هي الأشياء الجديدة التي يطلبون منا أن نراها وأن نتقبلها؟

إن (القديم) يعني أحياناً ذلك الذي يدوم عبر كل الأزمان، وأنه اليوم مثلما كان في الماضي ومثلما سيكون في كل المستقبل. هناك شيء لا يشيخ، شيء قديم دائماً وجديد دائماً في الوقت نفسه لأنه أبدي. إن الله يُسَمّى أحياناً (قدم الأيام) أو (كفارة القديم). وإن حكمة القديم وناموس الله اللذين هما قديمان قدم أسس الأرض يلقيان الثناء لا لشيء سوى أنهما قديمان؛ وما من جديد يُطرح مقابلهما بمثل ما لا ينطرح إله جديد ضد الاله القديم. إن (القديم) كما هو مستخدم هنا يعني (الدائم) وهو يشير إلى ذلك الذي ليس خاضعاً لتغير الزمن.

لكننا في النصوص التي قرأناها من كلمات النبي المجهول في المنفى في الإصحاح الثالث من إشعياء نجد أن (القديم) يعني العكس. انه يعني ذلك الذي يمر ولن نتذكره مرة أخرى ـ وهو مصيرُ كل شيء مخلوق، مصير النجوم

بمثل ما هو مصير العشب في الحقل ومصير الناس والحيوانات على السواء، ومصير الجماعات والأفراد على السواء، مصير السماوات ومصير الأرض على السواء. إنها جميعاً تشيخ وتُوَلّي. فماذا نقصد عندما نقول إن إنساناً أو شيئاً ما يشيخ؟ إن الحياة كلها تنمو؛ إنها ترغب وتسعى للنمو، وهي تحيا طالما هي تنمو. أحياناً يسحر الانسان ناموس النمو. والناسُ يعتبرون ما يساعد على النمو شيئاً طيباً، وما يعوق النمو شيئاً سيئاً. ولكن دعونا نتمعن أكثر في ناموس النمو وطبيعته المأساوية. وسواء لاحظنا نمو خلية حية أو نفساً إنسانية أو حقبة تاريخية نرى أن النمو هو مكسب وخسارة في الوقت نفسه، إنه تحقق وتضحية معاً. إن ما ينمو يجب أن يضحي بعديد من التطورات الممكنة من أجل التطور الذي اختاره لكي ينمو. إنَّ من يُرِدْ أنْ ينمو كعالم قد يعني أن يضحي بالامكانيات الشعرية أو السياسية التي كان يجب أن ينميها. إن عليه أن يدفع ثمناً. إنه لا يستطيع أن ينمو بنفس القدْر المتساوي في كل الاتجاهات. وإنَّ الخلايا التي تتكيف مع وظيفة واحدة للجسم تفقد القوة على التكيف مع الوظائف الأخرى. وحقب التاريخ التي تتحدد بفكرة واحدة تخمد حقيقة الأفكار الممكنة الأخرى. إن كل قرار يستبعد إمكانيات ويجعل حياتنا أكثر ضيقاً. إن كل قرار يجعلنا أكثر نضجاً وشيخوخة. إن الشباب انفتاح. لكن كل قرار يغلق الأبواب. وهذا مما لا يمكن تجنبه؛ إنه مصير لا مهرب منه. إن الحياة تتخذ قرارات في كل لحظة؛ والحياة تغلق أبواباً في كل لحظة. إننا نتقدم من الدقيقة الأولى من حياتنا إلى الدقيقة الأخيرة (لأننا) ننمو. إن ناموس النمو يعطينا عظمة ومن ثم يعطينا مأساة، فالامكانيات المستبعدة تخضنا؛ إن لها حقاً في ذاتها. ولهذا تقوم بانتقامها على حساب حياتنا تلك الحياة التي استبعدتها. وقد تموت؛ ومعها تموت قوى عظيمة للحياة ومصادر كبيرة للابداع. فالحياة وهي تنمو تصبح قوة مُقَيِّدَة وتصبح أكثر صلابة وجموداً وأقل قدرة على التكيف مع المواقف الجديدة والمطالب الجديدة. أو من جهة أخرى فإن الامكانات المستبعدة قد (لا) تموت. قد تظل فينا مكبوتة خفية وخطرة وربما تنفذ في عملية الحياة لا كثروات إبداعية بل كمرض مدمر. هذان هما الطريقان اللذان بهما تندفع الحياة التي تشيخ نحو نهايتها. طريق المحدودية الذاتية وطريق التدمير الذاتي وغالباً ما يختلط الطريقان ويحملان الموت لكل مجالات الحياة.

دعونا ننظر في مجال من هذه المجالات ـ موقفنا التاريخي، حياة عصرنا. إن حقبتنا قد أصبحت على ما هي عليه من خلال قرارات لا حصر لها ومن خلال استبعادات لا حصر لها بالتالي. وإن بعض الامكانات المستبعدة قد ماتت وحرمتنا من قوتها الخلاقة. وكثير منها لم يمت وبعد أن اختفت فترة تعود الآن على نحو مدمر. إن العظمة السابقة لحقبتنا قد أوجدت مأساتها الحالية ومأساة كل من يعيش فيها. وحتى أولئك الذين هم شباب بيننا قد شاخوا طالما أنهم ينتمون إلى حقبة قد شاخت. إنهم شباب في حيويتهم الشخصية؛ وهم قد شاخوا لأنهم قد شاركوا في مأساة عصرنا. من الوهم أن نؤمن بأن الشباب (كشباب) له قوة الحفاظ. وعندما شاخت الامبراطوريات القديمة وماتت لم يحفظها شبابها. وإن جيلنا الأصغر لن ينقذنا ويحفظنا بسبب أنه شاب.

لقد اتخذنا عديداً من القرارات لكي نصبح على ما نحن عليه. لكن كل قرار هو قرار مأساوي لأنه قرار ضد شيء لا يمكن كبته بعملية تحصين.

في بداية حقبتنا قررنا من أجل (الحرية) لقد كان قراراً صائباً؛ لقد خلقنا شيئاً جديداً وعظيماً في التاريخ. ولكن في هذا القرار استبعدنا الأمن الاجتماعي والروحي والذي به لا يمكن للإنسان أن يحيا وأن ينمو. والآن، في شيخوخة حقبتنا فإن مطلب التضحية بالحرية من أجل الأمن يقسم كل أمة والعالم كله مع وجود قوة شيطانية حقيقية. لقد قررنا من أجل (الوسيلة) للسيطرة على الطبيعة والمجتمع. لقد خلقناهما وأوجدنا شيئاً جديداً وعظيماً في تاريخ البشرية كلها. لكننا استبعدنا (الغايات). إننا لم نتهيأ إطلاقاً للإجابة على السؤال: (مِن أجل ماذا؟) والآن ونحن نقترب من الشيخوخة زعمت الوسيلة أنها الغاية؛ وأدواتنا أصبحت سادتنا، وأقواها أصبحت تشكل تهديداً لوجودنا عينه. لقد قررنا من أجل (الفعْل) ضد التقاليد البالية ومجّدنا الخرافات. لقد كان ذلك قراراً عظيماً وشجاعاً وقد أعطى هذا كرامة جديدة للإنسان. ولكننا في ذلك القرار استبعدنا النفس، أساس الحياة وقوتها. لقد قطعنا وفصلنا عقلنا عن نفسنا؛ لقد كبتنا النفس داخلنا وأسأنا معاملتها في الآخرين وفي الطبيعة. والآن، ونحن قد شخنا، فإن قوى النفس تنطلق مدمرة في عقولنا وهي تسوقنا إلى المرض العقلي والجنون وتؤثر في تفكك النفوس

عند الملايين من الناس ممن لا يمكن حصرهم وخاصة في أمريكا ولكن أيضاً في كل العالم.

منذ البداية الأولى لحقبتنا ونحن قد قررنا (للأمة) بالنسبة للتعبير عن طريقتنا الخاصة في الحياة وإسهامنا الفريد في التاريخ. لقد كان القرار عظيماً وخلاقاً، ولقد ظل فعالاً لعدة قرون. ولكننا في ذلك القرار استبعدنا البشرية وكل الرموز المعبرة عن وحدة الناس جميعاً. لقد تحطمت الوحدة القديمة، وما من جماعة دولية استطاعت أن تعيد بناءها. والآن، في شيخوخة حقبتنا تزعم أشد الأمم قوة نفسها أنها تمثل البشرية وتحاول أن تفرض طرقها في الحياة على الناس جميعاً وهي لهذا تنتج الحروب المدمرة التي ربما توحد البشرية جمعاء في سلام القبر.

لقد قررت حقبتنا من أجل عالم (دنيوي). كان هذا قراراً عظيماً يحتاج إليه الناس أشد احتياج. لقد أطاح كنيسة من على عرشها، كنيسة أصبحت قوة للقمع والخرافة. ولقد أعطى تكريساً وقداسة لحياتنا اليومية والعمل. ومع هذا استبعد تلك الاشياء العميقة التي يقوم الدين من أجلها: الشعور بسر الحياة الذي لا يُسْتنفد وجُمّاع معنى أقصى للوجود والقوة التي لا تقهر لتكرس غير مشروط. إن هذه الأشياء (لا يمكن) استبعادها. ولو حاولنا طردها في صورها الالهية فإنها تبزغ من جديد في صور شيطانية. والآن، في شيخوخة عالمنا الدنيوي قد رأينا، أشد تجلٍّ مرعب لهذه الصور الشيطانية؛ لقد نظرنا بعمق أشد في سر الشر عما فعلت معظم الأجيال التي سبقتنا؛ لقد رأينا التطور غير المشروط للملايين حتى وصلنا إلى صورة شيطانية؛ لقد شعرنا بما في حقبتنا من مرض حتى الموت.

هذا هو حال عالمنا. وعلى كلٍّ منا أن يدرك أنه يشارك فيه، وأن القُوى التي في نفسه التي جعلته يشيخ في سنوات مبكرة في الأغلب هي جزء من القوى التي جعلت حقبتنا تشيخ. إنَّ كُلاً منا يقوى هذه القوى وكل منا هو ضحية لها في الوقت نفسه. إننا في الصحراء التي تحدث عنها النبي وما من أحد منّا يعرف الطريق للخروج منها. من المؤكد ما من مخرج فيما يقوله بعض المثاليين لنا: «اتخذوا القرارات ولكن لا تستبعدوا أي شيء! خذوا الأفضل في (كل) الامكانات! اربطوا بينها. وحينئذٍ تصبح حقبتنا شابة من

جديدا». ما من إنسان وما من أمة يمكن أن يصبح شاباً من جديد بتلك الطريقة. إن الجديد لا يظهر من مجموعة من عناصر القديم الذي لا يزال حيّاً. عندما يأتي الجديد فإن القديم يجب أن يختفي. يقول النبي: «لا تذكروا الأوليات والقديمات لا تتأملوا بها» ويقول الرسول «أنظروا، هو ذا الكل قد صار جديداً». من موت القديم يبزغ الجديد. إن الجديد لا يُخْلق من القديم وليس من أفضل ما في القديم بل من (موت) القديم. إن القديم ليس هو الذي يخلق الجديد. إن ما يخلق الجديد هو ما وراء القديم والجديد: الأبدي.

«أنظروا، هأنذا صانع أمراً جديداً. الآن ينبت. ألا تعرفونه؟» لو كان الجديد جزءاً من القديم لما طرح النبي السؤال: «ألا تعرفونه؟» لأن كل إنسان كان سيرى هذا من قبل. لكن من الصعب تصوره. إنه خفيّ في السر العميق المسدل على كل خلق، المولد وإعادة الميلاد. إنه يبزغ للضوء ـ وهذا يعني أنّه يبزغ من ظلام ذلك السر.

وما من شيء أكثر مدعاة للدهشة من ظهور الجديد في داخلنا. إننا لا نتنبأ بنموه أو نلاحظه. ونحن لا نحاول أن نتجه بقوة إرادتنا، أو بقوة عاطفتنا أو بوضوح عقلنا. بل بالعكس، إننا نستشعر بأننا بمحاولة انتاجه إنما نحن نحاول أن نعوق ظهوره. بالمحاولة سوف ننتج القديم في قوة القديم وليس الجديد في قوة الجديد. إن الوجود الجديد يولد فينا عندما نكف عن الايمان به. إنه يظهر في الزوايا البعيدة لنفوسنا التي أهملناها لمدة طويلة. انه يفتح مستويات عميقة لشخصيتنا التي انغلقت من جراء القرارات القديمة والاستبعادات القديمة. إنه يشق طريقاً حيث لا يوجد أي طريق من قبل. إنه يحررنا من مأساة أن علينا أن نقرر وأن علينا أن نستبعد لأنه قد أُعطِي لنا قبل أي قرار. فجأة نحن نلاحظه داخلنا! إن الجديد الذي نبحث عنه ونشتاق إليه يأتي في اللحظة التي نفقد فيها الأمل أن نجده أصلاً. هذا هو أول شيء يجب أن نقوله عن الجديد: إنه يظهر عندما وحيثما يختار. إننا لا نستطيع أن نرغمه، ونحن لا نستطيع أن نحصيه. والاستعداد هو الشرط الوحيد له؛ والاستعداد يعني أن الأشياء السابقة قد أصبحت قديمة وأنها تسوقنا إلى دمار نفوسنا في اللحظة التي نحاول فيها بأقصى ما لدينا أن ننقذ ما نعتقد أنه يمكن إنقاذه من القديم.

والأمر نفسه في وضعنا التاريخي. إن مولد الجديد هو بالمثل يدعو للدهشة في التاريخ. إنه قد يظهر في بعض الزوايا الحالكة من عالمنا. إنه قد يظهر في جماعة اجتماعية حيث لا يمكن توقعه. إنه قد يظهر في أثر النشاطات التي تبدو غير هامة بالمرة. إنه قد يظهر في عمق كارثة قومية إذا أمكن أن يوجد في مثل هذا الموقف أناس قادرون على تصور الجديد الذي تحدث عنه النبي. وهو قد يظهر في ذروة انتصار قومي إذا كان هناك قلة من الناس تدرك الباطل الذي تحدث عنه الجامعة. إن الجديد في التاريخ يأتي دائماً عندما لا يعود الناس يؤمنون به. ولكن من المؤكد أنه لا يأتي إلا في اللحظة التي يصبح بها القديم مُشَاهَداً على أنه قديم ومأساوي ويموت، وعندما لا يُشَاهَدُ أي مخرج. ونحن نعيش في مثل هذه اللحظة؛ مثل هذه اللحظة هي وضعنا (نحن). ونحن لا ندرك هذا الوضع في عمقه إلا إذا توقفنا عن القول: «نحن نعرف من أين يأتي الجديد. إنه سوف يأتي من (هذه) المؤسسة أو (هذه) الحركة، أو (هذه) الطبقة الخاصة أو (هذه) الأمة أو (هذه) الفلسفة أو (هذه) الكنيسة». بطبيعة الحال لا نستبعد أياً من هذه الأشياء من أن تكون الموضع الذي يظهر فيه الجديد. ولكن ما من أيٍّ من هذه الأشياء يمكن أن يضمن ظهوره. وكلنا نحن الذين نظرنا إلى واحد من هذه الأشياء على أنه الموضع المختار للجديد قد أُصبنا بالاحباط. إن الجديد المفترض يبرهن دائماً على أنه استمرار القديم وهو يعمق صراعاته التدميرية. ولهذا فإنني أكرر. . الشيء الأول عن الجديد هو أننا لا نستطيع أن نرغمه ولا نستطيع أن نُحصيه. كل ما نستطيع أن نفعله هو أن نتهيّأ له. علينا أن ندرك بأقصى عمق ممكن أن الأشياء القديمة قد بليت وأنها تدمر حقبتنا في اللحظة نفسها التي نحاول فيها بأكبر قدر من الشجاعة أن نحتفظ بأفضل ما في القديم. وعلينا أن نحاول هذا التيقن في حياتنا الاجتماعية وحياتنا الشخصية على السواء. لا يوجد طريق سوى أكبر سعي انفعالي للجديد بأن نصبح واعين بأن القديم هو قديم ويموت. إن الأنبياء الذين بحثوا عن الشيء الجديد الذي يفعل كانوا منخرطين بأكبر قدر من الانفعال والنشاط في الوضع التاريخي لأمتهم. لكنهم عرفوا أنه لا هم ولا أي من الأشياء القديمة ستحمل الجديد.

وأعتقد أن الوضع مماثل في وجودنا الاجتماعي والتاريخي. إن جديداً

لا يكون قادراً على نَبْذ القديم في الماضي، في الذاكرة وكذلك في الواقع، ليس هو الجديد حقاً. إن الجديد الحق هو القادر على تحطيم قوة الصراعات القديمة بين الإنسان والإنسان، بين الجماعة والجماعة، في الذاكرة والواقع. إنه يستطيع أن يحطم اللعنات القديمة ونتائج الاثم القديم، الذي يرثه الجيل من الجيل السابق، الاثم بين الأمم، بين الأجناس، بين الطبقات، في القارات القديمة والجديدة، تلك اللعنات التي بها ينتج إثم جماعة في الواقع والذاكرة إثماً دائماً في جماعة أخرى. فأية قوة للجديد ستكون عظيمة ومنقذة بما فيه الكفاية لتحطيم اللعنات التي أضاعت نصف عالمنا؟ أي شيء جديد تكون له قوة إنقاذ لتحطيم اللعنة التي حطتها الأمة الألمانية على نفسها أمام أعيننا؟ يقول النبي: «لا تذكروا الأوليات» هذا هو الشيء الثاني الذي يجب أن يقال عن الجديد.

«هأنذا صانع أمراً جديداً». إن (الأنا) تشير إلى مصدر الجديد الحق، تشير إلى ذلك الذي هو دائماً قديم ودائماً جديد: الأبدي. هذا هو الشيء الثالث الذي يجب أن يقال عن الجديد. . إنه يحمل علامة أصله الأبدي في وجهه كما حدث عندما جاء موسى من الجبل ومعه ألواح الجديد وهو يفتح حقبة جديدة من التاريخ. إن الجديد حقاً هو الذي يملك في ذاته القوة الأبدية والنور الأبدي. إن الأشياء الجديدة تنبعث في كل لحظة، في كل مكان. ما من شيء اليوم هو على نحو ما كان بالأمس. لكن (هذا) النوع من الجديد قديم بمجرد أن يظهر. إنه يقع تحت حكم الجامعة: «فليس تحت الشمس جديد». ومع هذا يحدث أحياناً أن يظهر شيء جديد لا يشيخ بسهولة ويجعل الحياة ممكنة مرة أخرى في وجودنا الشخصي ووجودنا التاريخي بالمثل، إنه جديد مُنْقِذ له قوة الظهور عندما لا نعود نتوقّعه والذي له قوة أن يلقي في الماضي ما هو قديم ومُثَقّل بالاثم واللعنة. إن قوته المنقذة هي قوة الأبدي فيه. إنه جديد، جديد حقاً إلى الدرجة التي يكون بها وراء القديم والجديد، إلى الدرجة التي يكون بها خالداً. وهو يظل جديداً طالما أن القوة الأبدية للأبدي جلية فيه، طالما أن نور الأبدي يشع منه. فتلك القوة قد تصبح أضعف؛ وذلك النور قد يصبح أحلك؛ وما كان حقاً شيئاً جديداً قد يصبح قديماً هو ذاته. تلك هي مأساة العظمة الإنسانية التي يظهر فيها شيء أبدي.

وعندما يقول الرسل إن يسوع هو المسيح فإنهم يقصدون أنه فيه يكون الدهر الجديد الذي لا يمكن أن يشيخ حاضراً. وإن المسيحية تعيش خلال الايمان بأن فيها يوجد الجديد الذي ليس شيئاً جديداً آخر، بل بالأحرى مبدأ وتمثل كل الجديد حقاً في الانسان والتاريخ. لكنها لا تستطيع أن تؤكد هذا إلا لأن المسيح قد حرم نفسه من كل شيء يمكن أن يصبح قديماً، حرم نفسه من كل القائم فردياً واجتماعياً وبما هو عظيم وما هو تجربة وما هو قوة. لقد أسلم كل هذا في مَوْته وأظهر في استسلامه الذاتي الشيء الجديد الحق الذي هو الجديد الأبدي: الحب. يقول حواريه العظيم: «الحب لا ينتهي أبداً». إن الحب هو قوة الجديد في كل إنسان وفي كل التاريخ. إنه لا يمكن أن يشيخ؛ إنه يمحو الاثم واللعنة. وهو يعمل حتى اليوم نحو خلق الجديد. إنه خفي في ظلام نفوسنا وفي ظلام تاريخنا، لكنه ليس خفياً تماماً على أولئك الذين هم في قبضة حقيقته. لقد سأل النبي: «ألا (تعرفونه)؟ فهل (نحن) لا نعرفه؟

الفهرست

1995/1/521

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع